
فايد العمروسى
الجوارى المغنيات
دار المعارف بمصر

# الجوارى المغنّيات

١٨/ ٦/ ١٩٦٦

فايد العمروسى

# الجوارى المغنّيات



دار المعارف بمصر

١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م

بسم الله الرحمن الرحيم

١

كنت أعجب حين أقرأ لمؤلف فى مقدمة كتابه أنه قضى فى تأليفه كذا من الأعوام . . وكنت أحسب أن مثل هذا الكلام نوع من الدعاية أو على الأقل بعض من الإسراف فى التعبير .

كنت أعجب من هذا ، وأحسب ذاك ، حتّى قصدت إلى تأليف كتابى « الجوارى المغنيات » فتلاشى العجب ، وانمحى الحسبان . . ذلك — وإن لم يكن هذا الكتاب سفراً طويلاً عريضًا — فقد اقتضت ولادته شهوراً وأيامًا وليالى طويلة عريضة . فمَراجِعُهُ وهى الكتب الأدبية العربية وحدها أكوام ضخمة من الأخبار والأحاديث يصفع بعضها بعضًا ، ويندسّ فاسدها فى صحيحها ، ويناقض أولها آخرها ، بل تناقض كل كلمة فيها ما يتبعها من الكلمات . . . !

وما أشبه هذه الكتب بأشلاء مبعثّرة مختلطة يصعب على المحقق فيها أن يكوّن منها جسمًا متماسكًا ، أو صورة واضحة لها معالم مميزة ، وحدود معروفة .

وفى خِضَمّ هذه الفوضى العبقرية من الأخطاء والمتناقضات . . رُحتُ أبحث عن أشلاء أربع وعشرين جارية من الجوارى المغنيات .

وبما أمدنى الله به من صبر وتوفيق — رغم ما كان يكتنفنى من مواجع وأحزان — استطعت أن أجمع هذه الأشلاء ، وأن أوفق بين المتشابه منها حتّى خرجت من تلك المجاهل بصورة صحيحة لكل منهن ، فيها سَمْت واضح محدود على قدر الإمكان . وتلك إحدى الصعوبات .

٢

والصعوبة الأخرى هى النصوص الشعرية التى وردت فى هذا الكتاب ، وهى مادة الغناء لهؤلاء الجوارى ، ولو جُمِعت هذه النصوص وحدها لكوّنت ديوانًا مختاراً لبعض الشعراء فى أزهى عصور الأدب العربى . والوضع الذى وجدت عليه هذه النصوص وضع مشوّه غريب ، فبيْت من هنا ، وبيت من هناك ، ونقص وزيادة ، وفساد فى القافية أو الوزن ، وأخطاء فى الإملاء أو النحو ، وما شاكل ذلك من الصعاب التى تطلبت مجهوداً وإرهاقًا استطعت بعدهما أن أخلص هذه النصوص من شوائبها ، وأن أسوقها فى وضع صحيح قدر المستطاع .

٣

والجوارى المغنيات أول كتاب فى هذا الموضوع ، فالمكتبة العربية خالية منه ، وأظنها فى حاجة إليه . . . وما عرف قراء الأدب العربى عن هؤلاء الجوارى أكثر من أسماء المشهورات منهن ، ومن إلمامة وجيزة يأتى ذكرها عرَضًا فى خبر أو حديث أو لمحة من التاريخ أو بيت من الشعر .

وقد رأيت — وهن حاملات لواء الفنون العربية — أنهن جديرات بكتاب يضمهن بين دفتيه ويحميهن شر التشريد فى مجاهل الأسفار القديمة المخيفة ، وأن تختص كل منهن بحديث مرتب واضح ، يصور شخصيتها ، ويكشف عن حياتها ، ويزن مكانتها فى عالم الغناء .

وقد يكون هذا أشد لزومًا إذا عرفنا أن فى حياة هؤلاء الجوارى لمحات تاريخية تكشف عن شخصيات الخلفاء والأمراء والقواد والشعراء العرب ، وأن فيها مسارح رائعة للفن ، ومعارض خصبة بالشعر ، وصوراً ملونة من حياة

اللهو فى المجتمع العربى المترع بالمجون والفتون .

هذا ما حاولته فى هذا الكتاب ، ولست أدرى إلى أى حد وقفت فيما حاولت ؟

## ٤

والجوارى اللواتى أقدمهن اليوم هن « كواكب » الغناء العربى إن صح هذا التعبير ، وذلك ابتداء من العصر الجاهلى إلى أواخر العصر العباسى دون أن أتعرض للحديث عن جارية لم تشتهر بالغناء .

وهناك جوار أديبات شاعرات ، وجوار معشوقات ، ولكنهن غير مغنيات ، وفى الأندلس بعض الجوارى المغنيات اللواتى لم يبلغن مبلغ جوارى المشرق ، وكل هؤلاء قد يكون لهن فى المستقبل القريب حديث آخر ، فى كتاب غير هذا .

وليس حديثى عن هؤلاء الجوارى حديثَ باحث فى الموسيقى العربية وفنونها فهذا ليس من شأنى ، وإنما هو حديث عن الجانب الفنى لشخصيات لهن أثرهن فى الحياة العربية الاجتماعية والأدبية ، كما للشعراء أثرهم فى الحياتين معاً .

وكان لزاماً للحديث عن الجوارى أن أعرض على القارئ صورة من المجتمع العربى ، وأن أدخله فى جو فنىّ يحفزه إلى النشاط ويوقظ فيه الشوق والرغبة ، كما يرسل المغنى ألحانه الصامتة أول ما يغنى ليوقظ النفوس إلى الحنين ، ويهيئ الآذان للاستماع .

كان لزاماً علىّ هذا ، فمهّدتُ للحديث عن الجوارى بفصول موجزة عن : « نشأة الغناء ، والغناء فى الجاهلية ، ونقل الغناء من الفارسية والرومية إلى العربية ، ومواطن الغناء ، ومجالس الخلفاء ، والغناء والأديرة ، ومكانة الغناء

والمغنين ، ونشأة الجوارى » . ثم تحدثت عن الجوارى واحدة فواحدة ، ملاحظاً الترتيب الزمنى ما أمكننى ، تمشياً مع التاريخ الأدبى ، فذلك أوفق وأنسب .

ونهجت فى الحديث عن كل منهن نهجَ القصص السهل ، والعرض المقبول حتى يستطيع كل قارئ على اختلاف درجة ثقافته أن يفيد من غير إرهاق .

٥

وبعد : فنى الأدب العربى ثروة فنية خالدة ، ثروة آفاتها المجلدات الضخمة التى تضمها والتى ألمعت إليها فى أول المقدمة ، وإنها لمكرُمة جديرة بالتقدير أن ينهَض المشرفون على الثقافة العامة فأوْلَوْها عنايتهم ، إذ ليس بكثير عليها أن يكون لها فى ميزانية الدولة نصيب . . . نصيب تقوم به مجتمعات أدبية خاصة تعمل فيها جهود المشتغلين بالثقافة العربية فى جميع أقطار الشرق ، وإن فى تلك المكرمة تمجيداً لتراثهم المفقود ، وبعثاً لمجد سحبت عليه الأيام أذيال النسيان .

( الطبعة الثانية يوليه سنة ١٩٦١ )　　　　فايد العمروسى

# نشأة الغناء

الغناء لون من ألوان التعبير الإنسانى فى الحياة الأولى لأية أمة من الأمم . فهو كالألفاظ والجمل التى تحمل المعانى وتكشف عنها . . . وكما يكون تعبير الألفاظ عن المعانى ساذجاً فى بدء حياة الأمة ، كذلك يكون غناؤها ، فهو ينشأ وليداً همجياً مع النشأة الأولى للشعوب ، ثم يتطور إلى التهذيب والنضوج تبعاً لتطور البيئة الاجتماعيه والثقافية المرتبط بهما .

والغناء تعبير عن الانفعالات النفسية للفرد ، فهو قد يعبر عن عاطفة الفرح أو الحزن ، أو عن غريزة الجوع أو الشهوة أو ما شاكل ذلك من الإحساسات الإنسانية والغرائز البشرية ، لذلك كان من الصعب جداً تحديد نشأة الغناء فى الشعوب البشرية عامة إلا بالوقت الذى يتكون فيه اجتماعها فيحتاج كل فرد إلى التعبير عن أغراضه وميوله ، أو التعبير عن انفعالاته وأحاسيسه .

الغناء والشعر :

وللغناء — كتعبير موسيقى — صلة بالشعر كتعبير لفظى ، وما أظن أنهما يختلفان تمام الاختلاف فى بدء نشأتهما ، لأن معينهما واحد هو الإحساس على اختلاف ألوانه ، وغايتهما واحدة هى التعبير - كل بطريقته — عن هذه الأحاسيس .

إلا أن الذى لا شك فيه أن الغناء أصل للشعر ومنبع له ، فالمغنى قد يترنم بألفاظ ويتغنّى بعبارات دون أن يكون لهذه الكلمات صلة بالشعر — كفن له أصول وقواعد — ولأن العاطفة تخلق فى الإنسان قبل أن تخلق فيه القدرة على التعبير ، بله التعبير الفنىّ الذى نسميه شعراً ، فالغناء إذن منبع للشعر وأصل له . فالشعر غناء تهذب وارتقى مع تطور الأزمان واتساع مرافق الحياة .

لهذه الصلة الأكيدة بين الغناء والشعر يجرنا الحديث حتماً إلى ما بين الشاعر والمغنى من صلة ، وتحديد علاقة كل منهما بالآخر .

الشاعر والمغنى :

وبعد ، فأيهما سبق الآخر فى الوجود ؟ وما مدى صلة كل منهما بالآخر ؟

قلنا إن الغناء — كعاطفة يعبر عنها بأى لون من ألوان التعبير — سابق للشعر — كتعبير فنى له أصول وقواعد .

وعلى هذا يكون المغنى قد سبق الشاعر فى الوجود ، والمقصود بالمغنى هنا كل من ترنم أو تغنى بألفاظ تعبر عن معنى أياً كانت قيمته ، أو بأصوات توقيعية تعبر عن إحساس أياً كان نوعه ، هذا المغنى سبق الشاعر فى الوجود لا شك ، وهو بهذا المعنى موجود منذ وجد الإنسان على ظهر البسيطة ، ولن ينفرد الإنسان وحده بهذه الميزة ، بل إن له من الحيوانات التى عرفت بالحنان ورقة القلب « كالإبل » ، ومن الطيور العاطفية « كالحمام » ما يشترك وإياه فى هذا الغناء .

ولا يبعد أن يكون من المغنين من استطاع أن ينظم الكلام نظماً موسيقياً ويتغنى به ، ومن هنا يكون الشاعر قد خُلق من المغنى إن صح هذا التعبير . أو أن المغنى تهذبت لغته وتيقظ ذوقه الفنى وارتقى تعبيره فنظمه وجعله مادة لغنائه ، فالصلة بين المغنى والشاعر هى الصلة بين المعانى والتعبير ، لا بد من اجتماعهما وإن سبقت إحداهما الأخرى .

لذلك كان المغنى فى بعض الأزمان هو الشاعر ، هو الذى ينظم الشعر الساذج ، وهو الذى يغنيه . يذكرنى بهذا ما كان فى مصر زمن الفاطميين وما بعده من قوم يغنون على « الربابة » فى المقاهى والطرق كلاماً من اختراعهم أو اختراع غيرهم يدور حول الفروسية والشجاعة والقصص الخيالى الشبيه بالأساطير . هؤلاء القوم كان العامة يسمونهم شعراء .

ويحدثنا تاريخ الأدب أن بعض شعراء اليونان كانوا يغنون بشعرهم ، وأن الأدب العربى حين تسرب من الأندلس إلى أوربا أوجد فيها طائفة من الشعراء المغنين كانوا يطوفون بالبلاد ويغنون الناس بأشعارهم ، ولكن تاريخ الأدب العربى لم يحدثنا عن مثل هذا الشاعر من شعراء العرب ، فنحن لا نعرف شاعراً جاهلياً أو غير جاهلى كان يتغنى بشعره ، اللهم إلا ما ورد من أن شعر الأعشى كان يُتَغَنَّى به فى أنحاء الجزيرة العربية وأن بعضاً من نساء العرب كن يغنين لأطفالهن بعض الأراجيز .

وتاريخ الأدب الجاهلى غامض كل الغموض ، لذلك لم يستطع الباحثون أن يحققوا منه إلا ما كان قبل الإسلام بنحو قرن ونصف قرن على التقريب ، على أن الشعر فى هذه الفترة كان محل شك لبعض الباحثين ، فلو أن البحث انتهى بنا إلى شيء من اليقين قبل هذه المدة ما كان بعيداً أن نجد فى شعراء الجاهلية من كان يتغنى بشعره فى إنشاده .

والذى يهمنا من كل هذا أن الغناء غريزى فى كل أمة ، وأن للشعر صلة أكيدة بالغناء ، وأن المغنى والشاعر صنوان ، فإن لم يكن أحدهما سابقاً للآخر سبقاً زمنياً فهما على الأقل قد وجدا معاً فحملا الفنين فى وقت واحد ، وبتقدم الحياة واتساع عمرانها وتطور الفكر البشرى فيها انفصل الفنان ، وانفصل بانفصالهما المغنى عن الشاعر ، فراح الأول يحمل رسالة الغناء ، والثانى يحمل رسالة الشعر .

# الغناء فى الجاهلية

## دواعى الغناء عند العرب :

لعل الدواعى على اختلاف أنواعها التى أدت إلى نبوغ العرب فى الشعر هى نفس الدواعى التى حببت الغناء إليهم ونشرته فى جزيرتهم ، فهدوء الصحراء واتساعها ، وفرحهم بالمطر والسحاب ، وتمجيدهم للناقة والفرس ، وغرامهم بالفروسة والبطولة ، ونشأتهم فى الحروب والعادات ، وتفاخرهم بالحسب والنسب والكرم والمروءة وما إلى ذلك من الصفات الإنسانية ، كل أولئك على ما بهم من سعة الخيال وحدة العواطف كانت دوافعَ حافزة إلى التغنى بالشعر فى مجالسهم التى سنشير إليها فى هذا الفصل .

كذلك للأديرة التى كانت منتشرة بالجزيرة والشام والحيرة الفضل الأول فى تسرب الغناء إلى العرب وتعشقهم إياه .

كذلك كان للشراب فى الحياة الجاهلية أثر عميق فى استخفاف العربى وهَيْجة خواطره ؛ فحن إلى الغناء وطلبه وسافر إليه فى كل مكان .

وحبُهم للمرأة ، والسعى وراءها ، والحنين إليها ، واستمداد القوة الروحية منها ورحيلهم للتجارة أو التنقل بقوافل الإبل كان من أقوى الدوافع إلى تعشقهم الغناء كفن جميل فيه تنفيس وتفريج .

## مادة الغناء :

وأول فنون الغناء عندهم وأحبها إلى نفوسهم هو « الحُداء » .

ولم تكن مادة الغناء عند العرب سوى الشعر ، وقد كان من المفهوم أن يكون الغزل هو الفن الشعرى يسيطر على الغناء ويستوعبه ، لما فيه من رقة لفظية وتعبير

عن الوجدان وتصوير للإحساس ، غير أن الأمر كان على عكس ذلك فى الغناء العربى حتّى فى العصر الذى نشأ فيه الغزل العفيف فى البادية ، والغزل الإباحى الذى أسس مدرسته عمر بن أبى ربيعة وأضرابُه .

لقد كان شعر المديح والفخر والحماسة هو مادة الغناء الأولى ، وعلّ ذلك ينبهنا إلى أنّ الوجدان العربى كان أصيلاً فى الفخر والحماسة أكثَرَ منه فى الغزل والتشبيب بالنساء ، وأن الغناء عندهم لم يكن وسيلة للعبث واللهو فحسب ، بل كان جزءاً من حياتهم وتصويراً لميولهم وطبائعهم كما كان شعرهم .

أين كان الغناء ؟

والباحث عن الغناء فى الجاهلية لا يجد منه إلا النادر جداً . وإنه لتعترضه الصعوبة التى اعترضت مؤرخى الأدب حين أرخوا لهذا العصر ، وأمّهات الكتب العربية الأدبية وأقواها حجة فى هذا الباب وهو « الأغانى » لم يحدثنا عن الغناء فى الجاهلية إلا بقدر يسير . على أن فى الشعر الجاهلى المعروف ما يثبت وجود الغناء ، وما يشير إلى أنه كانت للعرب مجالس غنائية فيها الجوارى وغيرهن ، فقد ورد فى قصيدة النابغة التى قالها فى وصف المتجردة زوج النعمان هذه الأبيات :

| | |
|---|---|
| أفِدَ التّرحلُ غيرَ أن ركابنا | لمّا تزل برحالنا وكأنْ قَدِ |
| زعم الغداف [1] بأن رحلتنا غداً | وبذاك خبرنا الغداف الأسود |
| لا مرحبا بغد ولا أهلا به | إن كان تفريق الأحبة فى غد |

وقافية القصيدة دال مكسورة ، ولكنها وردت هكذا بضم الدال مع وجوب كسرها فى البيت الثانى :

وفطن قوم إلى هذا الخطأ فى شعر النابغة واستعظموا هذا عليه ، فأرسلوا

(١) الغراب .

جارية غنّته هذه الأبيات ، ففطن النابغة إلى الخطأ فأعاد البيت الثانى هكذا :

زعم الغُداف بأن رحلتنا غداً وبذاك تَنْعابُ الغراب الأسود

* * *

وجاء فى معلقة طرفة بن العبد ما ينبئ بوجود مجتمع من الشبان الجاهليين المترفين الذين ينهلون من الحياة ما يستطيعون ، فهم مقيمون على اللهو والمجون ، وهم يعاقرون الشراب ما طاب لهم العيش ، وحيث وجد الشراب وجد الغناء عادة ، ولا سيما عند العرب ، فهو يرد على من يلومه فى إنفاق حياته بين اللذائذ والشهوات والحروب فيقول :

ألا أيها الزاجرى أحْضُرَ الوغى وأن أشهدَ اللذات هل أنت مخلدى ؟
فإن كنتَ لا تسطيع دفعَ منيتى فدعْنى أبادرها بما ملكت يدى

ويقول :

وإن تَبغِنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد
متى تأتنى أصبحْك كأسًا رويّة وإن كنت عنها غانيًا فاغْنَ وازدد

ويقول واصفًا قَيْنة تغنيهم فى مجلس غناء :

نداماىَ بيضٌ كالنجوم وقيْنة تروح علينا بين بُرد ومُجسَد[1]
رحيبٌ قِطابُ[2] الجيب منها رفيقة بجسّ الندامى[3] بضّةُ المتجرد
إذا نحن قلنا أسْمعينا انبرت لنا على رِسْلها مطروقة لم تشدد
إذا رَجّعت من صوتها خلت أنها تجاوبُ أظآر على رُبع[4] رَدِ[5]

فهنا يذكر طرفة أن ندماءه فى المجلس كالنجوم ، وأن الجارية ترقص

---

(١) معصفر . (٢) الجسم الداخلى . (٣) كناية عن سعة صدرها .
(٤) ولد الناقة . (٥) هلك .

بينهم فى لباس أبيض معصفر ، وأنها فسيحة الصدر ، رقيقة العاطفة ، ناعمة الملمس طيعة فى غنائها المطرب كما يطرب نواح النياق على صغيرهن المفقود ... !

* * *

هذا ، وقد عرفت فى الجاهلية جاريتان تسميان « الجرادتين » .

فقد ذكر أبو الفرج أن عبد الله بن جـدعان كان سيداً جواداً من قريش . وكانت له مغنيتان هما « الجرادتان » وقد غنت كل منهما شعراً لأبى فَرْعة الكنانى :

أقفر من أهله مصيف فبطنُ نخلة فالمصيفُ[1]

هل تبلغنى ديار قومى مُهرية سيرُها زَفيف[2]

يا أم نعمان نوّلينا قد ينفع النائل الطفيف

أعمامها الصّيد من لؤَىّ حقاً وأخوالُها ثقيف

وأتى إليه أميةُ بن أبى الصلت يوماً فامتدحه بقصيدة جاء فيها :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك . إن شيمتك الحياء ؟

فأرضك كلُّ مكرُمة بناها بنو تَيْم وأنت لهم سماء

فهل تخفى السماء على بصير وهل بالشمس طالعة خفاء

ورأى ابن جـدعان أن أمية ينظر إلى الجرادتين بإعجاب وشوق فأهداه واحدة منهما ، ولكن قريشاً لامـُوه على ذلك فرجع يردها إليه ويقول :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين

وليس بشين لامرئ بذلُ وجهه إليك ، كما بعض السؤال يَشين

فأمر ابن جدعان الجرادتين فغنّتا . . . وما انتهى غناؤهما حتى أهداه الأخرى .

---

(١) أسماء اماكن . (٢) ناقة سريعة .

* * *

وكان لحسان بن ثابت شعر كثير فى الجاهلية غنَّته المغنيات والمغنون فى الإسلام . وكان معجباً بعزّةَ الميلاء ، وقد اجتمع عندها يوماً بعد ذهاب بصره فسمع جاريتين هما « رائقة وعزة » تغنيان شعره الذى أوله :

انظر خليلىَّ بباب جِلَّقَ هل    تبصر دون البلقاء من أحد

فبكى وقال :

لقد أذكرتنى رائقة وصاحبتها غناء ما سمعته أذناى بعد ليالى جاهليتنا مع « جَبَلة بن الأيْهم » لقد رأيت عنده فى مجلس غناء عشرَ قيان منهن خمس روميات يغنين بالرومية ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان قد أهداهن إليه « إياسُ بنُ قبيصة » ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشراب فُرِشَ تحته الآسُ والياسمين وأصناف الرياحين ، وضُرِب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأتِىَ بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة ، وأُوقدَ له العود المندّى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بُطِّن بالثلج . . . إلخ .

ومن كلام حسان نعرف أنه كان هناك مغنون من العرب يدعون لمجالس الغناء ، وأن الأغانى فى الجاهلية كان بعضها رومياً وبعضها فارسياً وبعضها عربياً ، وأن الغناء كانت له مكانة فى الجاهلية لا تقل عن مكانة الشعر فيها .

وإذا عرفنا أن الشعر هو مادة الغناء فى جميع العصور العربية أمكننا أن نشير إلى أن الغناء فى الجاهلية قديم وعريق ، ولغموض التاريخ السياسى والأدبى فى هذا العصر لم نستطع أن نقف منه على الشىء الكثير .

## كيف نقل الغناء إلى العربية ؟

نستطيع أن نقول إن الغناء فى الجاهلية — على قلة ما ورد عنه من الأخبار — كان يجرى على الفطرة كالشعر ، فلم تكن له أصول أو قواعد كفنٍّ له خطره ، وإنما كان ذلك فى الفرس الذين كانوا يسمون الغناء أدباً ، وفى الروم الذين كانوا يسمونه فلسفة[1] . كذلك لم تكن آلات الغناء محكمة الصنعة ولا دقيقة التركيب . والمشهور من غناء الجاهلية — غير الشعر — هو الحُداء والنشيد .

ولما كان العرب مجاورين للفرس والروم — ولهاتين الدولتين غناء منظم معروف — استطاع بعض المغنين العرب أن ينقلوا إلينا الألحان الفارسية والرومية ويصنعوا عليها غناء عربياً .

وأول من فعل ذلك هو :

سعيد بن مِسْجح :

ويكنى « أبا عثمان » وهو عبد أسود مولى لبنى مخزوم ، وقيل لبنى نوفل ، وهو أول من غنى الغناء العربى بمكة ، وكان كثير الترحال ، رحل إلى الشام فأخذ منها اللحن الرومى ، ثم إلى الفرس فأخذ اللحن الفارسى ، ثم قدم إلى الحجاز وقد حذق ما سمعه من هذه الألحان التى أعجب بها فأخذ منها بعضها مما استعذبه وصنع عليها ألحاناً فى الغناء العربى ، سمعه مولاه يوماً يغنى بشعر ابن الرقاع العاملى :

أَلْمِمْ على طَلَلٍ عفَا متقادم ... بين الذُّؤَيب وبين غِيب الناعم[2]

لولا الحياء وأن رأسِيَ قد عثَا ... فيه المشيب لزرتُ أمَّ القاسم

(١) رسالة الجاحظ . (٢) اسمان لمكانين فى بلاد العرب .

فقال له أنى لك هذا ؟ قال : سمعت الأعاجم تتغنى بالفارسية فقلبتها فى هذا الشعر ، قال : فأنت حر لوجه الله .

ولسعيد بن مِسْجح أخبار طويلة لا تعنينى فى هذا البحث أكثر من أنه أول ناقل للألحان الفارسية إلى العربية فى مكة .

ومن غنائه الذى صنعه على الألحان الفارسية قول الأحْوَص :

أسَلاَمُ إنك قد ملكت فأسْجِحِى ... قد يملك الحر الكريم فيسجحُ
مُنِّى على عانٍ أطلتِ عناءه ... فى الغُلّ عندك والعناة تسرح
إنى لأنصحكمّ وأعلم أنه ... سيان عندك من يغش وينصح
وإذا شكوتُ إلى سلامة حبها ... قالت أجِدٌّ منكَ ذا أم تمزح ؟

وبفضل ابن مسجح شاع الغناء العربى بمكة ، وتعلمه الناس . وكان « ابن سُرَيج » المغنى المعروف أنبغَ تلاميذه ، وعليه تخرج « الغريض »

ابن محرز :

وممن نقلوا الغناء الفارسى والرومى إلى العربية ابن محرز ، وهو مولى بنى عبد الدار ، وكان أبوه من سَدَنة الكعبة وأصله من الفرس ، وكان يسكن المدينة ثلاثة أشهر يتعلم فيها الضرب على عَزّةَ الميْلاء ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها كذلك ، ثم يتحول إلى فارس والشام فيجمع من الألحان الفارسية والرومية ما يعجبه ويصنع عليها ألحانًا من شعر العرب .

ومن الشعر العربى الذى غَنَّاه على هذه الألحان قول الحرث بن خالد فى عائشة بنت طلحة وكان يهواها :

فوددتُ إذ شحَطوا وشطَّت دارهم ... وعَدَتهمُ عنا عوادٍ تشغل
أنا نُطاعُ وأن تُنَقَّل أرضُنا ... أو أن أرضَهم إلينا تُنقل

وعرف عن ابن مِحرز أنه كان من أحسن الناس غناء ، وكان يسمى « صنّاج العرب » .

* * *

سائبُ خاثر :

كان مولى لبني ليث ، وأصله فارسي ، وقد اشتراه عبد الله بن جعفر وأعتقه ، وكان عبد الله بن عامر قد اشترى إماءً صنّاجات [1] ، وأتى بهن المدينة ، فكن يلعبن فى كل يوم من أيام الجمع ، ويسمع الناس منهن الغناء ، فأخذ سائب خاثر عنهن . وقدم رجل فارسي يدعى « نشيط » المدينة فغنى ، فعجب عبد الله بن جعفر منه ، فقال له « سائب خاثر » أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسي ، وفى اليوم الثانى أتى ابن جعفر وغنى له :

لمن الديارُ رسومها قفـر لعبت بها الأرواح والقطرُ
وخلا لها من بعد ساكنها حِجَجٌ مضينْ ثمانٍ أو عشرُ
والزعفران على ترائبهـا شرِقٌ به اللبّاتُ والنحْرُ

قال ابن الكلبي : وهذا أول غناء غُنِّيَ به فى الإسلام من الغناء العربى المتقن .

عرف عبد الله بن جعفر فضلَ « نشيط » على الغناء العربى فاشتراه ، ومنه تعلم سائب خاثر ، وأخذ عنه ابن سُريج وجميلة ومَعبد وعَزة الميلاء وغيرهم .

وكان ابن جعفر يعقد المجالس للغناء يحضرها وجهاء العرب وقد شهد معاويةُ الغناء عنده مرتين ، وطرب من سائب خاثر وأثنى عليه حين سمعه يغنى قول حسان بن ثابت :

لنا الجفناتُ الغر يلمعن فى الدجى وأسيافنا يقطُرن من نَجدة دمَا

(١) اللاعبات بالصنج وهى قطعة مستديرة من النحاس تضرب بأخرى مثلها .

طُوَيس :

وممن لهم فضل على الغناء العربى « طويس المغنى » وهو أيضًا مولى لبنى مخزوم ولقب بالذائب لأنه غنى :

قد براني الحب حتى كدتُ من وجدى أذوب

وهو أول من صنع الهزَج والرَّمَل فى الإسلام ، وكان مولعًا بغناء الشعر الذى قالته الأوس والخزرج فى حروبهم ، وقد ضُرِب المثل به فى الشؤم فقالوا : أشأم من طُويس ، لأنه وُلد[1] يوم موت النبى صلى الله عليه وسلم ، وفُطِمَ يوم مات أبو بكر ، وخُتن يوم مات عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، ووُلِدَ له يوم مات على رضى الله عنه . . .

من هذه اللمحات الخاطفة نعرف أن الغناء العربى المتقن الصنعة مأخوذ من الألحان الفارسية والرومية ، وأن الذين نقلوها هم الموالى ، فهؤلاء أفادوا الغناء ، كما أن غيرهم من الشعراء الذين هم من أصل فارسى أفادوا الأدب بوجه عام .

---

(١) نهاية الأرب .

# مواطن الغناء

## « الحجاز ، العراق ، الشام »

---

## الغناء الأموى والعباسى

كان الغناء فى الحجاز مسرفًا فى اللهو والمجون . كما كان رقيقًا خليعًا ، ذلك لما عُرِف به الحجازيون من رقة الطبع والعذوبة ، ولما كانوا عليه من الرخاء والترف ، ولانقطاعهم عن الدولة الأموية وبُعدهم عن مركز الخلافة وسخطهم عليها ، فما كان لهم صلة بالسياسة ولا علم لهم بما يجرى فى الشام والعراق من الكفاح والنضال الحزبى ، على أن معاوية عرف كيف يتقى شرهم فأمدهم بالأموال وأغدق عليهم الخيرات فتَقَبَّعوا فى الحجاز راضين بالهدوء واللهو والغزل والغناء .

ولم يكن الغناء كذلك فى العراق والشام ، لقد كان فى دائرة محدودة من الانتشار والخلاعة ، ذلك ، لأن كلا منهما كان مهبطًا للثورات والفتن ، وكان مركزًا للخلفاء والحكام الذين يناضلون فى تدعيم أسس الدولة العربية فى الأقطار المفتوحة ، فلم يكن لديهم — وهم رجال تأسيس وفتوحات — ما يسمح لهم باللهو والغناء إلا بقدر محدود.

وربما كان هذا الوضع معكوسًا ، فقد كان أولى بالعراق ، وهو قريب من الفرس وحضارتهم ، والفرس معروفون بمجالس الغناء والتفنن فيه ، أن يكون السابق فى الغناء كما كان السابقَ فى النهضة الفكرية على اختلاف ألوانها ، وكذلك يقال فى الشام وهى وريثة حضبارة اليونان ومهبط الثقافات .

ولكن رقة الحجازيين كما قلت ، والثراء ونشأة الغزل الإباحى العفيف

فى حواضره وبواديه ، كل ذلك كان سبباً من أسباب انتشار الغناء فى الحجاز قبل أن ينتشر ويأخذ مكانته فى العراق والشام .

وما استقرت الدولة الأموية واتسع سلطانها حتى بدأ الغناء يتحول من الحجاز إلى عواصم الخلفاء رويداً رويداً ؛ ثم تركز نهائيًّا وتضخم فى العصر العباسي وبخاصة فى بغداد، وأصبح العراق كعبة القصاد من الشعراء والعلماء والمغنين فوق ما كان سوقًا هائلة تضج بالأجناس المختلفة من فرس وعرب وهنود وروم ، وقد ارتقت الحياة الاجتماعية وعمّ الرخاء فأمعن الناس فى اللذائذ وبالغوا فى مظاهر الترف والنعيم بين الشراب والغناء وانتهاب الملذات والإغراق فى الشهوات .

ولقد كان الغناء متمشيًا مع الأدب جنبًا لجنب ، لذلك كان الغناء الأموي ذا صبغة عربية بحتة رغم ما اقتبسه من الألحان الرومية والفارسية ، ولم تكن الحياة العربية فى عهد الأمويين قد اتسعت نواحيها وامتزجت بالعناصر الفارسية والرومية كل الامتزاج كما كان عند العباسيين ، على أن الأمويين كانت تشغلهم أمور عظام هى بناء ملكهم وإطفاء الفتن والثورات والتوسع فى الفتوحات ، فلم يكن لديهم من الهدوء والرخاء الاقتصادى ما يمكنهم من الإسراف فى الغناء والتفنن فيه . فلم يُعرف عن معاوية ومن جاء بعده إلى يزيد ابن عبد الملك — مثلاً — من بالغ وأسرف فى الشراب والغناء كغيره من العباسيين .

وعلى أيٍّ ، فالغناء فى العصر الأموى كان عربيًّا بحتًا فيه كثير من من التحرز والعفة والتحديد بوجه عام .

* * *

أما الغناء فى العصر العباسى فعلى نقيض ذلك :

كان اللهو عامة محدودًا أو على الأصح مكبوتًا فى نفوس الناس فى عهد « السفاح والمنصور » فإنهما كانا رجلى كفاح وإدارة وعزم ، فوق ما عرفا به من البخل والضن بأموال الدولة .

وما إن تولى الخليفة المهدى حتى انطلق هذا الكبح فانتشر اللهو والغناء والشراب إلى حد الخلاعة والمجاهرة بها ، ذلك لما صارت إليه الدولة من الاستقرار والأمن ، ولما كان يدخل فى خزائنها من باهظ الأموال التى تجبى من الخراج ، ولقد ذكر ابن خلدون أن دخل المملكة فى عهد الرشيد كان فى كل سنة سبعة آلاف وخمسة عشر قنطاراً من الذهب . هذا إلى كثرة الجوارى من كل نوع وإلى تلَوّن الحياة الاجتماعية بألوان المدنية المشرقة فى جميع نواحيها، تلك الحياة التى لم يألفها العربى فى صحرائه المجدبة والتى بهرته وطارت بعقله؛ فلم يسعه إلا أن يغترف منها ما استطاع :

تمتع بها ما ساعفَتْك جدودُها     فما كلّ حين صفوها لك شامل

ومجالس الغناء عند العباسيين خلفاء وأمراء وحكاما ووجهاء وغيرهم تغص بها كتب الأغانى ونهاية الأرب وحلبة الكميت والعقد الفريد ، وإن العقل ليذهل مما يري فيها من إمعان وإغراق فى اللذائذ ، وبما فيها من ترف يفوق الحد ، وعطاء لايدخل فى حدود المعقول، مما أدي بعد إلى تدهور الدولة رويداً رويداً ثم انحلالها بعد حين .

# مجالس الخلفاء

كان الغناء والشراب أشهى ضروب اللهو فى حياة العباسيين ، وكانت دنياهم تموج بالطرب والعطاء واقتناص اللذائذ والشهوات والإسراف فيها ليلاً ونهاراً .

وقد كان لهذا التيار الجارف أثره فى نفوس العباسيين عامة ، فأصبح الغناء ضرورة من ضرورات حياتهم لا يعيشون إلا به ، ولا يرون الحياة سهلة جميلة إلا على ضرب الأعواد ونقر الدفوف وترنيم الأشعار وألحان الغناء .

ولقد بلغ من امتزاج الغناء بنفوسهم أن كان بعضهم يتعشّقه ولا يطيق العيش بدونه ، وبعضهم كان يسمعه فيذهب عقله ، أو تعتريه لوثة ، أو يغمى عليه ، أو يفقد وعيه ، أو يشق ثوبه ، أو ينطح الحائط برأسه أو يهيم على وجهه[1] ، ولقد ذكر صاحب العقد الفريد كثيراً من النوادر عن عشاق الغناء وما جرى لهم .

وقصور الخلفاء والأمراء والأعيان وسراة العرب كانت معارض هائلة للغناء واللهو وقرض الشعر والتندر بالطُّرف ، وكان لهذه المجالس قيان حسان لا يغنين إلا فيها ، كما كان للعامة مجالس أخرى تغنى فيها القيان المحترفات ، كما كن يغنين فى الطرق والمنتديات والأسواق ودور النخاسين .

وكان أعظم هذه المجالس فخامة وإسرافاً فى الأبهة مجالس الخلفاء والبرامكة الذين قادوا الخلفاء وفتحوا لهم أبواب اللهو والإمعان فيه ، فهم الذين أهدوهم الجوارى وقادوا إليهم المغنين وأسرفوا فى العطاء إلى حد الجنون ، ولإبراهيم الموصلى مع البرامكة أخبار تثير العجب والدهشة .

---

(١) نهاية جـ ٤ ص ٣٥٢

فمن مجالس الخلفاء ما حكى صاحب الأغانى أن الوليد بن يزيد اشتاق إلى « معْبد » المغنّى فوجه فى إحضاره من المدينة ، فلما بلغ الوليدَ قدومُه أمر ببركة ملئت ماءَ ورد مخلوط بمسك وزعفران، ثم جلس هو وجواريه على حافتها ، وأجلس « معبداً » على حافتها الأخرى وضرب بينهما ستار — وكان الخلفاء فى ذلك الحين لا يظهرون على المغنين — فأمر الخليفة معبداً أن يغنى .

قال معبد : أغنى ما حضر أو ما يقترحه أمير المؤمنين . . ؟

قال الوليد غنّ :

ما زال يعدو عليهم رَيْب دهرِهمُ — حتى تَفانَوْا وريب الدهر عَدّاء

وما إن غناه حتى رفع الجوارى الستر فألقى الوليد بنفسه فى البركة ثم خرج فاستقبلته الجوارى بغير الثياب التى كانت عليه ، ثم شرب وسقى « معبداً » وقال له غن :

يا ربعُ مالك لا تجيب متيماً — قد عاج نحوك زائراً ومسلما
جادتك كلُّ سحابة هطّالة — حتى ترى عن زهره متبسماً
لو كنتَ تدرى من دعاك أجبته — وبكيتَ من حُرَق عليه إذنْ دما

فغناه فأغرق نفسه ثانية فى البركة ، ثم شرب وقال لمعبد غنّ :

عجبتُ لما رأتنى — أندُب الربع المَحيلا
واقفاً فى الدار أبكى — لا أرى إلا الطلولا
كيف أبكى لأناسٍ — لا يَملُّون الزميلا[1]
كلما قلت اطمأنت — دارهم قالوا الرحيلا

فلما فرغ معبد من الغناء أغرق الوليد نفسه ثالثاً . . . وقيل : إن « معبداً »

---

(١) نوع من السير .

خرج من ذلك المجلس بخمسة عشر ألف دينار . . .

وليس فى هذا الخبر ما يدعو إلى العجب ، فإن هناك من المجالس ما يحير الألباب ويدهش العقول ، ومن تصرفات الخلفاء حتى ممن عُرفوا بالوقار منهم ما لا يستسيغه العقل إلا بتحرز وتمحيص ، وإنا لنصدق هذا الخبر بالنسبة إلى الوليد لما عرف به من المجون والنزق وبالنزعة الشعرية الغزلية الرقيقة .

* * *

وللرشيد مجالس كثيرة بالغة فى التفنن والإسراف فى اللهو ، ولقد أغرم بالغناء وبلغ من غرامه أنه أرق ليلة فخرج متخفياً إلى دار إبراهيم الموصلى فَصُفَّت له الجوارى بجانبيه ، ورُحْن يضربن ويغنين ثنتين ثنتين ، وقد شرب الرشيد وطرب ، ولما غنت إحداهن :

يا مُورِىَ الزَّند قد أعيت قوادحُه — أقْبِسْ إذا شئت من قلبى بمقياس
ما أقبح الناس فى عينى وأسمجَهم — إذا نظرتُ فلم أبصِرْك فى الناس

صاح الرشيد واستعاد الصوت مراراً . . . ثم سأل الجارية عن صاحب الغناء فأسَرَّت فى أذنه أنه لأخته عُلية بنتِ المهدى . . . !

* * *

وللمأمون مجالس كثيرة حافلة بالأعاجيب . وأَندرها مبالغة فى الشراب والغناء ما كان يصنعها بين خواصّه . . .

حكى إسحاق الموصلى أن المأمون دعاه يوماً وعنده إبراهيم بن المهدى وفى مجلسه عشرون جارية ، عشر منهن عن يمينه ، وعشر عن يساره ، وهن يغنين والمأمون يتمايل طرباً . ثم تنبه إسحاق إلى خطأ فى بعض الألحان فأنكره عليه إبراهيم وتدخل بينهما المأمون ، وما زالوا كذلك فى جدل ونقاش حتى انتصر إسحاق .

وكان لإسحاق الحظوة الرفيعة لدى المأمون . . سأله يومًا أن يدخل عليه مع أهل العلم والأدب لا مع المغنين فأذن له ، ثم سأله أن يدخل مع الفقهاء فأذن له . فكان يدخل عليه ويده فى يد يحيى بن أكثم قاضى القضاة . ثم سأله أن يلبس السواد يوم الجمعة ويصلىَ معه فى المقصورة فضحك المأمون وقال : ولا كل هذا يا إسحاق . . . ! وقد اشتريتُ منك هذه المسألة بمائة ألف درهم ، وأمر له بها .

* * *

وللأمين والهادى والمتوكل والواثق والمعتصم أمثال هذه المجالس عُرِفت بانتهاب اللذائذ والإسراف فى العطاء وإشباع الميول النفسية والجسدية معًا . وعلى ما كان فى هذه المجالس من لهو ومتع ، فإن الغناء فيها كان مادة خصبة للمطارحات الأدبية والأحاديث التاريخية ، فوق ما كان فيها من النقد الأدبى للشعر وفن الغناء والمنافسة بين المغنين فى إجادة التلحين ، واختيار الأشعار وصنعها فى المناسبات التى كانت تخلقها هذه المجالس .

ولقد كان إبراهيم الموصلى وإسحاق ابنُه حاملى لواء الغناء فى العصر العباسى ، وعليهما تخرجت معظم الجوارى المغنيات ، ويعتبر هذان القطبان مؤسسين للمدرسة الحديثة فى الغناء العربى التى أخذت من غناء المتقدمين أمثال « ابن سريج ومالك ومعبد وطُويس » أحسنَه ، ومزجته بحضارة العباسيين الفاتنة .

## الغناء والأديرة

كان لأديرة الشام وفلسطين والعراق والحيرة أثر كبير فى انتشار الشراب والغناء ، ولقد كان العرب الجاهليّون يقصدون بعض هذه الأديرة ويقضون فيها أوقاتهم فى الشراب والغناء ، وفى ذلك يقول بعض الشعراء فى راهبى « دير نجران [1]» :

أيا راهبى نجران ما فعلت هند أقامت على عهدى ؟ وأنّى لها عهد ؟
إذا بعُد المشتاق رثّت حبالُه وما كل مشتاق يُغيِّره البعد

وللأعشى شعر كثير فى وصف هذه الأديرة وتصوير مجالس الشراب والغناء بها ، ومنه :

وكعبةُ نجرانَ حتمٌ عليـ ـك حتى تُناخِى بأبوابها
تزور يزيدَ وعبدَ المسيح وقيساً وهم خيرُ أربابها
وشاهدُنا الجُلُّ والياسمـ ـينُ والمُسْمِعاتُ بقصّابها

وقد تغنى بهذا الشعر « بنان وجَحْظة » من مغنى العرب . ولقد كانت الأديرة مرتعاً خصباً لتفتق أذهان الشعراء بشعر الوصف الغنائى ، فللبحترى — وهو شاعر عفيف — شعر كثير فى الخمريات وتصوير المجالس فيها ، ولابن المعتز فى دير العذارى[2] شعر كثير ، منه :

وحسبُك يا ديرَ العذارى قليل ما يُجَنّ بما تحويه من طيبة قلبى
كذَبْتُ الهوى إن لم أقف أشتكى الهوى إليك وإن طال الوقوفُ على صحبى
وهل هى إلا حاجة قُضِيَتْ لنا ويوم تحمّلناه فى طاعة الحبّ

---

(١) دير باليمن ، وتسمية العرب كعبة نجران ياقوت ج ٢ .

(٢) بين سر من رأى وبغداد .

ولابن فيروز فى وصف مجلس شراب :

وروضة لهو قد جنيتُ ثمارهـا بدير العذارى بين روض وأنهار
تخالُ بها وجه المدير وكأسَه هلالاً وكأساً بين أنجم نوّار
يطوف بإبريق مُفَدّى كرامة علينا بأسماع كِرام وأبصار

وما يجتمع الشراب والشعر إلا كان الغناء .

وحتى الشعراء الزاهدون يغنون ويرقصون . . . ! فهذا أبو العتاهية يحدثنا عنه محمد[1] بن المؤمل قال :

كنت مع أبى العتاهية فى سُمَيْرِيته[2] ونحن سائرون إلى دير « أشمونى[3] » فسمع غناء من بعض النواحى فاستحسنه وطرب له وقال لى : أتُحسن أن ترقص ؟ قلت : نعم ! قال : فقم بنا نرقص : فقلت : فى سميرية ؟ أخاف أن نغرق ! قال : إن غرقنا ، أليس نكون شهداءَ طرب ؟ ؟

ولم يكن الشراب والغناء قصراً على الشعراء والعابثين فى هذه الأديرة ، بل كان للخلفاء ليال وأيامٌ عجاب ! حدث إسحاق الموصلى قال :

خرجنا مع الرشيد إلى « دير القائم[4] » فشربنا فيه ثلاثة أيام ، ودخلت الدير ، فرأيت فيه كاعباً نَهدِ ثدياها ، فدعوت بنبيذ وشربت على وجهها أقداحاً وقلت :

بِدَيْر القائم الأقصَى غزال شادن أحوى
برى حبى له جسمى ولا يدرى بما ألقى
وأكتم حبّه جَهدِى ولا والله ما يخفى

---

(١) مسالك جـ ١ ص ٢٧٨ (٢) عوامة .
(٣) ياقوت جـ ٢ (٤) مسالك جـ ١

ثم دعوت بالعود فغنيت وأنا أنظر إليها وهى تضحك . ثم قمت فدخلت على الخليفة وأنا ميت من السكر ! ! فأخبرته الخبر . فقال : إذا جاء الليل فقم بنا إليها ! فقمت معه وقد تَلَثَّم ، فلما رآها قال : مليحة والله ! ثم دعا بالشراب فشربنا وغنيته الصوت ثلاث مرات ، ثم خرج وأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقلت : يا سيدي . . ! وصاحبة القصة ؟ فأمر لها بخمسة آلاف درهم وأمر بألاّ يؤخذ من مزارع ذلك الدير خراج ! !

إلى ذلك الحد كان الشغف بالغناء والإسراف فى العطاء . . . !

* * *

وهذه القصص وأمثالها لا نبرّئها من المغالاة ، وهى على فرض بساطتها وأنّ للمبالغة فيها أثراً كبيراً فهى – لا شك – دليل على اللهو وعيشة الترف والرخاء فى هذا العصر ، ولم تكن الأديرة وحدها أعشاشًا لهذه المجالس ، بل كان للحانات والمواخير السبق فى إقامتها وصبغها بالإبداع والتفنن ، وللشعراء والمجان مجالس غريبة فيها ، ليس هنا موضعها ، وما هذا بغريب لطوائف خاصّة من الناس فى كل العصور ، بل الغريب أن يكون فيها للخلفاء أيضًا مجالسُ مكشوفة ، وطرب ليس فيه شيء من التحرز ! ! حدث حمد بن حمدون قال[1] :

كان الواثق يحب المواخير ، وما قيل فيها وما غُنِّيَ به فى ذكرها ، فعقد حانتين إحداهما فى دار الحزم ، والأخرى على الشط ، وجعل الخدم فى حانة الشط من الجوارى الروميات والغلمان ، ونقل إليهما طرائف الشراب ، وفرشهما من فرش الخلافة ، وأمر بإحضار المغنين والندماء ولم يدعْ أحداً يصلح من ضُرّاب الطنابير إلا أحضره ، وزينت الساقيات والغلمان ، وكان يذوق الكئوس قبل عرضها على الجلساء ، وكان يقوم بنفسه ويضع أكاليل الآس والرياحين

(١) الرواية بتمامها فى المسالك جـ ١ ص ٢٩٤

على رءوس الحضور . وشرب الواثق فى هذا اليوم شراباً كثيراً بين الضرب والغناء وأمر للخَمَّار بألف دينار ولزوجته بألف ، ولكل واحدة من بناته بخمسمائة دينار ، ولم يبرح أحد منا إلا بجائزة سنية ، فلما كان الغد قال : أنشدنى يا حسين شيئاً فى هذا اليوم ، فأنشدته :

| | |
|---|---|
| يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا | عودى بيوم سرور كالذى كانا |
| لا تُفقدينا دعابات الإمام ولا | طيب البطالة إسراراً وإعلانا |
| ولا تَخَالُعَنا فى غير فاحشة | إذا تُطرِّبنا الطنبور أحيانا |
| وسلسل الرطل عَمروٌ[1] ثم عَمَّ بنا السـ | ـقْيَا فألحق أخرانا بأولانا |
| سَقيًا لعيشك من عيش خُصصت به | دون الدساكر من لذات دنيانا |

من هذه النماذج نستطيع أن نعرف موطناً من أعظم مواطن الغناء العربى ، هو « الأديرة والحانات » وفى هذا ما يشعرنا بأن الغناء عند العرب وبخاصة عند العباسيين لم يكن فنًّا نفسيًّا مقصوداً لذاته كالشعر مثلاً ، وإنما هو تنفيس وإشباع لميول ورغبات جسدية بعثتها فيهم الطمأنينةُ والرخاء والترف واتساع الدولة وإشراق نور الحضارة فى نواحيها !

والإسراف فى اللهو والانحدار فيه كان نتيجة حتميَّة لقوم أسسوا ملكهم بالسيوف والرماح فى مدى قرنين من الزمان ، فمنذ صدر الإسلام والعرب يعانون الفتوحات وإخماد الثورات وبخاصة فى الدولة الأموية ، ولقد تسلم العباسيون هذا الملك الشامخ من يد « السفاح والمنصور » ، فتملكوه هادئاً ناضجاً يموج بألوان الترف والرخاء ، فلا عجب إذا كانوا قد انغمسوا فى اللذائذ ونهلوا من مناهل اللهو والنعيم !

---

(١) غلام الخمار .

# مَن المغنى؟

الغناء عند العرب صنعة خاصة بطوائف من الناس معظمهم من الموالى رجالاً ونساء ، وسماع الغناء على أنه ضربٌ من اللهو والعبث أمرٌ قد يتحاشاه طوائف من الناس فى كل عصر من العصور . لذلك كان علينا أن نوضح ناحيتين فى هذا الموضوع هما : مكانة الغناء عند العرب ، ومن المغنى ؟

مكانة الغناء عند العرب :

يخطئُ من يظن أن الغناء عامة وعند العرب خاصة ضرب من اللهو والتسلية فحسب ، أو أنه أمر كمالى تستطيع الحياة أن تستغنى عنه ، فالقارئُ للغناء العربى يدرك أنه جزء من حياتهم المعنوية والمادية معا ، وأنه عندهم فن له أصول وفلسفات لا تنقص عن فلسفات الشعر وأصوله ، وللمغنين منهم أبحاث فى أصول هذا الفن وقواعده يستطيع الباحث فى فن الموسيقى العربية أن يقف منها على خصائصَ ممتازة للغناء العربى وحده .

وكما أن الغناء صورة واضحة لحياتهم الاجتماعية والسياسية والعقلية ، فإنّ مكانته عندهم تعادل مكانة الشعر وإن لم تبلغ مبلغه ، على أنه مهما كانت مكانته ومهما بلغت حاجتهم إليه فهو غناء ، وكلمة « غناء » و« مغنى » لها مدلول خاص فى نفوس الناس عامة ، ناهيك بقوم عرب فى نفوسهم نعرة الفخر بالجنس ، وفى قلوبهم شدة الاعتزاز بالدين . على أن انتشار الغناء فى كل مكان وكثرة المغنين من الرجال والنساء والتفنن فى مجالس الأنس والطرب خفّفَ كثيراً من التحرز فى نفوس المنزوين عن هذه الحياة ، وأطلقهم من قيود التحفظ والوقار ، لذلك سمع الغناء كثير من الصحابة ، والتابعين والأئمة والعباد والزهاد والعلماء .

فمن سمع الغناءَ « عمرُ » رضى الله عنه ، روى يحيى بن عبد الرحمن أن « رواح بن المعترف[1] » غَنّى الناس فى الحج الأكبر وكان فيهم عمر فاستحسن غناءه ، كما روى أن « عمر » مر برجل يتغنى فقال : « إن الغناء زاد المسافر » .

والنعمان[2] بن بشير الأنصارى اشتاق الغناء فتوجه إلى دار « عزة الميلاء » فطلب إليها أن تغنى فغنت من شعر لقيس بن الخَطيم :

أجَدّ بعَمرةَ غنيانُها فتهجرَ أم شأنُنا شأنُها ؟
« وعَمرةُ » من سَرَواتِ النسا ءِ تَنْفَحُ بالمسك أردانُها

وعَمرةُ هذه هى أخت النعمان طالب الغناء ، ولما رأى السامعون ذلك أشاروا إليها فأمسكت ، ولكن النعمان استعاد الغناء وهو يعرف أنه تشبيب بأخته !

وروى عن الإمام الغزالى أنه قال : « سمع الغناء من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبدُ الله بن الزبير والمغيرةُ بن شعبة ومعاويةُ وغيرُهم ! ! »

والأعجب من هذا أن يسمع الغناء من الأئمة الإمامُ الشافعى وأحمدُ بن حنبل . . .! وذاك مجلس يضم شيوخ الوعاظ والمتكلمين وشيخ المالكية والحنابلة ليستمعوا فيه ، إلى من يغنيهم هذه الأبيات :

خطّت أناملها فى بطن قرطاس رسالة بعبير لا بأنقاس[3]
أنْ زُرْ فديتك لى من غير مُحتشم فإن حبك لى قد شاع فى الناس
فكان قولى لمن أدى رســالتها قِفْ لى لأمشى على العينين والراس

قيل : « وكان بعض السامعين من الزهاد يقتات بالسماع ليقوى به على زيادة طيِّه ، كان يطوى اليوم واليومين والثلاثة ، وإذا تاقت نفسه إلى القوت عدل بها إلى السماع فاستغنى بذلك عن الطعام » . وكان بالمدينة ناساك من أهل

---

(١) مغن عربى . (٢) صحابى كبير . (٣) جمع نفس وهو المداد .

العلم والعفة يرتاد مجالس عبد الله بن جعفر فسمع جارية تغنى :

بانت سعاد وأمسى حبلُها انقطعا واحتلّتِ الغورَ فالجدّين فالفرَعا[1]

وأنكرتْنى وما كان الذى نكِرَت من الحوادث إلا الشيبَ والصلعا

فهام الناسك بها وبغنائها فلامه بعض الجالسين فقال :

يلومنى فيك أقوام أجالِسُهم فما أبالى أطار اللوم أم وقعا ؟

هذا طرف وجيز جداً لمكانة الغناء عند العرب وأثره فى نفوسهم ، ومدى تقديرهم له ، فإذا كان ذلك شأن الغناء مع الصحابة والوعاظ والعلماء فما بالك به مع جمهور الناس وقتذاك !

* * *

والناحية الثانية هى :

مَن المُغَنى ؟

المغنون — كما قلت — عامة من الموالى رجالاً ونساء ، وهم الذين عرفوا هذه الصنعة وحذقوها وجعلوها حرفتهم ! ، وهناك غيرهم من المغنين غير المحترفين ، الذين يهوَوْن الغناء كفنٍّ جميل ويحبونه باستعدادهم الفطرى وميولهم الفنية .

ومن الصنف الثانى ما رواه صاحب الأغانى من أن بعض الخلفاء وبعض أبنائهم عرفوا بالغناء ولهم فيه صنعة اشتهروا بها ، ومن هؤلاء « عمر بن عبد العزيز » قيل إنه كان من أحسن الناس صوتاً وقد نُسِب إليه غناءُ هذه الأبيات :

عَلِقَ القلب سعادا عادت القلبَ فعادا

كلما عوتب فيها أو نُهِى عنها تمادى

وهو مشغوف بسُعدى وعصى فيها ورادا

(١) أسماء أماكن .

وقيل إن له غناء فى شعر جرير :

قفا يا صاحبيّ نَزر سعادا … لِوَشْك فراقها ودعَا البعادا

وقيل إنه غنّى من شعر « شُهَيب بن رُميلة » :

قفا نعرف منازل من سُليمى … دوارسَ بين حوملَ أوْ عرادا

ذكرت لها الشبابَ وآل ليلى … فلم يزد الشبابُ بها مزادا

فإن تشِب الذوائب أمَّ عمرو … فقد لاقيت أيامًا شدادا

وينكر بعض الناس أنه غنى بذلك الشعر وهو خليفة . . ولكنَّه غناه قبل أن يتولى الخلافة !

والمعروف أن عمر بن عبد العزيز كان لا يميل إلى الشعر ولا يرحب بدخول الشعراء عليه ، كما كان بخيلاً عليهم . . . ولن يمنعه هذا من أن يكون فى طبيعته استعداد للغناء وميل إليه . . . فحب الشعر والشعراء شيء ، والرغبة فى التغنى والترنم شيء آخر !

والخليفة « الواثق » كان له غناء عُرِف به ، وصنعة اختص بها ونقلها عنه المغنون وكان يعرض صنعته على «إسحاق الموصلى » ويدَّعى أنها لغيره .

ذكرت «عَريب» المغنية أن للواثق مائةَ صوت[1] كلها جيدة ، ولقد صنع فىَّ هذا الشعرَ وغنَّاه :

هل تعلمين وراءَ الحب منزلة … تُدنى إليك ، فإن الحب أقصانى ؟

هذا كتاب فتًى طالت بليته … يقول يا مُشتكَى بَثِّى وأحزانى

وقال إسحاق : كان الواثق أعلمَ الناس بالغناء ، وكان أحذق من غنى بضرب العود ، وبلغت صنعته مائة صوت ، وقد ذكر الأغانى له هذا الغناء :

---

(١) لحن .

ولم أر ليلَى غيرَ موقفِ ليـلة بخَيْفِ مِنى ترمى جمار المُحصَّب
ويبدى الحصى منها إذا حذفت به من البُرد أطرافَ البنان المخضَّب
ألا إنّما غادرتِ يا أمّ مالك صدًى أينما تذْهبْ به الريح يذهب
وأصبحتُ من ليلى الغداةَ كناظر مع الصبح فى أعجاز نجم مغرِّب

* * *

كذلك اشتهر بالغناء من الخلفاء « المتوكل » ولكنه ستَر كل أغانيه بعد أن تولى الخلافة . ومنهم « ابن المعتز » وقد كان شاعراً وصافاً مبدعاً ، وله فى صنعة الغناء والموسيقى كتب[1] مشهورة ، ومن غنائه بشعره :

وابلائى من مَحضَر ومَغيب وحبيب منّى بعيد قريب
لم ترد ماءَ وجهـه العينُ إلا شَرِقت قبـلَ رِيّها برقيب

ومن غنائه المليح قوله :

زاحم كمِّى كمَّه فالتويا وافق قلبى قلبـه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكْتَويا يا قرّة العين ويا هَمِّى ويا

وحُكى عن جعفر بن قُدَامة قال :

كان لعبد الله بن المعتز غلام يحبه ، فغضب الغلام عليه فجهد أن يترضّاه فلم يكن له فيه حيلة ، ودخلت عليه فأنشدنى :

بِأبِى أنت قد تمـا ديتَ فى الهجر والغضبْ
واصطبارى على صـدّ ودّكِ يوماً من العجب
ليس لى إن فقدتُ وجـ هك فى العيش من أرَب
رحم الله من أعا ن على الصلح واحتسب

قال : فمضيت إلى الغلام فلم أزل به حتى رضى وجئتُه به ، فمرّ لنا يومئذ أطيب يوم وأحسنه[2] .

(١) الأغانى (٢) نهاية ج ٤ ص ٢٤٥ .

- ولأبناء الخلفاء غناء وصنعة وفنّ ، وقد اشتهر منهم « إبراهيم بن المهدى» وهو أخو الرشيد . . . ولقد كان مغنياً من الطبقة الأولى ، وكان يتستر فى أول أمره حين كان يطمع فى الخلافة ، ولما فشلت أمانيه فيها جاهر بالغناء وتهتّك فيه ، وهو أول من جدّد فى الغناء ورغب عن الغناء القديم .

حكى إبراهيم عن نفسه قال : دخلت يوماً على الرشيد وفى رأسى فَضْلة[1] خُمار ، وبين يديه ابن جامع وإبراهيم الموصلى[2] ، فأخذت العود ولم ألتفت إليهما فغنيت :

أسرى لخالدةَ الخيالُ ولا أرى ... شيئاً ألذ من الخيال الطارق ؟
أهواك فوق هوى النفوس ولم يزل ... مُذْ بِنْتِ قلبى كالجناح الخافق
شوقاً إليك ، ولم تجاز مودتى ... ليس المكذب كالحبيب الصادق

قال : وغنيت الرشيد صوتاً فى شعر الدرّامى :

كأن صورتها فى الوصف إن وصفت ... دينار عين من المضروبة العُتق

فأمر لى بألف ألف درهم !

وغنّى إبراهيم من شعر أبى العتاهية :

أحمدُ قال لى ولم يدر ما بى ... أتحبُّ الغـداةَ عُتبةَ حقّاً
فتنفّسْت ثم قلت : نعم حبّاً ... جرى فى العروق عِرقاً فعرقا

وكان إبراهيم من جلساء الخليفة «محمد الأمين» غناه ليلة فى شعر أبى نواس :

يا كثير النوح فى الدِّمـن ... لا عليها ، بل على السَّكن
ظَنّ بى من قد كلفتُ به ... فهـو يجفونى على الظِّنَن
رشـأ ، لولا ملاحتُـه ... خلَتِ الدنيـا من الفتن

---

(١) بقية من السكر (٢) مغنيان .

وله غناء فى شعر مروان بن أبى حفصة :

هل تطمسون من السماء نجومها     بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعــون مقــالة من ربكم     جبريل بلغها النبىّ فقــالها
طرقتْك زائرةً فحىّ خيــالها     زهراءُ تخلط بالجمال دلالها

* * *

ومن أبناء الخلفاء الذين غنّوا وكانت لهم صنعة جيدة فى الغناء « عُلية بنت المهدى » وهى أخت الرشيد ، وقد عرف عنها أنها كانت من أجمل النساء ، كما كانت تقرض الشعر وتغنيه ، وهى وإن كانت بنت الخليفة المهدى إلا أن أمها كانت من جوارى « المروانية المغنية » اشتراها المهدى سرا ، وكتم أمرها عن أبيه المنصور حتى مات ثم شهرها ، وكان أخوها « الرشيد » يعجب بها ويفضلها فى الغناء !! روى أن الرشيد اصطبح فى مجلس غناء حضرته أكثرُ من ألفى جارية ما بين ساقية ومغنية ، فغضبت أم جعفر وأرسلت تشكو إلى « عُلية » فخرجت علية مع جواريها وهى تغنى :

منفصــل عنى وما     قلبى عنــه منفصلْ
يا هاجرى اليوم لِمَن     نَوَيتَ بعدىَ أن تصل

فطرب الرشيد وفضّ مجلسه :

وكان لعلية أخ يدعى « يعقوب بن المهدى » يجيد الزّمر ، فَغَنَت وهو يَزمِرُ عليها :

تجنَّب فإن الحب داعيــة الحبّ     وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصَّر فإن حُدِّثت أن أخا هوى     نجا سالمًا فارْجُ النجاة من الحب
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا     فأين حلاوات الرسائل والكتب ؟

وطلب إليها الرشيد يوماً أن تغنى :

ومخنث شهد الزفاف وقبله غنّى الجوارى حاسراً ومنقبا
لبس الدلال وقام ينقُر دفّه نقراً أقرّ به العيونَ وأطربا
إن النساء رأينَه فعشقْنه فشكون شدة ما بهن فأكذبا

واللحن فى هذه الأبيات للرشيد نفسه !

وعرفت علية أنها كانت تهوَى خادماً من خدم الرشيد يقال له « طل » ومن شعرها فيه[1] :

قد كان ما كُلفتُه زمناً يا طلُّ من وجدى بكم يكفى
حتّى أتيتك زائراً عجلاً أمشى على حتَف إلى حتف

* * *

وكان من أبناء الخلفاء مغنون ، وحسبنا أن نورد أسماءهم دون أغانيهم ، فمنهم أبو عيسى بن الرشيد ، وعبدُ الله بن الهادى ، وعبد الله بن الأمين ، وأبو عيسى بن المتوكل . كما كان من المغنين كثير من الأشراف والعلماء والأعيان وأكابر القواد ، منهم « أبو دُلف العجلى » وكان على همته وشجاعته شاعراً مجيداً ، ومن شعره الذى تغنى به :

بنفسى يا جنان وأنت منى مكان الروح من جسد الزمان
ولو أنى أقول مكان نفسى خشيت عليك بادرة الزمان
لإقدامى إذا ما الخيل حامت وهاب كماتُها حرَّ الطعان

ومن القواد والحكام عبد الله بن طاهر بن الحسين وابنه عبيد الله ، وله أصوات كثيرة منها :

هلا سقيتْم بنى حزم أسيركم نفسى فداؤك من ذى غُلّة صادى

(١) أغانى ج ٩ – ٨٤ .

الطاعن الطعنةَ النجلاء يتبعها مضرج بعد ما جادت بإزباد

ولعبيد الله ابنه عِلْم بصناعة الشعر والغناء ، ومن غنائه فى شعر ابن هَرمة :

وإنك إذ أطمعتنى منك بالرضا وأيأسْتنى من بعد ذلك بالغضب
كمُمْكنة من ضرعها كفَّ حالب ودافقة من بعد ذلك ما حلب

وبعد : فهؤلاء خلفاء وأبناء خلفاء وعظماء الدولة وفقهاؤها وعلماؤها ، وكان منهم من عشق السماع ، ومنهم من عشق صنعة الغناء ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مكانة الغناء ، وعلى تقديرهم إياه ، رغم أنه لديهم صنعة لا تليق إلا بأهلها ؛ ولا تجوز إلا للمتكسبين بها .

# آلات الغناء

كما نطق العرب الأولون بالشعر عن سجيّة سليمة ، وطبيعة فطرية ، واستعداد أصيل ، كذلك نطقوا بألحانهم وأنغامهم على غير قاعدة علمية أو تنسيق معلوم له فنٌ وقواعد ، وقد كان سير الإبل أول منبع وجدانى أوحى إليهم ترنيم الشعر أو تلحينه ، فكان الحُداء أول غناء لهم ، بل أول آلة غنائية لم يستعملوها من الخشب أو النحاس أو الأوتار ، وإنما صنعوها من أصواتهم ومن مخارج الحروف فى حلوقهم ، ومن حرارة الشعر فى وجدانهم ، ثم اتصل بهم الفرس والروم فدخلت معهم آلات الغناء وصناعته .

قال ابن خلدون فى مقدمته :

ثم تغنى الحداة فى حداء إبلهم ، والفتيان فى فضاء خلواتهم ، فرجعوا الأصوات وترنموا ، وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غناء ، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة « تغبيرًا »[١]

ومن آلات الغناء ما يسمى « الشَّبَّابة » وهى قصبة جوفاء فى جوانبها ثقوب ينفخ فيها فتصوّت ، ويخرج الصوت من جوفها وبعض ثقوبها مسدودة والأخرى مفتوحة .

وتشبه هذه الآلة آلة أخرى تسمى « الزُّلامى »[٢] وهو المزمار المصنوع من قطعتين منفردتين على شكل قصبة جوفاء منحوتة الجانبين ومثقوبة الجوانب ، ويُنفخ فيها بقصبة أخرى نحيلة توصل الصوت إلى جوفها فيخرج حادًّا سريعًا .

ومن آلات الغناء « البوق » وهو من نحاس أجوف فى طول الذراع ،

---

(١) قال بعض علماء اللغة : تنغيم الأشعار التى فى ذكر الله تسمى « تغبيراً » لأنهم إذا تناشدوها بالألحان طربوا فرقصوا وأرهجوا : « أثاروا الرهج وهو الغبار » .

(٢) هو الزنامى بلغة المغاربة ؛ نسبة إلى زنام ، وهو زمار حاذق كان للرشيد .

يضيق من أوله ، ويتسع بالتدريج إلى أن يصير مخرجه فى اتساع الكف ، وينفخ فيه بقصبة صغيرة فيخرج منه الصوت ثخينًا دويًّا .

وثمت آلات أخرى تصنع من الأوتار : وكلها جوفاء ، منها ما هو على شكل قطعة من الكرة مثل « البَرْبط[١] والرَّباب» والأول ذو ثلاثة أوتار ، وهو فارسى معرب ، قال الأعشى فى مجلس غناء وشراب :

وشـاهدنا الجُلُّ والياسمين والمُسمعات بأقصابها
و « بَرْبَطُنَا » دائمٌ مُعْمَلٌ فأيُّ الثلاثة أزرى بها ؟

ومنها « القانون » وهى آلة مربعة الشكل ، توضع الأوتار على بسائطها مشدودة فى رأسها إلى دساتين[٢] جائلة ليتأتّى شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليها ، ثم تقرع الأوتار إما بعود ، وإما بوتر آخر مشدود بين طرفى قوس بعد أن يطلى بالشمع والكُنْدر[٣] .

ومن الآلات التى غنّى بها العرب العيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، ولا سيما بعد أن اتصل بهم المغنون من الفرس والروم وصاروا موالى لهم ، أمثال نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر ، وما زالت صناعة الغناء وآلاتها تتدرج وتنمو وتتكامل حتى بلغت نهاية نضجها فى أيام العباسيين ، فظهرت مدرسة الغناء الحديث على يد شيوخه المجددين أمثال إبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى وابنه إسحاق وابنه حماد .

وهؤلاء تفننوا فى الغناء وأبدعوا فى مجالسه ببغداد ، فأدخلوا فيه الرقص بالملابس المطرزة بآلاته ، وبالقضبان والأشعار ، كما اتخذت آلات أخرى تسمى « الكُرَّج » وهى تماثيل من الخيول الخشبية المسرجة ، تعلق بأطراف أقبية يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل فى مجالس الغناء ، والكُرَّج

---

(١) وفى اللسان البربط : العود .  (٢) فارسية ويسميها العرب « العتب » .
(٣) اللبان .

فارسيّ معرب ، وهو ما يُتخذ مثل المهر يُلْعب عليه ، قال جرير :

أمسى الفرزدق فى جلاجل كُرّج     بعد الأخَيْطل ضرةً لجرير

كما كان فى تلك المجالس كثير من اللعب المعدة للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو ، وكثرت هذه المتع ببغداد وأمصار العراق ، وانتشرت منها إلى غيرها .

وكان لإبراهيم الموصلى وابنه إسحاق غلام اسمه « زِرياب » أخذ عنهم الغناء فأجاده ، فصرفوه إلى بلاد المغرب غيرة منه ، فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس فأكرمه وقدره ، فانتشرت فى الأندلس أغانيه وفنونُها ، وعمَّتها حتى عصر الطوائف ، ثم انتقلت منها مع انتقال الزمان عنها إلى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب .

ويرى ابن خلدون أن صناعة الغناء آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع ، لأنها كمالية للفراغ واللهو والطرب ، وهى أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه بحوادث الأيام .

# نشأة الجوارى
# وأثرهن فى الحياة العباسية

يحدثنا صاحب الأغانى عن وجود الجوارى فى العصر الجاهلى ، ويذكر لنا منهن « الجرادتين » لابن جُدعان ، وقد ذكرت خبرهما فى الغناء الجاهلى ، فمن أين للجاهليين هؤلاء الجوارى ؟

كان للجاهليين حروب وإغارات كثيرة ، ولا شك أن القبائل القاهرة كانت تأسر من المقهورة رجالاً ونساء فيصبح الكل عبيداً ، والشعر الجاهلى فيه ما يشير إلى هذا المعنى ، فعمرو بن كلثوم يقول فى معلقته :

على آثارنا بيضٌ حسان   نحاذر أن تُقسَّم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهدا   إذا لاقوا كتائب معلمينا
لَيَستَلِبُنَّ أفراسا وبيضا   وأسرى فى الحروب مقرنينا[1]

وكان للعرب كثير من الإغارات على الفرس والروم يستلبون فيها ما يقع فى أيديهم من أموال ونساء وأطفال !

على أن بعض الوفود العربية التى كانت تزور فارس والروم كانت ترجع ببعض الجوارى على سبيل العطايا التى كان يمنحها إياهم أكاسرة الفرس وأباطرة الروم .

لذا وذاك كان تملّك الإماء والعبيد معروفاً عند الجاهليين ، ومن آثارهم التى وصلت إلينا هاتان الجرادتان .

ولما بدأت الفتوحات الإسلامية أباحت الشريعة استرقاق الأسرى من

---

(١) مقيدين .

الكفار ، ولما كانت الأمم المفتوحة مختلفة الأنواع والديانات كان الأسرى عدداً ضخماً من الرجال والنساء ، وكانوا جميعاً ملكاً للدولة توزعه على المحاربين كل بقدر قيمته ، فالخلفاء والأمراء والقواد والحكام كانوا يفوزون بأكبر نصيب نوعاً وعدداً ، والباقى يملكه الآخرون بطريق الشراء .

ومن هنا كانت الجوارى على أنواع متعددة فمنهن المكية والمدنية والحبشية والهندية والفارسية والرومية . . إلخ .

ونحن ننقل هنا وصفاً طريفاً لخصائص كل نوع عن « ضحى الإسلام » للأستاذ أحمد أمين[1] :

« وقد كان لكل نوع من أنواع الرقيق ميزات خاصة يعرف بها ، فالهنديات عرفن بالوداعة ولين الجانب ، ولكن سرعان ما يعرض لهن الذبول ، واشتهرت السنديات بالخصر النحيل والشعر الطويل ، ومولدات المدينة « يعنى الإماء اللاتى نشأن بالمدينة ورُبِّينَ فيها » بالدلال والميل إلى السرور والفكاهة والمجون وبحسن الاستعداد للنبوغ فى الغناء ، وعرفت مولدات مكة بدقة المعصم والمفصل والعيون الناعسة ، والحبشيات عرفن بالترهل والاستعداد لمرض الصدر ، والتركية بيضاء البشرة على حظ عظيم من جمال وحياء ، ولها عينان صغيرتان جذابتان ، والرومية بيضاء البشرة ناعمة الشعر زرقاء العينين ! » .

هذه المعارض الفاتنة من الجوارى كان العرب يملكونهن فى بيوتهم ، لا فرق بين خليفة أو أمير أو تاجر أو أى فرد يستطيع أن يشترى إحداهن بماله ، لذلك رأينا — لكثرة الجوارى — الأسواق التجارية تعج بهن وبالتجار الذين يُسمونْ النخاسين !

وكانت تجارة الرقيق ، ولا سيما الجوارى ، صناعة رائجة تدر كسباً باهظاً لأصحابها ، فاحترفها كثير من المغنين ، منهم إبراهيم الموصلى وابنه

---

(١) ضحى الإسلام — ٨٧ .

إسحاق ، وكان لابن « رامين » جوار معروفات سنتحدث عنهن فى موضعهن .
وقلما وجد شاعر أو مغن لم يكن له أكثر من جارية يخص منهن من يخصه
ويتاجر بالباقى . ولقد أسرف الخلفاء فى اقتناء الجوارى وبالغوا فى أثمانهن ،
فقد عرف أن المتوكل كان له أربعة آلاف جارية ، وأن المأمون كان يشترى
من يعجبه منهن بباهظ الأثمان ، ولقد كان يساوم فى أثمانهن أحيانًا ، روى
عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال :

اشترى الرشيد من أبى جاريةً بستة وثلاثين ألف درهم فأقامت عنده ليلة ،
ثم أرسل إلى الفضل بن الربيع وقال له : إنا اشترينا هذه الجارية من إبراهيم ،
ونحن نحسب أنها على صفة ! ! وليست كما ظننا ، وما قربتها ، وقد ثقل
على الثمن،وبينك وبينه ما بينكما، فاذهب إليه واسأله أن يحطنا من ثمنها
ستة آلاف درهم[١] .

وكان الموصلى وإبراهيم بن المهدى من أنشط تجار الجوارى وأعظم من
كسب منهن ربحًا طائلاً . وقد ذكر ابن « خَرْداذَ به »[٢] أن الموصلى
أسس شركة لتجارة الجوارى مع « يزيد حوراء » المغنى المعروف واقتسما الربح
بينهما ! ولما راجت تجارة الجوارى تفنن الناس فيها وابتدعوا الوسائل التى تزيد
فى ربحهم ، وكان منها تعليمهن الغناء ! ولقد كانت الجارية تشترى بالمائة
والمائتين ثم تباع بعد تعليمها الغناء ببضعة آلاف !

ذكر صاحب[٣] الأغانى أن « دحمان » المغنى وكان جمالاً اشترى
جارية من امرأة قرشية بمائتى دينار ، ثم باعها لأحد الخلفاء متنكرًا بعشرة
آلاف دينار !

إذن فقد كان المغنون هم تجار الجوارى ، وكانوا هم المعلمين إياهن الغناء ،

(١) القصة فى نهاية الأرب جـ ٤ ص ٣٤٩ .
(٢) أغانى جـ ٣ ص ٧٣ . (٣) ص ١٤٣ .

وبعض التجار يشترى جواريه فيدفع بهن إلى من يعلمهن، وقد كان إبراهيم الموصلى أول من علم الجوارى الغناء وبلغ بهن كل مبلغ ورفع من أقدارهن [١]

* * *

بهذا التعليم الذى اكتسبته الجوارى فى العصر العباسى ارتفع مستواهن المادى والعقلى ، وأصبحن طبقة ممتازة ينظر إليهن بإعجاب واحترام ! على أن تعليم الجوارى لم يكن مقصوراً على الغناء ، فقد تعلم كثير منهن الأدب والشعر ، حتى إن منهن من كانت تقرضه وتجيده « كعُريب ومحبوبة »، ومنهن من تفهمه وتنقده « كجميلة » ، ومنهن من كانت تطارح الشعراء « كعنان » جارية « الناطفى » و « فضل » الشاعرة ، لذلك أصبحن مغنيات مثقفات تتطلع إليهن النفوس وتتشوق إليهن القلوب ، ولقد نلن بتلك الثقافة حظاً من المكانة والجاه ، فبدأن يزحَمْن الحرائر ويشتركن معهن فى الإعجاب والتقدير وإيقاظ الشعور وتحريك وجدان الأدباء ولا سيما الشعراء ؛ ولقد عرف معظم شعراء العباسيين بعشق الجوارى ، فبشّار يحب « عَبْدة » وأبو العتاهية يحب « عُتْبة » جارية الخيزران ، وأبو نواس يحب « جِنان » وابن أبى عُيينة يحب « دنيا » وحماد ومطيع بن إياس يحبان « جوهر » والعباس بن الأحنف يحب « فوز » وغيرهم كثير كمسلم بن الوليد والحسن بن الضحاك ودِعْبل وأبى الشّيص .

ولم يكن الشعراء وحدهم هم المدلهين بحب الجوارى ، بل إن للخلفاء والأمراء والقواد لغراماً معروفاً بهن ، ولغيرهم كمَعن بن زائدة، وروح بن حاتم ، وابن المقفع ، ومحمد بن جميل نوادرُ مع جوارى ابن رامين ولا سيما « الزرقاء » .

وللشعراء الذين عرفوا بحب الجوارى أخبار طريفة وأشعار رقيقة نسوق منها خبراً واحداً لأبى العتاهية مع الخليفة المهدى فى عُتبة جاريته .

روى يزيدُ حوراء المغنى قال :

(١) نهاية جـ ٤ ص ٣٥٠ .

كلمنى أبو العتاهية فى أن أكلم الخليفة المهدى فى عتبة، فقلت : لا أتكلم ! ولكن قل شعراً أغنيه به ، فقال :

نفسى بشىء من الدنيا معلقة الله والقائمُ المهدى يكفيها
إنى لأيأسُ منها ثم يُطمِعنى فيها احتقارك للدنيا وما فيها

قال يزيد : فعملت فيه لحناً ثم غنيته المهدى فقال : ما هذا ؟ فأخبرته خبر أبى العتاهية ، فقال : ننظر فيما سأل ، ثم مضى شهر ، فعاد أبو العتاهية يسألنى فقلت : اصنع شعراً أغنيه به عله يتحرك إليك ، فقال :

ليت شعرى ما عندكم ليت شعرى فلقد أخَّر الجواب لأمر
ما جواب أولى بكل جميل من جواب يرد من بعد شهر

قال يزيد : فغنيته المهدى فقال : علىّ بعتبة ! فأحضِرت ، فقال لها : إن أبا العتاهية كلمنى فيك فما تقولين ؟ قالت : آخذ رأى مولاتى . . . ومضت أيام فعاد أبو العتاهية وألحف فقلت له : قد عرفت الطريق ! اصنع شعراً أغنيه به ، فقال :

وَجّهتُ نحو سماء جودك ناظرى أرعى مخايل برقها وأشيم
ولقد تنسمت الرياح لحاجتى فإذا بها من راحتيك نسيم
ولربما استيأستُ ثم أقول لا إن الذى وعد النجاح كريم

قال يزيد : فغنيت المهدى بهذا الشعر فأحضر عتبة وسألها : ما صنعت ؟ قالت : ذكرت ذلك لمولاتى فكرِهتْه وأبت أن تفعل ! فأعلمت أبا العتاهية بذلك ، فقال :

قطعتُ منك حبائل الآمال وأرَحْت من حلٍّ ومن ترحال
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلى وبنات وعدك يعتلِجْن ببالى

وقيل إن المهدى استرضى أبا العتاهية بخمسين ألف درهم فأخذها وانصرف [1] .

هذه لمحة سريعة من أخبار الشعراء وشعرهم فى الجوارى ، ومن هذا نعرف أن الجوارى كان لهن الفضل الأكبر فى نهضة الأدب عامة والشعر خاصة ، وأن المكانة التى وصل إليها الشعر فى العصر العباسى الأول لمدينة لهن ، ففيهن قال الشعراء ووصفوا وأبدعوا وتغزلوا ومجنوا . . . ولغنائهن تفننوا وتخيلوا وتسابقوا ، فأرونا ألواناً جديدة من التصوير والتفكير والتعبير ، وعرضوا علينا صوراً من انفعالات النفس ويقظة الوجدان لم يعرف بها الشعر العربى من ذى قبل .

كذلك كان للجوارى أثر عظيم فى نهضة الفنون عامة ولا سيما الغناء وما يتطلبه فى المجالس من أناقة فى الملبس ، وتزيين القدود ، مما أدى إلى تهذيب الأذواق وإرشاد النفوس إلى أسرار الجمال . . . وهكذا عاش العباسيون فى هذه الدنيا المائجة بالمتع واللذائذ فسارت بهم السفينة فى هذا الخضم فساروا معها . . . وإن لم تصل بهم إلى الشاطئ المرموق . . . !

---

(١) أغانى ٣ ص ٧٠ .

# جميلة
## شيخة الغناء الحجازى

جارية من جوارى بنى سليم ، وكان لها زوج من موالى الأنصار ، لذلك سميت « مولاة الأنصار » .

وتحدثنا جميلة نفسُها عن سبب نبوغها فى الغناء أن سائب[١] خاثر كان جاراً لمولاها ، وكان يغنى وهى تستمع إليه ، فما زالت ألحانه تتسرب إلى نفسها رويداً رويداً حتى حذقتها ، ثم غنت على هذه الألحان شعراً مما كانت تحفظه ، فهى لم تجلس إلى معلم ، ولم تُلَقَّن أصول الغناء على أحد كما فعل غيرها من المغنين ، ذلك لأنها كانت ذات استعداد فطرى للغناء ولها فيه أصول وفنون مميزة ، كما أنها صاحبة مذهب غنائى عرفت به . وقد أخذ الغناءَ عنها « معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة وخليدة وربيحة[٢] » كما تلقى عنها كل المغنين فى مكة والمدينة .

ولا عجب أن تنبغ جميلة فى الغناء وتصير أصلاً من أصوله دون الاعتماد على معلم فيه ، فهى جارية ليس أمامها من العوائق ما يحول بينها وبين تحقيق ميولها الفنية ، والغناء فى ذاته موهبة ، واختراع الألحان جزء من الإحساس والذوق ، وما يحتاج فى هذا الفن إلى تلقين هو الضرب على الآلات الموسيقية ، على أن هذا أيضاً قد يخترعه بعض المغنين من تلقاء أنفسهم فيخلقون ألحاناً خاصة بهم فتصير مذهباً لهم .

وأحست جميلة بالميل إلى الغناء وهى صغيرة ، ولكنها ما كانت تستطيع إشباع هذا الميل ما دامت فى بيت سيدها ، غير أنها كانت تجد متنفساً

---

(١) مغن نقل الغناء الفارسى إلى العربية .

(٢) مغنون ومغنيات .

لهذه الرغبة فى غنائها سرًّا بينها وبين نفسها ، وما زال هذا الميل ينمو وينضج حتى لم تستطع صبرًا على كتمانه . . . ولقد سمعتها سيداتها يومًا تغنى ، فما رأتهن حتى أمسكت ، فأقسمن عليها أن تستمر ، فغنت أمامهن فى شعر زهير :

وما ذكرتك إلا هجت لى طربًا إن المحب ببعض الأمر معذور
ليس المحب كمن إن شط غيَّره هجر الحبيب وفى الهجران تغيير

وتقول جميلة : هذا أول غناء ظهرتُ به ، حينئذ ظهر أمرى وشاع ذكرى فقصدنى الناس للسماع وجلست للتعليم !

* * *

وفى منزل جميلة كان تعليم الغناء ؛ لقد كان منزلها مدرسة يأوى إليها المستمعون والراغبون والراغبات فى الغناء ، وأكثر من كان يقصدها الجوارى ، فمنهن من نبغت واتخذت الغناء صنعة ، واشتهر أمرها وتهافت عليها الخلفاء ، كحبابة وسلاّمة القس ، ومنهن من تعلمت لرغبة سيدها كجارية ابن أبى ربيعة ، ومنهن من تعلمت للتجارة كعقيلة وربيحة من جوارى « ابن رامين » . وكان لجميلة جوار كثيرات يقمن بخدمتها ويوقعن بالآلات على غنائها وربما وقعن وغنَّين معها فى المجالس التى كانت تقيمها لمن كان يقصدها من الأشراف والشعراء والمغنين .

* * *

مكانة جميلة :

عرف عن جميلة أنها كانت تغنى فى منزلها بالمدينة ، فما كانت تنتقل إلا لخليفة أو أمير ، وقد كان استعدادها فى المنزل كاملاً للقاء كل من يقصدها وقد ذكر صاحب « الأغانى » أنها كانت قطب الدائرة والمركز الذى يلتقى

فيه أقطاب الغناء ومحبوه ، ولمنزلتها فى النفوس وتقدير العرب لغنائها ، كان يقصدها المغنون من مكة والمدينة فيتسابقون فى الغناء والمنادرات الأدبية ، ثم تكون بينهم الحكم الذى لا يرد حكمه ، ولا ينقض رأيه ، وقد ذكر أحد الرواة الثقات : « كانت جميلة ممن لا يشك فى فضيلتها فى الغناء ، ولم يدع أحد مقاربتها فى ذلك ، وكل مدنىّ ومكى يشهد لها بالفضل » .

وممن شهد لها من شيوخ المغنيين وفضلائهم « هشام بن المرية وجرير المدينى » ، وقد حدث الأخير قال :

وفد ابن سريج والغريض وسعيد بن مسجح وابن محرز [1] المدينة فنزلوا بدار جميلة ، وكان لديها معبد وابن عائشة [2] ، ثم خرجوا جميعاً إلى العقيق [3] متنزهين ، فتحدثوا وتذاكروا الغناء وفنونه ، ثم اتفقوا أن يصنع كل منهم لحناً يغنيه ، واشترط ابن سريج أن يكون اللحن من شعر حكمت فيه امرأة ، فلما كان الغد اجتمعوا بدار جميلة فابتدأ ابن سريج فغنى لامرئ القيس :

خليلىّ مرّا بى على أم جندب ... أقضّى لبانات الفؤاد المعذب

فإنكما إن تنظرانى ساعة ... من الدهر تنفعنى لدى أم جندب

ألم تريانى كلما جئت طارقاً ... وجدت بها طيباً وإن لم تطيّب

وغنّى معبد من نفس القصيدة :

فلله عينا من رأى من تفرق ... أشتّ وأنأى من فراق المحصّب [4]

علون بأنطاكية فوق عقمة [5] ... كجرمة [6] نخل أو كجنة يثرب

وغنى ابن مسجح من نفس القصيدة :

ألا ليت شعرى كيف جادت بوصلها ... وكيف تراعى وصلة المتغيب

---

(١) مغنون مكيون . (٢) مغنيان مدنيان . (٣) مكان بظاهر المدينة .
(٤) المكان الذى ترمى فيه الجمار بمكة . (٥) نوع من الوشى .
(٦) البسر يلقى على الأرض .

أقامت على ما بيننا من مودة أميمةُ أم صارت لِقول المخَيِّب ؟

وغنى ابن عائشة من قصيدة لِعَلْقمة الفَحْل :

وقد أغتدى والطير فى وكَناتها [١] وماء الندى يجرى على كل مِذنب
بمنجرد قيــد [٢] الأوابد لاحَه طرادُ الهوادى [٣] كلَّ شأوٍ مُغَرَّب [٤]

وغنى ابن محرز لامرئ القيس :

فللساق ألهوبٌ [٥] وللسوط دِرّة [٦] وللزَّجر منه وقع أهوَجَ [٧] مِنْعَب
فأدرك لم يُجهد ، ولم يَثْن شأوه يمرّ كخُذْروف [٨] الوليد المثقَّب

وغنى الغريض من قصيدة علقمة :

وقد وعدتك [٩] موعداً لو وَفَت به كموعود عُرْقوب أخاه بيثرب
وقالت متى يُبخل عليك ويُعتلل تَشَكَّ ، وإن يُكشف غرامُك تُدرب
فقلتُ لها فِيئى ، فما تستفِزُّنى ذواتُ العيون والبنان المخضَّب

وهذا شعر جاهلى غليظ على مسامعنا . شاق على نفوسنا ، ولكنه عند من غناه ومن سمعه رائع جميل ، لأنهم قوم يفهمون الشعر بنفوسهم لا بعقولهم ، نفوسهم التى كونتها الصحراء فامتزج بها حب النساء والفرس والناقة فوصفوا وأبدعوا . وما إن فرغ كل من غنائه حتى قالت جميلة : كلكم محسن ! ! وكلكم مجيد فى غنائه ! قال ابن عائشة : ليس هذا بمقنع دون التفضيل ! فقالت جميلة : « أما أنت يا أبا يحيى « ابن سريج » فتضحك الثكلى بحسن صوتك ومشاكلته للنفوس ، وبرقة غنائك وامتزاجه بالأرواح . وأما أنت يا أبا عباد « معبد » فنسيج وحدك بجودة تأليفك ، وحسن نظمك ، مع عذوبة غنائك ،

---

(١) أوكارها . (٢) يلحق الوحوش السريعة . (٣) مطاردة الوحوش .
(٤) الشأو الشوط . مغرب متباعد . (٥) زجر بالسوط . (٦) دفعه
(٧) أهوج : أحمق . منعب : مصاح عليه . (٨) لعبة الأطفال « النحلة » .
(٩) هكذا فى الأصل .

وأما أنت يا أبا عثمان «ابن مسجح» فلك أولية هذا الأمر وفضيلته، وأما أنت يا أبا جعفر «ابن عائشة» فمع الخلفاء تصلح ، وأما أنت يا أبا الخطاب «ابن محرز» فلو قدمت أحداً على نفسى لقدمتك ، وأما أنت يا مولى العبلات «الغريض» لو ابتدأت لقدمتك عليهم» .

* * *

هذا مجلس لشيوخ المغنين مكيين ومدنيين ، وكلهم غنى على طريقته ومذهبه ، وهذه جميلة شيختهم تحكم بينهم فى دقة وفهم وتمييز والكل ينزل على حكمها راضياً ، ثم هى تجاهر بمكانتها بينهم واثقة من نفسها فى نفوسهم ، فتقول لابن محرز : لو قدمت أحداً على نفسى لقدمتك ! ومن هنا كانت جميلة زعيمة النهضة الغنائية فى ذلك العهد[1]. وما أشبهها بالنابغة الذبيانى حين حكم بين الشعراء فى سوق عكاظ !

ثم سأل القوم جميلة أن تغنيهم ، فغنت بيتاً لامرئ القيس وبيتين بعده لعلقمة ، وهى :

خليلىَّ مرَّا بى على أم جُنْدَب ... أقضِّى لبانات الفؤاد المعذب
ذهبت من الهجران فى غير مذهب ... ولم يك حقًّا كل هذا التجنب
إذا ألحم الواشون للشَّر بيننا ... تبَلَّغ راسى الحب غيرَ المكذب

فما سمع القوم الغناء حتى أقروا لها بالفضل والإمارة .

ولم تك جميلة مغنية وزعيمة الغناء فحسب. وإنما كانت محدثة بارعة، لها إلمام بأخبار العرب ونوادر شعرائهم وعشاقهم ، كما كان لها موهبة فى فهم الشعر ونقده ، فهى تحدثنا عن سبب قول امرئ القيس لهذه القصيدة ، وتسوق إلينا صورة من عقلية المرأة العربية ونضوجها قالت :

نازع امرؤ القيس علْقمة الفحل الشعرَ ، فقال له : حكّمتُ امرأتك أم جُنْدَب[2] بينى وبينك . قال : قد رضيت : فقالت لهما : قولا

---

(١) صدر الدولة الأموية . (٢) امرأة امرئ القيس

شعراً على وزن واحد وقافية واحدة صِفَا فيه الخيل ! فقال امرؤ القيس قصيدته التى مطلعها :

خليلى مرا بى على أم جُنْدَب أقضِّ لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة قصيدته التى مطلعها :

ذهبتَ من الهِجران فى غير مذهب ولم يكُ حقًّا كل هذا التجنب

وأنشداها القصيدتين ، فغلّبت علقمة على زوجها ، فقال لها : بأىِّ شىء غلَّبْتِه علىَّ ؟ قالت لأنك قلت :

فَلِلسَّاق أُلْهوبٌ ، وللسَّوط دِرَّة وللزَّجر منه وقع أهوج مِنعب

فجَهَدْتَ فرسك بسوطك ، ومَرَيْته بساقك وزجرك ، وأتعبته بجهدك !

وقال علقمة :

فولَّى على آثارهن بحاصب[1] وغبيةِ شُؤبوب[2] من الشد ملهب

فأدركهنَّ ثانيًا من عِنانه يمر كمرِّ الرائح المتحلب

فلم يضرب فرسه ولم يتعبه بزجر .

وروى ابن عائشة هذه القصة بأسلوب آخر ، فقال : إن امرأ القيس غضب من هذا الحكم فطلق امرأته فتزوجها علقمة .

وتعتبر جميلة أحد الرواة الثقات فى أخبار « جميل وبثينة » ، وعنها أخذ الرواة كثيراً من أخبار المحبين من بنى عذرة .

* * *

وهذا مجلس آخر عند جميلة يجتمع فيه معبد وابن أبى السمح ، وقد راحت جميلة تغنيهما من شعر الأحوص :

إنمـــا الزلفاء همى فليلمنى من يلوم

---

(١) الحاصب : الريح الشديدة . (٢) غبية : دفعة شديدة من المطر ، شؤبوب كذلك .

فغنى معبد :

أحسن الناس جميعًا حين تمشى وتقوم

فغنت جميلة :

حبَّ الزلفاء عندى منطق منها رخيم

فغنى معبد :

أصِلُ الحبل لترضى وهى للحبل صَروم

فغنت جميلة :

حبها فى القلب داء مستكن لا يَرِيم

والزلفاء هذه جارية فتنت أهل المدينة ، ولما طلقها سيدها ثلاثًا ندم ، ثم أنشد :

لا بارك الله فى دار عدَدْت بها طلاق زلفاء من دار ومن بلد
فلا يقولنْ ثلاثًا قائل أبدًا إنى وجدت ثلاثًا أنكد العدد

فكان إذا عدّ شيئًا يقول : واحد ، اثنان ، أربعة ، ولا يقول ثلاثة أبدًا !

وكان « الأحوص » الشاعر يميل إلى جميلة ، وكانت هى تعزه وتكرمه ، وقد فطن «معبدُ» إلى هذه العلاقة بينهما فكان كثيرًا ما يغنى بشعره فيها ، ومنه :

شأتك المنازلُ بالأبرق دوارسَ كالعين فى المُهْرق
لآل جميلة قد أخلَقت ومهما يطُلْ عهده يَخلَق
فإن تقل الناس لى عاشق فأين الذى هو لم يعشق ؟

وحسب جميلة فخرًا أن عبد الله بن جعفر كان يقصد دارها لسماع الغناء ، وأن إبراهيم الموصلى قد سمع غناءها بعد موتها ، فأغرم بما سمع وعشق الغناء من أجلها فتعلمه وكان أنبغ المغنين .

ومما كانت تغنيه أمام المغنين فى دارها قول جميل :

ألا من لقلب لا يَمل فيذهل     أفقْ ، فالتعزّى عن بثينة أجمل
فما هكذا أحببتَ من كان قبلها     ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل
فإن التى أحببتَ قد حيل دونها     فكن حازماً ، والحازم المتحول

وكان كثيراً ما يفد إليها ابن سُريج من مكة ليأخذ الغناء عنها ، وقلما كانت تغنى إلا ودارها مكتظة بالمغنين والمستمعين .

غنت مرة أمام ابن سريج ومعبد ومالك شعراً لحاتم الطائى :

أتعرف آثار الديار توهُّما     كخطك فى رق كتاباً منمنما
أذاعت به الأرواح بعد أنيسها     شهوراً وأياماً وحولاً مُجرَّما
فأصبحن قد غيرّن ظاهر تُربه     وغيرت الأنواء ما كان معلما
وغيَّرها طولُ التقادم والبلى     فما أعرف الأطلال إلا توهما

وطلب ابن سريج أن يسمعها غناء له فى هذا الشعر فغنى :

ديارُ التى قامت تريك وقد عَفَتْ     وأقْوَتْ من الزوار كفاً ومعصما
تَهادى عليها حَلْيها ذات بهجة     وكشحاً كطى السابرية[1] أهضما
وعاذلتان هبَّتا بعد هجعة     تلومان متلافاً مفيداً مُلوَّما

فأعجبت جميلة بطريقته ، فعاد . معبدُ وطلب إليها أن يغنى من هذا الشعر فغنى :

فقلت وقد طال العتاب عليهما     وواعدتانى أن تبينا وتصرما
ألا لا تلومانى على ما تقدما     كفى بصروف الدهر للمرء محكما
تلومان لما غوَّر النجم ضَلَّةً     فتى لا يرى الإنفاق فى الحق مَغرما

فأثنت على معبد وأطرت غناءه . . . فقال مالك : أتأذن لى سيدتى أن

---

(١) ثياب دقيقة فارسية .

أغنى ؟ قالت هات ! فغنى من الشعر نفسه :

يضىء لها البيت القليــــل خصاصه ... إذا هى ليلاً حاولت أن تبسّما
إذا انحرفت فوق الحشية مرة ... ترنم وَسواس الحلى ترنما
ونحراً كما نُورُ اللجين يَزينه ... توقّدُ ياقوت ودر تَنظمــا
كجمر الغضى هبت له بعد هجعة ... من الليل أرواح الصبا فتنسما

هؤلاء جميعًا هم أساطين الغناء فى ذلك العهد ، وها هم أولاء يجلسون إلى جميلة كالتلاميذ ، كل يعرض بضاعته وفنه ، وكل يتوق إلى كلمة ثناء أو إعجاب منها ، وغير هذا وذاك كثير ، من عَرْض الغناء أمامها ، وتهافت المغنين على دارها ، وتلقى أصول الغناء عليها ، إذن فقد كانت دارها مدرسة لتعليم الغناء ونقده وتهذيبه ، كما كانت منتدى أدبيًّا لمناشدة الأشعار والأحاديث الأدبية والطرائف التاريخية .

والقارئ لتاريخ الأدب يحس فى هذا الغناء خصائص الشعر العربى الخالص الذى لم تخالطه حضارة غريبة ، فظل محتفظًا بوقاره وروحه ، فى النماذج الغنائية التى مضت تمجيد لشعر الكرم والوصف والغزل الوقور العفيف .

* * *

مواكب الحج :

كان لواء الغناء معقودًا لجميلة فى ذلك العهد ، وكان أهل مكة والمدينة من أشراف وشعراء ومغنين ومغنيات يعترفون لها بهذه الزعامة ويقرون لها بالفضل والأستاذية ، ومن مظاهر هذا التقدير ما ذكر أبو الفرج من أن جميلة خرجت للحج فخرج معها من المدينة إلى مكة جميع المغنين المدينيين رجالاً ونساء ، منهم هِيت وطُويس والدلال ومعبد وابنُ عائشة وعزّة الميلاء وحَبَابة وسلاّمة القَس وخُلَيدة ، كما خرج معها مشيعًا ابنُ أبى عتيق والأحوص وكُثَيّر عزّة ونُصَيب وجماعة آخرون من الأشراف ، ومعها غير هؤلاء أكثر من

خمسين جارية من جوارى المدينة ، كلهن فى ثياب مطرزة ، وهن يغنين فى الهوادج فوق الإبل ! فما وصل موكبها مكة حتى خرج أهلها للقائها والاحتفاء بها ، وكان ممن استقبلها من المغنين سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز ، ومن الأشراف عمر بن أبى ربيعة والحرث بن خالد المخزومى والعرجى ، وما أتمت حجها حتى طلب منها أهل مكة أن تغنيهم فقالت : لا أغنى وأنا أؤدى فريضة الحج ، ثم رجعت إلى المدينة وقد خرج لوداعها أهل مكة شعراؤها ومغنوها وفقهاؤها وقيانها ، حتى إن ابن أبى ربيعة تبعها مع جمع من الأشراف فدخل معها المدينة وأقام فيها أياماً .

من هذه الحفاوة البالغة نعرف منزلة جميلة فى نفوس العرب ، وفى امتناعها عن الغناء فى مكة معنى للوقار الأصيل فى نفسها ، وللعفة الكامنة فى ضميرها ، وتلك خصائص ميزت جميلة عن غيرها من الجوارى اللاتى عُرفن بالنزق والمجون .

* * *

أيام جميلة :

كانت مجالس الغناء عند جميلة مُتحفاً لألوان مختلفة من الألحان والشعر والأحاديث الأدبية ، وقلما خلا منزلها يوماً من الأشراف والشعراء والمغنين ، وفى أيامها التى أحيتها بعد عودتها من الحج نماذج مختلفة من المذاهب الغنائية لشيوخ المغنين .

وأول أيامها كانت تكريماً لضيوف مكة الذين حضروا معها إلى المدينة وفيهم ابن أبى ربيعة وكثير من الأشراف ، وغصت دارُها هذه الليلة بشيوخ الغناء وبكثير من المستمعين رجالاً ونساء ، وقد جلست جواريها حولها ممسكات بالأعواد حين ابتدأت تغنى بشعر ابن أبى ربيعة :

ما أنسَ لاأنس يوم الخَيْف موقفها ومَوقفى ، وكلانا ثَمَّ ذو شجن
وقولَها للثريا وهى باكية والدمع منها على الخدين ذو سَنَن

بالله قولى له فى غير مَعْتَبة ماذا أردت بطول المكث فى اليمن ؟
إن كنتَ حاولت دنيا أو نعِمت بها فما أصبت بترك الحج من ثمن

فما سمع القوم حتى أسكرهم الغناء ، ولقد بكى عمر حتى بللَ الدمع لحيته وثيابه !

ابن أبى ربيعة يبكى ! والمجلس غاص بالجوارى والنساء، فأين غزله ودعاباته؟ ولكنه الآن فى المدينة لا فى مكة ، وهو ضيف مقيم لا هائم بين الوديان والديار ! وهو غير هذا وذاك عند جميلة شيخة المغنين ورمز الوقار عندهم !

وتنظر جميلة إلى ابن سريج فترى شفتيه تتلمظان فتحس تحفُّزَه للغناء ، فتقول له : هات ، فيندفع يغنى بشعر لعمر :

أليست بالتى قالت لمولاة لها ظهرا ؟
أشيرى بالسلام له إذا هو نحونا نظرا
وقولى فى ملاطفة لزينب نَوِّلى عمرا
وهذا سحرك النَّسْ وان قد خبرنى الخبرا

ثم التفتت إلى سعيد بن مسجح وقالت : هات يا أبا عثمان ! فاندفع فغنى :

وقد قلت قبل البين لما خشيتُه لتُعقِبَ ودًّا أو لتعلم ما عندى
فلما شكوت الحب صدّت كأنما شكوت الذى ألقى إلى حجر صَلْد
تولت فأبدت غُلَّة دون نقعها كما أرصدت من بُخلها إذْ بدا وجدى

ثم أذِنت لمعبد فغنى من شعر معن بن أوس :

أحارب مَنْ حاربت من ذى عداوة وأحبس مالى إن غرمت فأعقل
وإنى أخوك الدائم العهد لم أحل إن انْدَاك[1] خصم أو نبا بك منزل
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينَك ، فانظر أىّ كفّ تبدّل

---

(١) غلبك .

ثم قالت هات يا ابن محرز فغنى :

وقفت بربع قد تحمل أهــله ... فأذريت دمعًا يسبق الطرف هاملُه
بسائلة الرَّوحاء أو بطن مثغر[1] ... لها الضاحكات الرابيات[2] سواحلُه
هو الموت لولا أن للموت مدة ... متى يلق يومًا فارغًا فهو فاعله

سمع القوم هذه الأبيات فلم تستحسن جميلة البيت الثالث لأن فيه ذكر الموت فى مجلس أنس كهذا ! ولكن ابن محرز أجاب بأنه يواسى « معبداً » وكانت قد تقدمت به السن !

ثم قالت للغريض : هات يا مولى العَبْلات ! فراح يغنى من شعر عمر بن شأس :

فواندمى بعــد الشباب واندمْ ... ندمت وبان اليوم منى بغير ذمّ
وإذ إخوتى حولى وإذ أنا شائخ ... وإذ لا أجيب العاذلات من الصمم
أرادت عِراراً[3] بالهوان ومن يرد ... عِرارًا لعمرى بالهوان فقد ظلم

قالت جميلة : أحسن عمرو بن شأس ، ولم تحسن أنت الغناء ! ! إذ أفسدته بتعريضك بالظلم [4] فوالله ما وضعناك إلا موضعك ، وقد أقرها الجالسون ، فاعتذر إليها ، وقبّل طرف ثوبها فقبلت رأسه وحذرته من العودة . . . !

ثم أقبلت على ابن عائشة وقالت : هات يا أبا جعفر ، فغنى من شعر حسان :

فلا زال قبر بين بثنى وجلّق[5] ... عليه من الوسمىّ جود ووابل
وما كان بينى لو لقيتك سالمًا ... وبين الغنى إلا ليال قلائل

---

(١) اسمان لمكانين (٢) الهضاب الرملية اللامعة . (٣) عرار : اسم ابنه .
(٤) فى البيت الثالث يتهم المغنى جميلة بالظلم لأنها أخرته فى الغناء .
(٥) اسمان لمكانين .

ثم أذنت لنافع وبذيح فغنيا بصوت واحد :

ألا يا من يلوم على التصابي أفق شيئًا لتسمع من جوابي
بكرتَ تلومنى فى الحب جهلاً وما فى الحب مثلى من معاب
أليس من السعادة غير شك هوى متواصلين على اقتراب ؟
كريم نال ودًّا فى عفاف وسترًا من منعَّمة كعاب

ثم أذنت للهُذَليِّين الثلاثة فغنَّوْا جميعًا بصوت واحد من شعر عنترة :

حُيِّيتَ من طَلَل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
كيف المزار وقد تربَّع أهلها بعُنَيْزتين وأهلُنا بالغيلم[1]
إن كنت أزمعت الفراق فإنما ذُمَّت ركابكم بليْل مظلم

ثم أقبلت على نافع بن طنبورة فقالت له : هات يا نقش النضار ، ويا حسن اللسان ، فاندفع يغنى :

بهواك صيرنى العذول نكالا وجد السبيل إلى المقال فقالا
ونهيت نومى عن جفونى فانتهى وأمرت ليلى أن يطول فطالا

ثم نظرت إلى مالك بن أبى السمح وقالت له : هات يا مالك لنختم بك يومنا ، وما أخرتك لنقص فى قدرك ، ولكن لكى يكون أول مجلسنا كآخره ، ووسطه كطرفه ، وإنك عندى ومعبداً لصاحبا طريقة واحدة لا ينكر فضلها أحد ، فاندفع يغنى :

عدوٌّ لمن عادت ، وسِلم لسلمها ومن قرَّبت سلمى أحِبّ وقُرِّبا
هبينى امرأ إما بريئًا ظلمته وإما مسيئًا تاب منه وأعتبا
أقول التماس العذر لما ظلمتنى وحملتنى ذنبًا وما كنت مذنبا
ليَهْنِكِ إشماتُ العدو بهجرنا وقطعك حبل الوصل حتى تقضَّبا

---

(١) اسمان لمكانين .

قالت جميلة : ليت صوتك يا مالك قد دام لنا ودمنا له .

وانفض المجلس وانصرف القوم إلا خاصتهم ، على أن يعودوا إلى الغناء فى اليوم الثانى .

وبعد : فهذا معرض ضخم لألوان من الشعر وضروب من الغناء ، وسوق غاصة بالمغنين ، كل يعرض بضاعته ، وبالمستمعين من كل الطبقات ، وهذه جميلة تقودهم قيادة فنية منظمة ، فهى تضع كلا فى موضعه دون اعتراض ، وتثنى على المحسن وترشد المقصر ، وهى وحدها زعيمة المجلس مغنين ومستمعين ، أمرها مطاع ، وإشارتها مجابة ، ورأيها مقدر ، وحكمها مرهوب !

ومن الأحكام الفنية لجميلة أنها قسمت المغنين طبقتين ، طبقة ابن سُريج وأصحابه ، ومنهم ابن مسجح ومعبد وابن محرز من المكيين ، والغُريض وابن عائشة ونافع وبذيح والهُذَليين وابن طُنبورة ومالك من المدينيين ، أما الطبقة الثانية فهى طبقة طُويس وأصحابه ، ومنهم الدلال وهِنب ، وبرد الفؤاد ، ونَوْمةُ الضحى وفند ، ورحمة ، وهبة الله .

* * *

اليوم الثانى :

ابن سريج وأصحابه هم الذين غنوا فى اليوم الأول ، أما اليوم الثانى فهو يوم طُويس وأصحابه .

ويجتمع القوم فى دار جميلة فى هذا اليوم ، فتشير إلى طويس أن يبدأ الغناء فيندفع يغنى :

قد طال ليلى وعاد لى طربى ... من حب خود كريمة الحسب

غــراء مثل الهلال آنســة ... أو مثل تمثال صورة الذهب

ثم قالت : هات يا دلال فراح يغنى :

قد كنت آمل فيكمُ أملاً    والمرء ليس بمدرك أمــله
حتى بدا لى منكم سـأم    فزجرت قلبى عن هوى شغله
ليس الفتى بمخلد أبداً    حيًّا وليس بفائت أجـله

ثم نظرت إلى « هبنب » وقد هرم وقالت : إنا نجلك اليوم لكبر سنك ودقة عظمك ، وأعفته من الغناء ، ثم قالت لبرْد الفؤاد ونومة الضحى : هاتيا لحنًا واحداً ، فغنيا :

إنى تذكرت فلا تَلْحَنى    لؤلؤة مكنونة تنطق
مسكنها طيبة لم يُقذها(١)    بؤس ولا وال بها يخرق
قد قلت والعيس سراع بنا    ترقل إرقالاً(٢) وما تُعْنق(٣)
يا صاحبى ، شوقى أرى قاتلى    ومُوردى منها جوى يُقلق

ثم قالت لفند ، ورحمة ، وهبة الله . هاتوا جميعًا لحنًا واحداً فإنكم متفقون فى الأصوات ، فغنوا :

أشاقك من نحو العقيق بروق    لوامع تخفى تارة وتشـوق
ومالى لا أهوى جوارى « بربر »(٤)    وروحى إلى أرواحهن تتوق
لهن جمـال فائق وملاحـة    ودل على دل النسـاء يفوق

ثم انبرت جميلة شيخة المجلس تغنى قول الأعشى :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا    واحتلت الغوْر فالجدّين فالفرَعا(٥)
واستنكرتنى وما كان الذى نكرت    من الحوادث إلا الشيب والصلعا
تقول بنتى وقد أصبحت مرتحلاً    يا رب جنب أبى الأوصاب والوجعا

---

(١) لم يعبها . (٢) الإرقال ضرب من السير سريع .
(٣) العنق بفتحتين اسم من أعتق ، وهو السير الفسيح السريع .
(٤) صاحب جوار ملاح . (٥) أسماء أماكن .

وكان شيء إلى شيء فغيَّره　　دهر مُلِحٌ على تفريق ما جمعا

فصاح القوم استحسانًا ثم انصرفوا إلا الخاصة منهم .

* * *

يوم الجوارى :

هذا هو اليوم الثالث ، وهو خاص بجميلة وجواريها ، فيه المغنون من مكة والمدينة ، وفيه المستمعون من الأشراف والشعراء ، ولكن واحدًا من هؤلاء المغنين لا يغنى ، وإنما عليه أن يسمع فحسب ، عليه أن ينعم بفنّ جميلة وغنائها هى وجواريها ، وعليه أن يتأمل فيما يعرض عليه من فنون الشعر وألوان الغناء وضروب الألحان ومختلف الأصوات ؛ وها هى ذى جميلة تضرب الستائر بين المستمعين وبين جواريها الخمسين ، وقد أمسكت كل منهن بعودها وجلست على كرسى صغير أعدّ لها .

وتضرب جميلة على عودها ، فتضرب الجوارى معها بخمسين عودًا فتتزلزل الدار وتهتز جوانبها ، ثم تغنى على هذا الضرب : من شعر كثيِّر :

فإن خفيت كانت لعينك قـرة　　وإن تبدُ يومًا لم يعمِّمك عارها

من الخفرات البيض لم تر غلظـة　　وفى الحسب الضخم الرفيع نجارها

فما روضة بالحَزْن طيبة الثرى　　يمُج الندى جَثْجَاثها [1] وعرارها

بأطيب من فيها إذا جئت طارقًا　　وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها

فما سمع القوم غناء جميلة حتى دمعت أعينهم ، وتنفسوا الصعداء وقالوا : بنفوسنا أنت يا جميلة !

ثم قالت للجوارى : اكففن ، فكففن ! وقالت : يا عزة [2]! غنى ! فغنَّت من شعر عمر :

تذكرت هندًا وأعصارَها　　ولم تقض نفسك أوطارها

---

(١) كلاهما نبت طيب الرائحة .　(٢) عزة الميلاء .

تذكرت النفس ما قد مضى وهاجت على العين عُوارها
لتمنح رامة منـــا الهوى وترعى لرامـــة أسرارها
إذا لم تزرها حذار العدا حسدنا على الزَّوْر زُوارها

وتعجب جميلة بالشعر والغناء فتقول : يا عز ! إنك لباقية على الدهر ، فهنيئاً لك حسن هذا الصوت مع جودة هذا الغناء !

وتشير إلى حَبابة وسَلاّمة القس وتقول : وأنتما ! هاتيا لحناً واحداً فغنتا :

كفى حزناً أنى أغيب وتشهد وما نلتقى والقلب حرانُ مقصد
ومن عجب أنى إذا الليل جنَّنى أقوم من الشوق الشديد وأقعد
أحِنّ إليكم مثل ما حَنّ تائق إلى الوِرد عطشان الفؤاد مُصرَّد
ولى كبد حرّى يعـــنبها الهوى ولى جسدٌ يَبلى ولا يتجدد

ثم أقبلت على خُلَيدة المكية فقالت : بنفسى أنت ! غنى ! فغنت :

ألا يا من يلوم على التصـــابى أفق شيئاً لتسمع من جوابى
بكرت تلومنى فى الحب جهلاً وما فى الحب مثلى من معاب
أليس من السعادة غير شك هوى متواصـــلين على اقتراب ؟
كريم نال ودًّا من عفـــاف وسترٍ من منعمة كعـــاب

ثم أمرت عُقيلة والشَّماسية فغنتا :

هجرتَ الحبيب اليوم فى غير ما اجترم وقطَّعت من ذى ودك الحبل فانصرم
أطعت الوشاة الكاشحين ومن يطع مقالة واش يقرع السن من ندمْ

ثم قالت لفَرعة وبُلبلة ولَذّة العيش : هاتين ! فغنين بصوت واحد :

لعمرى لئن كان الفؤاد من الهوى أخا سقم إنى إذن لسعيد
علىّ دماء البُدن إن كان حبهـــا على النأى فى طول الزمان يَريم

تُلِمّ ملمات فينسين بُعدَها ويُذكر منها العهد وهو قديم

فأقسم ما صافيت بعدك خلة ولا لك عندى فى الفؤاد قسيم

ثم قالت لسُعدة والزرقاء غنيا : فغنتا :

قد راسلونى يعزونى[1] فقلت لهم كيف العزاء وقد سارت بها الرّفق ؟

واستهدت الريم عينيه فجاد لها بمقلتيه ، ولم يُترك له عنق

ثم أمرت الجوارى فغنين جميعاً شعر الأعشى :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا . . . إلخ القطعة وقد غنتها جميلة فيما غنت .

وما انتهى اليوم حتى انصرف القوم من دار جميلة ، وكأنهم كانوا فى حلم من الأحلام !

* * *

جميلة والشعراء :

كان من أكثر الشعراء صلة بجميلة عمر بن أبى ربيعة والأحوَص والعَرْجى ومن الأشراف ابن أبى عتيق وعبد الله بن جعفر .

وهذا ابن أبى عتيق وابن أبى ربيعة والأحوص يفدون على جميلة ، فيقول عمر : قصدتك يا جميلة من مكة للسلام عليك ، وقد أحببت أن تفرغى لنا نفسك اليوم وتخلى مجلسك ! قالت جميلة : أفعل ! قال الأحوص : وأحبّ ألاّ تغنى إلا ما أسألك ! قالت : ليس المجلس لك ، والقوم شركاؤك فيه : قال عمر وابن أبى عتيق : لك ما تريدين ، فأمسكت بالعود وغنت :

---

(١) فى الأصل « يعزوننى » وبها يختل الوزن ! والنون فى يعزونى نون الرفع وحذفت نون الوقاية على خلاف المشهور .

تَظل من زور بيت جارتهــا واضعــة كفها على الكبد
يا من لقلب متيم ســَدِم عان رهين مكلَم كَمِد
أزجره وهو غــير مزدجــر عنهــا وطرفى مكحل السهد

قال عمر : والله لقد سمعت للبيت زلزلة ، وللجدران همهمة ! لله درك يا جميلة ! أنت أول الغناء وآخره !

وتمعن جميلة فى استثارة أضيافها فتغنى :

شطت سعاد وأمسى البين قد أفدا وأورثوك سقاماً يصدع الكبدا
لا أستطيع لها هجراً ولا صلة ولا تزال أحاديثى بها جُددا(٢)

فما سمع الأضياف حتى هاجوا وصفقوا بأيديهم وفحصوا الأرض بأرجلهم وحركوا رءوسهم وقالوا : نحن فداؤكِ من السوء ، ووقاؤك من المكروه !

وتدعو جميلة بالغداء ، فيتغذى الأضياف بأنواع الأطعمة الحارة والباردة ومن الفاكهة الرطبة واليابسة . . . ثم تدعو بأنواع الشراب فتحضر ، فيقول عمر : أنا لا أشرب ! ويقول ابن أبى عتيق : وأنا لا أشرب ! فيغتاظ الأحوص ويقول : ولكنى أشرب : وما جزاء جميلة أن يُمتنع من شرابها ؟

قال عمر : ليس كما ظننت ! قالت جميلة : من شاء أن يحملنى بنفسه ويخلط روحى بروحه شكرناه ، ومن أبى ذلك عذرناه !

قال ابن أبى عتيق : قبلت ! وقال عمر : لا أكون أخسَّكم ! وينتصر الأحوص وجميلة فيشرب القومُ جميعاً وتغنيهم جميلة من شعر عمر :

ولقد قالت لجارات لهــا كالمهــا يلعبن فى حجرتها
خُذْن عنى الظل لا يتبعنى ومضت تســعى إلى قُبَّتها

---

(١) قيل إن هذا من غناء عمر بن عبد العزيز .

لم تعانق رجلاً فيما مضى  طفلة غيداء فى حلتها
لم يطِش قط لها سهم ومن  ترْمِه لا ينج من رميتها

قيل : فصاح عمر : ويلاه ، ثلاثًا ، ثم شق جيب قميصه إلى أسفل فصار قِباء ! وعزّ على جميلة أن يبقى عمر هكذا فدعت له بثياب خلعتها عليه فقبلها ! ولكن الشريف لا يقبل خلعة من مغنية ! فأرسل إليها بعد عودته إلى مكة عشرة آلاف درهم وعشرة أثواب !

* * *

ولابن أبى ربيعة مع جميلة مجلس وحده . . . لقد كان يترقب مواسم الحج كعادته ليلقى بشباكه ، وقد أصاب سهمُه « سُبَيعة البكرية » التى أبصرها فجن بها ، فتبعها إلى العراق حيث أهلُها ووطنها ، ثم تقابلا وتواعدا على الزواج أبوتركها قافلاً إلى المدينة فنزل بدار جميلة وقال لها غنى :

من البكرات عراقيــة  تسمى سُبيعة أطرينها
من آل أبى بكرة الأكرميـ  ـن خصصت بودى فأصفيتها
فأقسم لو أن ما بى بها  وكنتُ الطبيب لداويتها
ومن حبها زرت أهل العراق  وأسخطتُ أهلى وأرضيتُها

فغنت جميلة الأبيات فطرب عمر حتى شق ثيابه ! قالت جميلة : ويلك يا عمر ! لا ينبغى من مثلك هذا ! فما قصتك ؟ فحكى لها[1] ! ثم إن عمر أرسل إلى جميلة إحدى جواريه فحذقت غناء هذه الأبيات منها ، ثم بعث بها إلى « سبيعة » ، فغنتها فكادت تطير فرحًا . . .

وحجت « سبيعة » فى العام القابل رغمًا عن أهلها لتقابل عمر ، فيقابلها ويصحبها إلى جميلة ، فيقيمان عندها أيامًا وهى تغنى هذه الأبيات . . .

---

(١) ج ٧ ص ١٣١ أغانى .

« وسبيعة » تستعيدها ليلاً ونهاراً حتى أوشكت من الصبابة على الهلاك ! وفى إحدى الأمسيات جلست جميلة تغنيها :

أبت المليحة أن تواصلني ... وأظن أنى زائر رمسى
لا خير فى الدنيا وزينتها ... ما لم توافق نفسها نفسى
لا صبر لى عنها إذا حمرت ... كالبدر أو قرن من الشمس
ورمت فؤادك عند نظرتها ... بملاحة الإيثار والأنس

فقالت « سبيعة » : لو أن هذا الشعر لعمر لقدمته على كل ما سمعت ! وانصرف عمر بصاحبته ليبحث عن صيد جديد !

* * *

وللعرجى الشاعر صلة بجميلة ، وطالما اجتمع عندها هو والأحوص ، وكثيراً ما كانت تتغنى بشعرهما . ولكنها مع طول الصحبة كرهت من العرجى مجونه وعبثه وغروره ، فآلت ألا تغنى بشعره أبداً ، ولا تدخله منزلها أبداً . . . ويظهر أنه كان بين الأحوص والعرجى منافسة فى إرضاء جميلة والتودد إليها ، الأمر الذى أحدث بينهما شقاقاً فقطع كل منهما صلته بالآخر . . . !

خرج العرجى يوماً من مكة بغلمانه وكلابه للصيد ، فارتكب فى طريقه ما أوجب عقابه ، وبلغ أمير مكة ما فعل فجدّ فى طلبه ، ولكنه فر إلى المدينة ، ولم يجد مأوى يأوى إليه إلا دار جميلة ! وها هو ذا يطرق بابها ليلاً فتأبى قبوله ، وتشير عليه بالنزول عند الأحوص وأرسلت معه شفيعاً ! ! وتوجه العرجى إلى الأحوص فلقيه وأكرمه ، ولكنه لم ينم ليلته ، وما أصبح الصباح حتى أرسل إلى جميلة هذه الأبيات :

ألا قاتل الله الهوى كيف أخلقا ... فلم تُلْفِه إلا مشوباً ممزقا
وما من حبيب يَسْتَزِيرُ حبيبَه ... يعاتبه فى الود إلا تفرقا

عرفت وصال الغانيات فأصبحت مضاضته يُشجى بها من تمطقا
إذا قلت مهلاً للفؤاد عن التى دعتك إليها العين أغضى وأطرقا
دعانا فلم نستبق حبـًّـا بما نرى فما منك هذا العذل إلا تخرقا
فقدس هذا الحب من كان قبلنا وقاد الصبا المرء الكريم فأعتقا

قرأت جميلة هذا الشعر فتأثرت به ، وأشار عليها بعض جلسائها بالتكفير عن اليمين وقبول العرجى فى دارها ، فأرسلت إليه فحضر مع الأحوص ثم راحت تغنى :

ألا قاتل الله الهوى كيف أخلقا . . . إلخ الأبيات المتقدمة

* * *

أما صلة الأحوص بجميلة فلا شك أنه كان يميل إليها ويعزها ، ولا شك أنها كانت تقدر هذا الميل وتكرمه من أجله ، وقد عُرف عن الأحوص بعض نواح من المجون والعبث . . . ! وإنه ليطرق باب جميلة ليلاً ومعه غلام مفتون بالغناء ، فيدخل دون إذن منها والناس يستمعون للغناء ، فما رأى القوم الغلام حتى اضطربوا واختل توازنهم وتهامسوا . . . !

فماذا تفعل جميلة ؟ لقد أشارت على الأحوص أنْ أخْرِج الغلام ! فتعامى وتغافل ! . . . ولكنها أصرت وأمرت بعض الحاضرين فأخرج الغلام . . . فغضب الأحوص وانطلق وراءه . . . !

هذه دالة من الأحوص على جميلة . . . ! ثم إنها لتحس بقسوة ما فعلت فتعتذر إلى الأحوص ، وتطيب خاطره وتشعره بخطئه إذ لم يستأذنها فى إحضار الغلام ، وإنها لتخصُّه بليلة يحضر فيها مع غلامه المفتون بالغناء ! وفى الدار مستمعون ، وجوار كاعبات ! فيفرح الأحوص ، ويحضر بالغلام ، ويقسم على جميلة بعد أن شرب لتغنينَّه من شعره فتغنى :

وبالقفر دار من جميلة هيَّجت سوالفَ حب فى فؤادك مُنْصِب

وكانت إذا تنأى نَوًى أو تفرقت شداد الهوى لم تدر ما متشعب
أسيلة مجرى الدمع خُمصانة الحشى برود الثنايا ذات حَلق مُشرعَب
ترى العين ما تهوى وفيها زيادة من الحسن إذ تبدو وملهى للعب

وهكذا قضى الأحوص ليلته وخرج ... كما خرج ابن أبى ربيعة من قبل !

* * *

دعابات جميلة :

وكان لجميلة خبرة تامة بتنظيم مجالس الغناء وتنميقها ، فهى ذات فن فى اختيار الأوضاع الجذابة وتزيين الجوارى وتهيئتهن على صور محببة إلى النفوس مغرية بالسماع .

حدثوا أنها كثيراً ما كانت تفتح أبواب دارها وتدعو الناس إلى حضور الغناء بينما جواريها يُلْحِحن على المارين بالدخول !

وهذا غريب من جميلة لا شك ... غريب أن تدعو الناس إلى دارها وهى التى تتمناها النفوس وتتودد إليها القلوب ... والتى لا يحضر مجالسها إلا صفوة القوم من الأشراف والشعراء والمغنين ! وقد لا يكون ذلك غريباً إذا عرفنا أن جميلة كانت ذات شخصيتين ، شخصية وقورة عفيفة اكتسبتها من إقامتها بالمدينة وحولها الفقهاء والعلماء والأشراف وأحفاد الخلفاء والصحابة والجو الدينى المتماسك ... وشخصية مرحة عابثة ، اكتسبتها من فن الغناء ومن تعليمها الجوارى ومعاشرتها لمجان الشعراء أمثال ابن أبى ربيعة والأحوص والعرجى وغيرهم من شيوخ المغنين .. !

هاتان الشخصيتان كانتا تتصارعان فى نفس جميلة ، وكان لا بد أن تتغلب إحداهما فى حين ، كما تتغلب الأخرى فى حين آخر .

وكان من جراء ذلك الصراع أن لازمتها الأحلام المزعجة ، التى تفهم منها ضرورة ترك الغناء والتوبة إلى الله بقية العمر ! وتقوم هذه الفكرة فى نفسها فتزعجها ولكنها تصمم على تنفيذها فى مشهد من الناس !

وفى غدوة يوم شديد القيظ تأمر بفتح أبواب دارها ، وتشير على آذنتها ألاّ تحجب أحداً من الدخول . . . فما تعالت الشمس حتى امتلأت الدار أرضها وسطحها فخافت جواريها سقوط الجدارن أو انهيار الأسقف . . . ولكنها لم تعبأ لهذا . . . بل قبلت كل من أراد الدخول ، ثم أمرت للناس بالسويق[1]، وأقسمت على كل رجل أو امرأة دخل منزلها إلاّ شرب ، فشرب الجميع !

ثم أمرت الجوارى فقمن بالمناديل والمراوح الكبيرة ، لكل عشرة من الجالسين جارية تروح لهم . . . وبينما القوم كذلك وإذا جميلة تقف بينهم فتشرئب إليها الأعناق ، وتتطاول لرؤيتها العيون . وترهف لسماع صوتها الآذان ، قالت جميلة :

أيها الناس ، رأيت مناماً أزعجنى ، وقد خفت أن يكون أجلى قريباً وليس ينفعنى إلا صالح الأعمال ، وقد رأيت أن أترك الغناء مخافة أن يلحقنى شىء منه عند ربى .

فما سمع القوم ذلك حتى هاجوا وماجوا واضطربوا ، فتكلم خطباؤهم وتحمّس زعماؤهم ضد ما تنويه جميلة من ترك الغناء ! حتى إن فقيهاً ورعاً مُسِناً قام فخطب فى الناس محبذاً الغناء مبيناً أنه ضرورة من ضرورات النفوس والقلوب كضرورة الطعام للحياة ! وما زال القوم بجميلة حتى عدلت فغنّت :

أفى رسم دار دمعـــك المترقرق    سقاها وما استنطاق ما ليس ينطق
بحيث التقى جمع وأقصى محسّر[2]    مغانيه قد كادت عن العهد تـَخلـَق

(١) شراب مرطب .    (٢) واد بين منى ومزدلفة .

مقـــام لنا بعد العشاء ومنزل به لم يكدره علينا مُعوّق
فأحسن شيء كان أول ليلنـــا وآخره حزنٌ إذا نتفرق

فصاح القوم ونعروا وقالوا : بنفوسنا أنت يا جميلة !

وبعد : أفتلك مناورة من جميلة ؟ أم أنه شعور صادق أول المجلس وآخره ؟

* * *

وتتفنن جميلة فى مجلس أعدّته لعبد الله بن جعفر فتهيئ جواريها وتجعل على رءوسهن شعورًا مسدلة كالعناقيد حتى أعجازهن ، وتلبسهن أنواع الثياب المصبغة وتضع فوق رءوسهن تيجانًا مزينة بأنواع الحلىّ ! ويحضر ابن جعفر إلى مجلسه الخاص فتقابله جميلة بالحفاوة ، وتقوم بين يديه وجواريها عن يمينه وعن شماله ، ولكنه يقسم عليها أن تجلس ، فتجلس منه غير بعيد وتغنى شعرًا لحذُافة بن عامر والجوارى يضربن بالعيدان على غنائها :

بنى شيبة الحمد الذى كان وجهه يضىء ظلام الليل كالقمر البدر
كهُولهُم خير الكهول ونسلهم كنسل الملوك لا يبور ولا يَمْرِى
أبوكم قُصىّ كان يدعى مُجَمِّعًا به جمع الله القبائل من فِهر

ويطرب ابن جعفر للشعر والغناء فيستعيده مرارًا . . . ثم يستأذن من جميلة فيركب بغلته وينصرف ، ويبقى أتباعه فى دارها لتناول الغداء !

* * *

ولجميلة فى بعض مجالسها عبث ظريف ومجون مقبول :

حضر عندها يومًا أساطين الغناء وقتئذ وفيهم ابن سريج ، فلبست بُرنسًا طويلاً ، وألبست من كانوا عندها برانس أقل طولاً ، وكان ابن سريج أصلع قبيح الصّلع وقد اتخذ وفرة من شعره يضعها على رأسه ! وأرادت جميلة أن تسخر من صلعته فطلبت إليه أن يلبس البرنس فتردد أولاً . . . ولكنه كشف صلعته فما رآها القوم حتى أغرقوا فى الضحك والسخرية منه ! !

ثم قامت جميلة بينهم فغنَّت ورقصت وعلى رأسها البرنس الطويل ، وعلى عاتقها بردة يمانيَّة ، وعلى عواتق القوم أمثالها . . . ولم تكتف جميلة بذلك ، بل طلبت إلى المغنين أن يرقصوا معها ... فقام ابن سريج ومعبد وابن عائشة ومالك يرقصون معها وبيد كل منهم عود يضرب عليه وهم يغنون جميعاً :

ذهب الشباب وليتــه لم يذهب ... وعلا المفارق وقع شيب مغرب
والغانيات يردن غيرك صاحباً ... ويعدنك الهجران بعــد تقرب
إنى أقول مقــالة بتجارب ... حقاً ولم يخبرك مثــل مجرب
صاف الكريم وكن لعرضك صائناً ... وعن اللئيم ومثــله فتنكَّب

هذه رقصة البرانس وغناء المشيب !

ويقوم بنفس جميلة تغيير هذه « التقليعة » فتغيرها . . . فتلبس الثياب المصبغة وتضع على رأسها وفرة شعر كوفرة ابن سريج ، ويلبس القوم مثل لباسها . . . ثم تضرب بالعود وتمشى ، فيضرب القوم ويمشون وراءها . . . ثم يغنون جميعاً :

يمشين مشى قطا البِطاح تأوُّداً ... قُبَّ البطون رواجح الأكفال
فيهن آنسة الحديث حبيبــة ... ليست بفاحشــة ولا متفال[1]
وتكون ريقتهــا إذا نبهتهــا ... كالمسك فوق سلافة الجريال[2]

هذه جميلة العابثة فى بعض مجالسها . . . ولعل لها فى ذلك عذراً . . .

فتلك بعض مجالسها وقد تقدمت بها السن ، وهؤلاء شيوخ مغنون غادروا شبابهم ونعيمهم ، فكل منهم مودع للحياة ، وكل منهم مشرف على النهاية الحتمية فهو ينهب من الحياة ما يستطيع . . .

ولعلنا بهذا القدر نكون قد وفقنا قدر الاستطاعة إلى إبراز صورة نيها بعض الوضوح والتمييز لجميلة شيخة المغنين فى الحجاز .

---

(١) غير منتنة لأنها تتطيب دائماً . (٢) الخمر .

# عَزَّة المَيْلاء

أول مغنية فى المدينة ، وقيل إنها أول من غنى الغناء الموقع من النساء فى الحجاز ، وقد كانت إحدى القيان اللواتى يضمهن منزلُ جميلة فى مجالس الغناء ، كما كانت أمهر المغنين والمغنيات ضرباً على العود .

وسميت « الميلاء » لتمايلها فى مشيتها ، وقد تلقى عنها ابن سريج كثيراً من فنون غنائها ، وكان يقول عنها : « أحسن الناس غناء عزة مولاة الأنصار المفضلة على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء » . وكان ابن محرز يأتى إليها من مكة ليتلقى عنها أصول الغناء ، كما كان يفعل طويس ، وقد عرفت عزة بأنها كانت تمثل المدرسة الغنائيةالقديمة فى المدينة ، فكانت تغنى غناء القدائم منالقيان أمثال : « سيرين وزَرْنب وخَوْلة والرّباب وسلمى ورائقة » ، وكانت الأخيرة أستاذتها .

وقد حدثوا أنها كانت جميلة الوجه والجسم ، ذات دلال وفتنة وحسن ، وأن « جريراً » المغنى كان جارها ، وكان يقول عنها : « هى سيدة من غَ من النساء مع جمال بارع ، وخلق فاضل ، وإسلام لا يشوبه دنس ، وكانت إذا جلست جلوساً عاماً فكأن الطير على رءوس جلسائها » .

ويقول معبد : دخلت يوماً على جميلة فوجدت « عزة » عندها وقد أسنَّت وهى تغنى شعراً لابن الإطنابة :

عللانى وعللا صـــاحبيا      واسقيانى من المروّق ريا

فما سمع السامعون قط بشيء أحسن من هذا ! وذاك غناؤها وهى مسنة فكيف بها وهى شابة ؟ ؟

* * *

مكانة عزة :

كانت عزة تعاصر جميلة ، ولكنها سابقة لها فى الغناء ، وكانتا تسكنان « المدينة » ، وعلى الرغم من أن عزة كانت أقدم مغنية بها فإنها لم تبلغ فى مكانتها ما بلغته جميلة ، فهى على تقدير المغنين وأهل المدينة لها لم تكن ذات مجالس غنائية مشهورة ، كما لم تكن زعيمة مدرسة غنائية كصاحبتها ، ولقد كانت تنتقل فى المنازل والأحياء حين تدعى ، ولم يكن لها من البطانة والجوارى إذا تحركت أو انتقلت ما كان لصاحبتها أيضًا ! وهذا كله لا ينفى أنها كانت أستاذة لبعض كبار المغنين إذ ذاك ، وأن أهل المدينة عامتهم وخاصتهم من أشراف وشعراء ومغنين كانوا يخصونها بالفضل ويثنون على جمالها ويتمدحون بغنائها . . . كما كان بعضهم يقصد منزلها ليسمع غناءها !

قالوا : إن عبد الله بن جعفر وابن أبى عتيق وابن أبى ربيعة كانوا يغشون منزلها فتغنيهم ، وغنت يومًا عمر بن أبى ربيعة شيئًا من شعره فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صعق منها ! فقيل له : لغيرك الجهل يا أبا الخطاب ! ! قال : سمعت والله ما لم أملك معه نفسى ولا عقلى !

ويتذمر والى المدينة من غناء عزة ، ويخشى الفتنة على شبابها فيرسل إليها رسولا يقول لها : دعى الغناء ! فقد ضج أهل المدينة منك ، وقد فتنت رجالهم ونساءهم ! وبينما الرسول يلقى رسالته على عزة وإذا بابن أبى عتيق وعبد الله ابن جعفر يطرقان بابها فيقولان للرسول :

ارجع إلى صاحبك وقل له : ابعث مناديًا فى المدينة ليظهر لنا رجلا فتن أو امرأة فسدت . . . فذهب الرسول ولم يعد !

ودخل الاثنان على عزة فقالا لها : لا يهولنَّك ما سمعتِ ! وهاتى فغنينا فغنت « للقطامى » :

إنا محيوكَ فاسلم أيها الطلل وإن بليتَ ، وإن طالت بك الطِّيل
يمشين هونًا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل

والبيت الثانى وصف للأجسام الجميلة فى النساء .

قال أبو عمرو الشيبانى : لو قال القطامى بيته :

يمشين هونًا ، فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل

فى وصف الناس لكان أشعر الناس ! ! ولو قال كثير بيتَه .

فقلت لها يا عَزَ كل مصيبـــة إذا وُطِّنت يومًا لها النفسُ ذلت

فى مرثية أو صفة حرب لكان أشعر الناس !

وقال أعرابى مسافر إلى الشام : كنت أتغنى فى طريقى بقول القُطامى :

قد يدرك المتأنى بعض حاجتـــه وقد يكون مع المستعجل الزلل

فرد علىَّ أعرابى آخر قال : هذا تثبيط للناس عن الحزم ، فهلاَّ قال بعده :

وربما ضرَّ بعضَ الناس بطؤُهم وكان خيرًا لهم لو أنهم عجلوا ؟

ويزداد إعجاب ابن أبى عتيق بعزة ، فلا تكفيه زيارته إياها ، بل يدعوها إلى داره فتجيب . ويطلب إليها أن تغنيه صوتًا يعشقه من شعر عنترة فتغنى [1] :

لمن الديار عرفتهـــا بالشَّرنب ذهب الذين بها ولما تذهب
إن الرجال لهم إليك وســـيلة أن يأخـــذوك بذلة وتنكب

---

(١) فى نسبة الأبيات خلاف .

وأنا امرؤ إن يأخذونى عنــوة أُقْرَن إلى ســير الركاب وأُجنب
ويكون مركبك العقودَ وراحــةً وابنُ النعامة[١] يوم ذلك مركبى

* * *

ودخل النعمان بن بشير المدينة فى عهد يزيد بن معاوية فقال للقوم : لقد اشتاقت أذنى للسماع ! فأين عزة الميْلاء ؟ وأراد أن يرسل إليها فقال القوم : إنها لا تستطيع الانتقال لثقل بدنها — وكانت قد غلظت وتضخمت — وما فى المدينة دابة تحملها . . . ! فقال : فأين النجائب عليها الهوادج ؟ فوجه إليها بنجيب لم تستطع حملها فذهب إلى دارها مع بعض خواصه فغنته شعراً لقيس بن الخطيم :

أجدّ « بعَمْرة » غنيــانُهــا فتهجر ، أم شــانُنا شانُها
وعمرة من سروات النساء تَنَفَّحُ بالمسك أردانُهــا

ولكن بعض الحاضرين أشار إليها بما يفيد أن عمرةَ هذه أمّ النعمان ! فأمسكت ! ولكنه استعاد الصوت مراراً ولم يطلب غيره ! !

وقيل ، إن « عمرة » هذه امرأة لحسَّان بن ثابت ، وقد شبب بها قيسُ ابن الخطيم ، لأن حسَّاناً كان يشبب بأخته ليلى وفيها يقول :

لقد هاج نفسك أشجانهــا وعاودها اليــوم أدرانُهــا
تذكرت ليــلىَ وأنَّى بها إذا قطعت منك أقرانُهــا
وحجَّل فى الدار غِربانهــا وخفّ من الدار سكانها
وقفت عليها فســاءلتها وقد ظعن ا لحىّ ، ما شانُها ؟
فعيَّت وجاوبَنى دونَهــا بمــا راع قلبى أعوانُــها[٢]

( ١ ) الفرس أو ظل الإنسان.
( ٢ ) لهذا الشعر قصة بين قيس وحسان أغانى جـ ٦ ص ١٢١ .

فجاوبه قيس بقصيدته التى مطلعها :

أجدّ بعمـــرة غنيانهـــا . . . الأبيات

وفيها يفتخر بقومه فى يوم الربيع[1] فيقول :

ونحن الفوارس يوم الربيـ ع قد علموا كيف فرسانُها
حسان الوجوه حداد السيُّو ف يبتدر المجدَ شُبَّانُهـــا

* * *

عزة وحسَّان :

المغنية الوحيدة التى كانت تستدر دموع حسان بن ثابت هى عزة الميلاء ، لقد عرفته ووقفت على دقائق نفسه وعواطفه ، فكانت تستفزها فيه حين تريد ، وكان ابنه عبد الرحمن — وهو من مجان المدينة — حينذاك يكره أن يضمه وأباه مجلس ، فكان كثيراً ما يضايقه باستعداء المغنيات عليه ولا سيما عزة ، كما كان يشير عليها بغناء أبيات خاصة يعرف أنها توقظ فى أبيه همومه وأحزانه فيترك المجلس وينصرف ويخلو ابنه عبد الرحمن بمن يريد فيه ! !

وقالوا : إن حسانـاً كان معجباً بعزة وكان يقدمها على سائر قيان المدينة ، ولما ختَن زيد بن ثابت الأنصارى ابنته أوْ لَـمَ ودعا المهاجرين والأنصار وحضر الوليمة حسان وقد كف بصره وثقل سمعه، وكان يقوده ابنه عبد الرحمن، ولما وضع الطعام بين يديه سأل ابنه : طعامُ يدٍ أم يدين ؟ قال ابنه : يد واحدة ! ولما جىء بالشواء قال له ابنه : طعام يدين ! حتى إذا فرغ من طعامه أقبلت عزة وهى يومئذ شابة ، فجلست واحتضنت مزهرها وراحت تغنى من شعر حسان :

فلازال قبرٌ بين بُصرى[2] وجِلَّق عليه من الوسمىّ جودٌ ووابل

---

(١) يوم من أيام الحرب بين الأوس والخزرج .

(٢) البصرتان : البصرة والكوفة ، و بصرى بضم الباء موضع بالشام .

فطرب حسان وأصغى إليها وعيناه تنضحان بالدمع .

وما فرغت عزة حتى كان حسان غارقًا فى دموعه . . . ولكن ابنه عبد الرحمن يشير إليها : أن زيدى ! فغنت من شعره أيضًا :

انظر خليلى بباب جِلِّق هــل تبصر دون البلقــاء من أحد
أهوى حديث الندمان فى فلق الصُّبح وصــوت المسامر الغرد
تقول شعثـــاء[1] بعد ما هبطت يصون حُسنِى من احتدى بلدى
لا أخدش الخدش بالحبيب ولا يخشى نديمى إذا انتشيت يدى

فزاد بكاء حسان ونحيبه ، فلقد هاجت الأبيات فى نفسه ذكرى شعثاء فى شبابه ! وما زال يبكى وابنه يحرّض عليه « عزة » حتى هب واقفًا وصاح : هذا عمل الفاسق « يعنى ابنه » أما لقد كرهتم مجلسى فقبح الله مجلسكم سائر اليوم وانصرف . . . !

* * *

ويجتمع عبد الرحمن بن حسان مع فتية من قريش فى دار عزة فتغنيهم قول الأعشى :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا واحتلت الغَوْرَ فالجدين فالفرَعا
وأنكرتنى وما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

وللجميلة فى هذا الشعر غناء تقدم !

وبينما الفتية فى مرح وطرب ، وبينهم عزة الشابة تغنيهم وتداعبهم ، إذا طارق بالباب ! فمن يكون ؟ إنه حسان الأعمى المدله بعزة ! إنه ليسعى إليها وهو فى نهاية العمر ، ويحب غناءها وحديثها وليس له فى هذا ولا ذاك مأرب كمآرب الشباب . . . ولكنه يسعى إليها فحسب . . . ويسعى على عكازة تهديه الطريق !

---

(١) امرأة أحبها ، وقيل تزوجها وقصتها أغانى جـ ١٦ ص ١٦ .

ويدخل عليهم حسان فيغتم ابنه ويحزن ، ويتضايق الفتية ويتبرمون ، وتضحك عزة وتتطاول . . . . فيشير عليها عبد الرحمن أن ترفع عقيرتها وتغنى لحسان :

أولاد جفنةَ عنـد قبر أبيهم — قبر ابن ماريةَ الجوادِ المفضل
بيض الوجوه كريمةٌ أحسـابهم — شُمُّ الأنوف من الطراز الأول
يُغْشَوْن حتى ما تَهِرُّ[1] كلابهم — لا يسألون عن السواد المقبل

قيل : فبكى حسان حتى ظن أن نفسه قد تلفت ، ثم قام فانصرف !
فما أمرّ الهرم وفى جوانحه حنين ! وما أقسى الشباب وفى جوانحه اضطرام ! !

* * *

خبرتها بالنساء :

ولعزّة — فوق أنها أقدم مغنية بالمدينة — خبرةٌ بمعرفة النساء ، وموهبة نافذة فى نقد ما بهن من عيوب ومحاسن ، ولقد كانت متمتعة بثقة أهل المدينة رجالها ونسائها ، حتى إن منهم من لا يقدم على أمر دون أن يستشيرها فيه !

حدثوا أنه أتاها يوماً مصعب بن الزبير ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، وسعيد بن العاص ، وكلهم من أحفاد الخلفاء والصحابة ، فقالوا لها : يا عزة قد خطبنا فانظرى !

فقالت لمصعب : ومن خطبت ؟ قال عائشة بنت طلحة !
قالت : وأنت يا ابن أبى بكر ؟ قال : أم القاسم بنت زكريا بن طلحة !
قالت : فأنت يا ابن العاص ؟ قال : عائشة بنت عثمان ![2]
قالت : يا جارية ، هاتى منقلى[3]! فخرجت والجارية تتبعها حتى دخلت على عائشة بنت طلحة فقالت : يا عائشة ! إن القوم يتذاكرون جمال النساء

---
(١) تنبح . (٢) هؤلاء الثلاث ذوات حسب رفيع .
(٣) خفيها .

وخلقهن ، وقد ذكروك ، فلم أدر كيف أصفك ؟ فاخلعى ثوبك فدتك نفسى ! فخلعت ثوبها فأقبلت وأدبرت فارتجّ كل شىء فيها ، قالت لها عزة : خذى ثوبك ! قالت عائشة : يا عزة ! قد قضيت حاجتك وبقيت حاجتى ! قالت عزة : وما هى بنفسى أنت ؟ قالت : تغنّينى صوتًا ، فاندفعت تغنى بشعر « جميل » :

خليلىّ عوجا بالمحلة من جمــل ... وأترابها بين الأصيفر والخبْل(١)

نقف بمغان قد محا رسمها البــلى ... تعاقبهـــا الأيام بالريح والوبل

فلو درج النمل الصغار بجلدها ... لأندبَ أعلى جلدها مدرجُ النمل

وأحسن خلق الله جيـــدًا ومقلة ... تشبّهُ فى النسوان بالشادن الطفل

فقامت عائشة وقبلت ما بين عينيها ، ودفعت إليها أثوابًا وجواهر .

وأتت عزة أمَّ القاسم وعائشةَ بنت عثمان فصنعت معهما كذلك ! ثم رجعت إلى الرجال الثلاثة « بالسقيفة »(٢) فقالوا لها : ما صنعت؟ قالت لمصعب : يا ابن أبى عبد الله ، أما عائشة فلا والله ما رأيت مثلها مقبلة مدبرة ، محطوطة المتنين ، عظيمة العجيزة ممتلئة الترائب ، نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر ، لفّاء الفخذين ، ممتلئة الصدر ، خميصة البطن ، ضخمة السرة ، مسرولة الساقين ، يرتج ما بين أعلاها إلى قدميها . . . ! !

وفيها عيبان : أما أحدهما فيواريه الخمار ، وأما الآخر فيواريه الخف : « كبيرة الأذن والقدم » قالوا : وكانت عائشة كذلك !

وأما أنت يا ابن الصديق : فلا والله ما رأيت مثل أم القاسم ! كأنها خوط بان يتثنى ، ولو شئت أن تعقد أطرافها لفعلت . . ! ولكنها ضيّقة الصدر . وأنت عريض الصدر ، فإذا كان ذلك كان قبيحًا ! لا والله حتى يملأ كل شىء مثله . . !

---

(١) أسماء أماكن .

(٢) مكان بظاهر المدينة .

وأما أنت يا ابن العاص ! فإنى والله ما رأيت مثل خَلْق عائشة بنت عثمان لامرأة قط : ليس فيها عيب ! والله لكأنما أفرغت إفراغا ، ولكن فى الوجه رَدَّة[1] ! وإن استشرتنى أشرت عليك بوجه تستأنس به . . ! ومع هذا النقد العجيب البارع فقد تزوج كل من صاحبته !

* * *

عند سكينة بنت الحسين :

كانت سكينة بنت الحسين تستخدم « أشعب » وهو من ضُرب به المثل فى الطمع والفضول والفكاهة الطريفة ، وكانت تستريح إلى مضاحكته ونوادره وسرعة خاطره . . . طلبت إليه مرّة أن تسمع غناء من ابن سريج وقد لزم المسجد لعلة أصابته وآلى ألاّ يغنى ! ولكن سكينة أصرّت على إحضاره واستماع غنائه ، فمن يحضره إلا أشعب ؟

ويداعبها أشعب فيقول لها : الرجل اليوم مريض وقد أقسم ألاّ يغنى ! فادفعى طمعك ، وامسحى بوزك ، تنفعك حلاوة فمك !

ولم تكن سكينة فى حالة نفسية تسمح بهذه الدُّعابة فغضبت لها وأمرت جواريها فشجَجْن رأس « أشعب » ومَرّغْنَه فى التراب ، وسَحبنه على وجهه إلى خارج الدار . . !

وينطلق أشعب هكذا والدماء تسيل من رأسه ، ووجهه معفّر أغبر ، فيدخل على ابن سُريج — وكان ضيفاً عند أحد أصدقائه وقتئذ — ويروى له القصة ! ويقسم عليه إلاّ ذهب معه إلى سكينة . . . وإلاّ فأجره على الله فى حياته ! ويمتنع ابن سريج بشدة . . . ويلح أشعب دون جدوى !

ولكنه يصرخ ويستغيث فيجتمع عليهما الناس من كل صوب يستطلعون الخبر فيتعجب ابن سريج ويتخاذل ، ثم يرفض !

---

(١) أى شيء من القبح مع جماله ، انظر اللسان .

وإنه لكذلك . . . وإذا بأشعب يسرّ إليه مهدداً . . . لئن لم تصر معى إلى سكينة الساعة وتغنيها لأقولنّ للناس عنك سراً . . . .وسكت . . !

قال ابن سريج : ويلك يا أشعب ! ما ألأمَ حيلَك ! وخرج معه كارهاً حتى أتى سكينة وأراد أن يعتذر لها ، فهددته بالضرب إن لم يغنّ ، فاندفع يغنى قول ابن أبى ربيعة :

أستعين الذى بكفّيه نفعى ورجائى على التى قتلتنى
ولقد كنت قــد عرفت وأبصر ت أموراً لو انّهـا نفعتنى
قلت إنى أهوَى شِفَاً ما ألاقى من خطوب تتابعت فدهتنى

فأخرجت سكينة دملجاً ذهبيًّا وأقسمت على ابن سريج أن يدخله فى يده ففعل . . . وتشتاق إلى عزّة الميلاء فتقول لأشعب : اذهب إلى عزّة فأقرئها السلام وأعلمها أن ابن سريج عندنا فلتأتنا مفضلة ، فذهب وأحضرها ، فلما دخلت على سكينة أكرمتها وأجلستها بجانبها وقالت لها : غنينى يا عزة ! فغنت بشعر عنترة :

حُيّيت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعــد أم الهيثم
إن كنت أزمعت الفراق فإنما ذُمَّت ركابكم بليـــل مظلم

فأخرجت سكينة دملجاً آخر وألبسته عزّة وخَصّتها بضيافة ممتازة ! فكانت تتناول الطعام معها وتحادثها ، حتى إنها كانت تنامُ قريبة منها ! ثم قالت لابن سريج غنّ ! فغنى لابن أبى ربيعة :

قد حان منك فلا تبعد بك الدار بَين وفى البين للمتبول(١)أضرار
قالت من انت ؟ على علم فقلت لها أنا الذى ساقه للحَيْن(٢)مقدار

(١) الذى تبله الحب ، أى غلبه وأسقمه . (٢) الهلاك .

ثُم قالت لعزة غني ! فغنت للحرث بن خالد :

وقرت بها عيني وقد كنت قبلها كثير البكاء مشفقًا من صدودها
وبشرة خود مثل تمثال بيعة تظل النصارى حوله يوم عيدها

ثم قالت لابن سريج : هات : فغنّى من شعر عمر :

أرقت فلم أنم طربا وبت مسهدا نصبا
لطيف أحبّ خلق اللـ ـه إنسانا وإن غضبا
فلم أردد مقالتها ولم أك عاتبًا عتبا
ولكن صرّمت حبلى فأمسى الحبل منقضبًا

وتفطن سكينة لما قصد ابن سريج من هذا الغناء ، فتقول له : قد عفونا عنك يا ابن سريج وأطلقنا سبيلك وزودته بعطاياها ، فخرج بعد أن حجزته ثلاثة أيام . . .

* * *

بين جميلة وعزة :

بين عزة وجميلة أمور كثيرة يلتقيان فى بعضها ويفترقان فى بعضها الآخر ، فأمَّا ما يلتقيان فيه فهو أن كلاً منهما كانت تغنى غناء القيان القدائم فى الحجاز ، وأن كلا منهما كانت أصلاً من أصول الغناء ومرجعًا يرجع إليها فيه ، وقد تتلمذ على كل منهما بعض كبار المغنين مثل ابن سريج وابن محرز وأمثالهما ، وأنهما كانتا جميلتين عفيفتين ، لهما فى نفوس الأشراف والشعراء حب وتقدير ، وقد أعجب بكل منهما ثلاثة من الأعلام هم عبد الله بن جعفر وابن أبى عتيق وابن أبى ربيعة !

وأما بعض ما يفترقان فيه ، فهو أن جميلة كانت صاحبة مدرسة غنائية لها مذاهب عرفت عنها ، وأنّها كانت تعلم الجوارى وتقتنى العدد الوفير منهن ، وما كانت كذلك عزة ، بل إن عزة نفسها كانت إحداهن !

وجميلة ،كانت ذات مكانة مرعية ، فهى لم تنتقل إلى أحد
كان الكل يقصدها ويسعى إلى دارها أميرًا كان أو شريفًا أوً ولا نفسا
ولم يعرف أنها انتقلت لأحد سوى الخليفة يزيد بن عبد الملك فغنت أمامه شمسا
من شعر الأحوص ، ولم تكن كذلك عزة ، فإنها كانت تتنقل بين الأحياء ،
والديار لإحياء الولائم والأعراس !

وقد عرفت جميلة بأنها أديبة نابهة ، فهى خبيرة بنقد الشعر ، ومحدثة بارعة وراوية ثقة ، تعرف أخبار العرب وأحوالهم ، وتفاضل بين رجالاتهم وشعرائهم ، كما كانت شيخة المغنين والمغنيات والحكم الذى ينظم عقدهم ويضع كلا فى محله فى ذكاء وفطنة وحسن تقدير . . . وما كانت عزة كذلك ، ولم تكن لعزة شخصية مرهوبة كشخصية جميلة ، ذلك للفارق بين طبيعة الشخصيتين فى الاستعداد والمواهب ، وللفارق الاجتماعى بينهما !

وكانت جميلة رمزًا للزعامة والتجديد . . . وكانت عزة رمزًا لآخر مغنية تنهج نهج قدائم المغنيات فى الحجاز .

وقد يقال : لم هذه المقارنة بين جميلة وعزة ؟ وهل سيسلك المؤلف مسلك الموازنة بين كل مغنيتين ؟

والجواب أن جميلة وعزة عاشتا فى عصر واحد وإن كانت عزة السابقة ، وأنهما من نوع واحد ولون واحد فى الحياة والغناء ، وأنهما حملتا لواء الغناء فى زمن لم يكن لغيرهما من القيان الحرائر صوت مسموع ، وأنهما وحدهما ملأتا الحجاز ولا سيما المدينة بالأغانى التى نبهت العرب وأيقظت فى نفوس شبانهم وشاباتهم حب الغناء والسعى إليه .

وكلما جمعت الملابسات المتشابهة بين مغنيتين فأكثر فلا بد من الموازنة الخاطفة التى توضح معالم كل منهما وتميزها عن الأخرى !

# سَلاّمة القس

جارية من جوارى المدينة ، كانت تميل إلى الغناء وتتعشقه بطبيعتها ، ولقد نشأت عند مولى لها عرَف فيها هذه الميول الفنية فأطلق سبيلها فى تنمية هذه المواهب ، فاتصلت بكبار المغنين لتلقّى الغناء عنهم ، ومنهم معبد وجميلة وابن عائشة .

وكانت أول أمرها مغنية محترفة كجوارى المدينة ، ولما اشتهر أمرها باعها مولاها لسُهيل بن عبد الرحمن المكىّ .

* * *

وكانت لها أخت تدعى « ريّاء » كانت مغنية محسنة ، وكان لها دار بالمدينة يقصدها المغنون والشعراء ، وكثيراً ما كانت سلامة تلازم أختها فى دارها لمزاولة الغناء .

وقد عرفت الأختان « سلامة وريّاء » بالجمال والحسن والعفة ، فلم يعرف عنهما ريبة ، اللهم إلاّ ما عُرف عن سلاّمة من اتصال الوليد بن يزيد بها وهى جارية لأبيه ! !

اجتمع الأحوص وابن قيس الرقيات يوماً عند سلامة وريّاء فقال ابن قيس : إنى مدحتكما بأبيات صادقة ، فغنيانى بها وإلا هجوتكما !

قالت سلاّمة : فما قلت ؟ قال :

لقد فتنَت ريًّا وسلاَّمة القسَّا فلم تتركا للقسّ عقلاً ولا نفسا
فتاتان ، أما منهما فشبيهة الـ هلال ، وأخرى منهما تشبه الشمسا
تُكنِّان أبشارًا رقاقًا وأوجهًا عتاقًا وأطرافًا مخضبةً ملسا

فغنته سلاّمة ثم رياء كل منهما بلحنها الخاص . . . ثم قالت للأحوص : وما قلت يا أخا الأنصار ؟ قال :

أسـلام هل لمتيم تنـويل أم هل صرَمت وغال ودّك غول
لا تصرفى عنى دلالك إنه حسن لدىَّ — وإن بخلت — جميل
أزعمت أن صبابتى أكذوبة يومًا وأن صبـابتى تعليـل ؟

فغنت سلاَّمة هذه الأبيات فأبدعت وبكت فأبكت . . . ويغار ابن قيس فيقول لسلاَّمة : ما أظنك إلا مدلَّهة بالأحوص كما هو مدلَّهٌ بك ! !

وإلا فما جودة غنائك لشعره . . . وجودة شعره فيك ؟

قالت سلاّمة : أخشى أن أكون حكمًا بينكما فأفسد أمركما ! فقبل الأحوص ورفض ابن قيس وقال : قد علمت حكمك فأقصرى ! والمستقرئ الفاهم لشعر الأحوص فى سلامة ، واهتمام سلامة به وبشعره — يستشف التجاوب العاطفى بينهما والإعجاب الشديد الذى يبديه كل لصاحبه ! وإلا فما هذا الشعر الذى يقوله الأحوص فى سلامة فتتغنى به فتفتن الناس وتشغلهم وهو ؟

أسلام إنك قد ملكت فأسجحى قد يملك الحر الكريم فيُسجح
منِّى على عان أطلت عنـاءه فى الغُل عنـدك والعُناة تمرح
إنى لأنصحكمً وأعـلم أنه سيان عندك من يغش وينصح
وإذا شكوتُ إلى سـلامة حبهـا قالت أجِدٌ منك ذا أم تمزح ؟

سلاّمة ووالى المدينة :

انتشر الغناء فى المدينة وعم العبث والمجون ، فشكا بعض الزاهدين إلى واليها ما صنعت الجوارى المغنيات بأخلاق الناس ، وكان واليها يومئذ « عثمان بن حيان مُرّى » وقد عرف بالتزمت والجد ، فصاح بإخراج المغنين والمغنيات من المدينة وأمهلهم ثلاثة أيام !

هذا خبر خطير — لا شك — يغتم له أهل الفن وعشاق السماع ، وفيهم الأشراف والشعراء ، فيسرع ابن أبى عتيق وهو ذو مكانة وفضل إلى سلاّمة ليرى ما فعل بها الخبر ، فيجدها قد فقدت وعيها فيطمئنها ويعدها خيراً ، ويتوجه من عندها إلى الوالى فيتحدث إليه ، ولا يزال به حتى يقبل دخول « سلاّمة » عليه ليرى فيها الرأى ، وكان ابن أبى عتيق قد علمها أن تتصنع الوقار والجد والعفة ، أمام الوالى ، وأن تثنى عليه وتحدثه حديث الراوى للأدب وأخبار العرب ، كما أشار عليها أن تمسك بسبحة طويلة وأن ترتدى رداء شاملاً ، وأن تقرئه شيئاً من القرآن الكريم . . . . !

ودخلت سلاّمة بصحبة ابن أبى عتيق على الوالى فراحت تحدثه حديثاً فاضلاً وتمدح آباءه وأجداده ، ثم اندفعت تتلو أمامه شيئاً من القرآن الكريم فى نبرات خاشعة وترتيل منغم جميل ، فما إن فرغت من الترتيل حتى أشرق وجه الوالى وتعجب . . . !

قال ابن أبى عتيق : يا سلامة ! إحدى[1] للوالى ! ففعلت ، فزاد تعجبه ، فقال : فكيف أيها الأمير لو سمعتها تغنى ؟ فأمرها بالغناء فاندفعت تغنى :

سددن خَصائص الخيم[2] لما دخلنه بكل لَبان[3] واضح وجبين

(١) غنى له حداء الإبل . (٢) الخيمة . (٣) اللبان : الصدر .

فقام الأمير من مجلسه وجلس بين يديها وقال : زيديني : فغنت !

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها  فاعجب لما تأتى به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما  سبل الضلالة والهدى أقسام

فطرب وحرك لحيته وقال صدقت . . ! لا والله ما مثل هذه تخرج من المدينة ! قال ابن أبى عتيق : لا تلك وحدها وإلا قال الناس : أبقى سلاّمة وأخرج غيرها ! !

قال الوالى : فدعوهن جميعاً . . . !

من اختيار هذا الغناء أمام الوالى الزاهد نستطيع أن نتلمس فى سلاّمة ذكاء محسوساً وبراعة فى فتنة من يراها أو يجلس إليها ؛ وإن ما قامت به هى وابن عتيق من الحيل البارعة فى استمالة الوالى لدليل على روح الفكاهة والمداعبات الكامنة فى نفوس أهل الفن ومريديه ! حتى ولو عرفوا بالفضل والوقار . . . !

سلاّمة والقسّ :

وانتهت حياة سلامة بالمدينة وانتقلت إلى مكة حين اشتراها « سُهيل ابن عبد الرحمن » وكان رجلاً كريماً سمحاً ، يختلف إلى داره الشعراء والأشراف ومحبو الغناء ، ليسمعوا غناء سلاّمة وينشدوها الأشعار فتجيبهم بشعر لها وتغنيهم ما ينشدون !

قالوا : وممن سمع غناءها عبد الرحمن بن أبى عمار المعروف بالقَس ، لقد كان من زهاد مكة وعبادها وفقهائها ، وكان أهل مكة يشبهونه بعطاء بن أبى رباح العالم المحدّث المعروف ، سمع غناءها « القس » فافتتن بها ، ثم ظل يحارب هواه ويكافح عاطفته ويستحيى من الحب والوله ، وهو المعروف بالزهد والعبادة ، ولكن الحب كالقدر يأتى على كل شىء ، لقد أتى على القس

فأنساه كل شيء ، فصرّح بحبه فى شعره ، فافتضح أمره ، وسار ذكره بين الركبان كما يقولون ، وأمست قصته حديث أهل الحجاز وسمر المتسامرين والمقيمين والظاعنين من شيوخ وشبان وصبية وحرائر وقيان ! !

ويرفع القس الزاهد عقيرته فيختلف إلى بيت « سهيل » ويجلس إلى سلاّمة ويخلوان ويتحدثان ، والرجل غافل عن كل ما حوله من الوجود إلا تلك التى سلبته فؤاده وأفقدته وعيه ، ثم يسجل على نفسه ما كان يخشاه بشعر رقيق تغنيه سلامة :

ما بال قلبك لا يزال يهيمه ذِكَرٌ عواقب غيرهن سقام
إن التى طرقتك بين ركائب تمشى بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبك أو جزاء مودة إن الرفيق له عليك ذمام
باتت تعللنا وتحسب أننا فى ذاك أيقاظ ونحن نيام
حتى إذا سطع الصباح لناظر فإذا وذلك بيننا أحلام

ويقولون : إنهما اجتمعا يومًا فقالت له سلاّمة : أنا والله أحبك ! قال : وأنا والله أحبك ! قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك ! قال : وأنا أحب ذلك ! وهكذا من شيء إلى شيء حتى البطن والصدر ، وهو يقول : وأنا أحب ذلك ! قالت : وما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخال ! قال : إنى سمعت الله عز وجل يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين[1] » .

هكذا يقولون ! وأنا لا أميل إلى ما يقولون لأن هذا الكلام تافه فى ذاته ، صغير فى موضوعه فهو كلام طفولة بلهاء وصاحبانا كبيران ! ! فوق ما فيه مما يناقض طبيعة المرأة مهما تبذلت وفسقت . . . فالرجل هو الطالب دائمًا ، والمرأة هى المتمنعة دائمًا وإن أرادت . . . !

---

(١) أغانى جـ ٨ ص ٦ .

ومن شعره فيها :

ألم ترها لا يبعد الله دارهـــا إذا رجّعت فى صوتها كيف تصنع
تمـــد نظام القول ثم ترده إلى صلصل فى صوتها يترجع

وفيها يقول :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصـــر وهل أنت عن سلاّمة اليوم مقصر ؟
ألا ليت أنى حين صارت بها النـــوى جليس لسلمى كلما عجّ مِزهر

ويقول فيها من قصيدة طويلة :

سلاّم ويحك ! هل تحيين ما ماتا أو ترجعين على المحزون ما فاتا ؟

ويقول :

ســـلام هل لى منكم ناصر أم هل لقلبى عنكم زاجر ؟
قد سمع الناس بوجدى بكم فنهم اللائم والعـــاذر

وهكذا راح القس مولّهـًا بسلاّمة وهو لا ينال منها مأربـًا ، ولا يستطيع شراءها ، حتى خرجت من مكة إلى الشام وقد اشتراها يزيد بن عبد الملك !

* * *

سلامة ويزيد :

سمع الخليفة يزيد بن عبد الملك بسلاّمة وحَبابة فاشتراهما معـًا ، فأما « حَبابة » فالكلام عنها سيأتى فى موضعها ، وأما سلاّمة فإنهم قالوا : بعث يزيد رسله لشرائها فاشتروها من مولاها بعشرين ألف دينار ، فلما صارت فى الركب إلى الشام مرت بسِقاية سليمان بن عبد الملك فقالت للرسل : هنا قوم كان لى بهم صلة ومودة فلا بد من وداعهم قبل الرحيل ، فاجتمع الناس بالسقاية لوداعها فوقفت بينهم ممسكة بعودها وراحت تغنيهم بشعر لها :

فارقونى وقد علمت يقينـــا ما لمن ذاق ميتةً من إياب
إن أهل الخضاب قد تركونى مولعـــا موزعًا بأهل الخضاب
أهل بيت تتابعوا للمنـــايا ما على الدهر بعدهم من عتاب
سكنوا الجزع ، جزع[1] أبى مو سى إلى النخل[2] من صُفىّ السِّباب
كم بذاك الحَجون[3] من حى صدق وكهول أعِفَّـــة وشـــباب

ولم تزل تردد هذا الصوت وهى تنتحب حتى راحت وغابت عن الناس !
وَوصلت سلاّمة إلى قصر الخليفة لتعيش فيه بقية حياتها بجانب حبابة زميلتها وتلميذتها ، ولم يكن لسلامة بنفس الخليفة ما كان لحبابة فقد كان يهوى فى الأولى جمال صوتها وجودة فنها . وشعرها ، وفى الثانية جمال وجهها وحسن جسمها ورقة الدلال فيها !

قال الوليد بن يزيد يومًا لسلامة بعد موت أبيه يزيد : يا سلاّمة ، رحم الله أبى وأطال عمرى وأمتعنى بحسن صوتك ! بم كان أبى يقدم عليك حبابة ؟ قالت : لا أدرى والله ! قال . . . ولكننى أدرى ! ! ذلك بما قسم الله لها : قالت : يا سيدى أجل!

ولما وصلت قصر الخليفة كان أول صوت غنته به قول « القس » :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر
ألا ليت أنى حيث صار بها النوى جليس لسلمى كلما عجَّ مزهر
وأنى إذا ما الموت زال بنفسهـــا يزال بنفسى قبلهـــا حين تقبر
إذا أخذت فى الصوت كاد جليسها يطير إليها قلبه حين تنظر

ويظهر ميل الأحوص إلى سلاّمة صريحًا حارًّا حين رحلت إلى الخليفة فبعث إليها :

---

( ١ ، ٢ ، ٣ ) أسماء أماكن .

عاود القلب من سلامة نَصْبُ　فلعينيَّ من جوى الحب غرب
ولقد قلت أيها القلب ، ذا لشو　ق الذى لا يحبك حب
إنه قد دنا فِراق سليمى　وغداً مطلبٌ عن الوصل صعب

وغنت سلاّمة هذا الشعر ليزيد وأخبرته الخبر .

ودخل الكميت شاعر الهاشميين يوماً على يزيد فأحضر له سلامة ، وقال له : يا أبا المستهل هذه جارية تباع : أفترى أن نبتاعها ؟ قال : إى والله يا أمير المؤمنين ! وما أرى أن لها مثلاً فى الدنيا ، قال يزيد : فصفها فى شِعر ! فقال الكميت :

هى شمس النهار فى الحسن إلا　أنها فُضِّلَت بقتل الظراف
رَخْصَةٌ بضة ، رخيم لعوب　وعثة المتن شحنة الأطراف
زانها دَلُّها وثغر نقى　وحديث مرتل غير جاف
خلقت فوق منية المتمنى　فاقبل النصح يا ابن عبد مناف

فضحك يزيد وقال : قد قبلنا نصحك يا أبا المستهل ! وأمر له بجائزة .

فهذ الكميت الشاعر العالم حبيب العلويين وعدو الأمويين يصف سلامة بهذا الشعر اللعوب . . . !

واشتاقت سلاّمة يوماً إلى شعر الأحوص وغناء الغريض المغنى ! فتحايلت حتى حملت يزيد على أن يرسل إليهما ، ولكنه أرسل للأحوص وحده ، فحضر ومعه الغريض وقد أخفاه عن الخليفة وأخبر سلاّمة الخبر ، فتحايلت أيضاً حتى قبل يزيد دخول الغريض عليه ، ولم يكن الخليفة راغباً فى دخول الغريض لما عرف به من التخنث . . . ودخل الأحوص وصاحبه فوجدا الخليفة ينتظرهما فأمر بإحضار « سلامة » وقد ضرب عليها حجاباً ، فاندفع الغريض يغنى بشعر الأحوص :

ألا هاج التذكر لى سقاما ونُكْسَ الداءِ والوجَعَ الغراما
سلامة إنما همى ودائى وشر الداء ما طحن العظاما
فقلت له ودمع العين يجرى على الخدين أربعة سجاما
عليك لها السلام فمن لصب يبيت الليل يهذى مستهاما ؟

فطرب يزيد حتى بكى . . . ثم أمسكت سلامة بمزهرها وغنت الأبيات فزادت من طرب الخليفة وبكائه .

وعاش يزيد فى لهوه ولذائذه وغرامه بين سلاّمة وحبابة حتى ماتت الأخيرة ، فمرض بعد موتها وكان مرضه الأخير .

قال رجل من بنى نوفل : قدمت فى جماعة من قريش على يزيد بن عبد الملك فألفيناه فى علته التى مات منها بعد موت حبابة ، فنزلنا منزلاً لاصقاً بقصره ، وكنا نسأل عنه كل صباح فيقولون : فى سوء ! فإنا لفى منزلنا ليلة إذ سمعنا همساً وبكاء ، وإذا سلامة ترفع صوتها نائحة :

لا تلمنا إن خشعنا أو هممنا بخشوع
للذى حل بنا الـ يوم من الأمر الفظيع
قد لعمرى بت ليلى كأخى الداء الوجيع
كلما أبصرت ربعاً خالياً فاضت دموعى
قد خلا من سيد كا ن لنا غير مضيع

ثم صاحت وا أمير المؤمنين . . . ! فعلمنا وفاته فأصبحنا فغدونا فى جنازته !

* * *

وبعد ، فأما أن « القس » كان يحب سلاّمة من كل قلبه فهذا لا نزاع فيه ، أما عاطفة سلاّمة نحوه فهذا أمر يحتاج فى إثباته إلى كثير من الأدلة

النفسية التى لم نجد واحدة منها فى نفس سلاّمة بالنسبة إليه ، غير أن الذى لا شك فيه أن سلاّمة قد مالت بقلبها إلى القس ومنحته إعزازها والعطف عليه ، ذلك لأنها جارية مغنية لم تر فى الناس إلا معجباً بغنائها ، وآخر مفتوناً بجسمها ، وثالثاً يستغلها للتجارة والكسب ، ورابعاً يمتلكها للذائذه وشهواته ، هؤلاء هم الناس نحوها ، وهى شاعرة بفطرتها ، وفى نفسها أنموذج خاص من الإنسانية لم تجده إلا فى هذا « القس » الذى ظهر فى حياتها إنساناً له قلب وحس ، وله شعور ووجدان ، كل أولئك استمال من نفس سلامة إليه ، ووجدت فيه المخلوق الجدير بالعطف والإعزاز ، وإن لم تجد فى نفسها نوازع الحب القوى الجارف نحوه كما كان فى نفسه نحوها ! والأحوص عند سلاّمة يشترك والقس فى هذا الإعزاز ، ولكنه يتخلّف عنه فى الإنسانية الصافية ، لذلك لم ينل من نفسها إلا كما ينال شاعر مفتون من مخلوقة يطربها الفتون ويستهويها الثناء والإعجاب . . . !

أما شعورها نحو الخليفة فهو شعور مملوك نحو سيده ، أو شعور جارية نحو خليفة ، على أن يزيد نفسه لم يكن يحب سلاّمة حبه « لحبابة » ، وإنما كان بالأولى معجباً طروباً ، وبالثانية محباً مخبولاً ! !

# حَبَابَة

جارية من جوارى المدينة ، قيل إنها كانت لابن « رُمانة » ، وقيل لابن « مينا » ، والذى عليه أصح الروايات أنها كانت لامرأة تدعى « لا حق المكية » وكونها لهذا أو هذه لا يعنينا ، بل الذى يعنينا هى حياتها الواضحة المعروفة عند الخليفة يزيد بن عبد الملك !

وحبابة قينة من القيان تباع وتشترى وتُعلّم وتستخدم ، هكذا كان شأنها فى المدينة قبل أن تعيش فى قصر الخليفة !

والمعروف أنها مالت إلى الغناء فسهل ذلك لها من ملكوها حتى تُسوَّم فى السوق بثمن كبير ، وقد تعلمت أصول الغناء على ابن سريج وابن محرز ومعبد وجميلة وعزة الميلاء ، وكثيراً ما اشتركت هى وسلاّمة فى إحياء ليالى الغناء عند شيختهم جميلة ، ومن غنائهما معاً فى هذه الليالى :

كفى حزناً أنى أغيب وتشهد ... وما نلتقى والقلب حران مقصد
ومن عجب أنى إذا الليل جنَّنى ... أقوم من الشوق الشديد وأقعد
أحن إليكم مثل ما حن تائق ... إلى الورد عطشان الفؤاد مصرد
ولى كبد حرى يعذبها الهوى ... ولى جسد يبلى ولا يتجدد

وقد عرفت حبابة بالجمال والدل والاستهواء ، وهى إحدى من فتنت أهل المدينة بغنائها وخلاعتها ، وكان الأحوص أو كان شعره على الأصح سبب هذه الفتنة كما كان السبب فى غضب الخلفاء عليه وحبسهم إياه . . . !

قدم يزيد بن عبد الملك المدينة فى خلافة أخيه سليمان بن عبد الملك وكان

قد سمع عن حبابة وسلاّمة فأحب الاستماع إلى غنائهما ، فأدخلت عليه حبابة وحدها فى إزار له ذنبان ، وبيدها دف ترمى به وتتلقاه وتغنى :

ما أحسن الجيد من مُليكة واللـ ـبات إذ زانها ترائبها
يا ليتنى ليلة إذ هجع النا س ونام الكلابُ صاحبها
فى ليلة لا يرى بها أحد يسعى علينا إلا كواكبها

افتتن يزيد بحبابة فاشتراها من مولاتها وهو يومئذ أمير . . . فبلغ ذلك أخاه سليمان فأقسم ليحجرنّ عليه ، فتنازل عنها ، فاشتراها رجل من أهل أفريقية ، وفيما هو سائر بها إلى أرضه راحت تغنى فى طريقها :

سلكوا بطن محيص[1] ثم ولّوا راجعينا
أورثونى حين ولوا طول حزن وأنينا

* * *

حبابة ويزيد :

ولى يزيد الخلافة ، فكان أول ما صنعه أن اشترى حبابة مرة أخرى وسلاّمة لأول مرة ، قالوا : إن يزيد قال : ما تقرُّ عينى بما أوتيت من الخلافة حتى أشترى سلاّمة جارية سهيل ، وحبابة جارية لاحق المكية ، فأرسل ، فاشتُريتا له ، فلما اجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

وألْقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرَّ عينًا بالإياب المسافر

وكانت حبابة قبل أن يشتريها يزيد تسمى « العالية » فلما اشتراها سماها « حبابة » ويروى الرواة أن يزيد لم يشتر حبابة ، ولكن زوجته « سعدة بنت عبد الله » كانت تعرف ميل الخليفة إليها وشغفه بها فاشترتها سرًّا لوثوقها أنه

---

(١) اسم موضع .

لا بد حاصل عليها ، وفى يوم سألته ! هل بقى لك شىء من الدنيا لم تَنَلْه بعد الخلافة ؟ قال : نعم ! العالية ! ! قالت : هذه هى ! وهى لك !

ويظهر أنه كان لحبابة فى نفوس أهل المدينة ومكة منزلة ممتازة ، ذلك لما ظهر منهم من القلق والاضطراب حين اشتراها يزيد وخرجت إلى قصره فى الشام ، لقد أكثر المتحدثون بشأنها وحزن المغنون وقال الشعراء الشعر فى وداعها والحزن عليها ، وفيها يقول الحرث بن خالد :

قد سل جسمى وقد أودى به سقم ... من أجل حىٍّ نأى عن بلدة الحرم
يحن قلبى إليهـا حين يذكرها ... وما تذكرت شوقًا آب من أقم

وفيها يقول « وضاح اليمن » قبل أن يشتريها يزيد :

يا من لقلب لا يطيـ ... ـع الزاجرين ولا يفيق
تسـلو قلوب ذوى الهوى ... وهو المكلف والمشوق
تبلَت حبـابة قلبه ... بالدَّل والشكل الأنيق
مكحولة بالسـحر تنـ ... ـشَى نشوة الخمر العتيق
هيفاء إن هى أقبـلت ... لاحت كطالعـة الشروق
داوى هـواى وأطفِئى ... ما فى الفؤاد من الحريق
وترفقى أمـلى فقـد ... كلفتنى ما لا أطيق
فى القلب منك جوى المحـ ... ـب وراحة الصب الشفيق

الخليفة مفتون :

كانت حبابة أول جارية عربية فتنت خليفة عربيًا ، لقد أحبها يزيد حتى لم تُبق فى نفسه شيئًا لغيرها ، وإنه لينسى الدنيا وقداسة الخلافة وكرامة التاج فيغرق وإياها فى الخمر والغرام ، ويتلاشى فى الطرب والغناء . ! والملم بحياة حبابة مع الخليفة يستبيح له بعض العذر إن فقد توازنه مع هذه الجارية

وَعُرِف عنه ما عرف من المجون والخلاعة والاستماتة فى غرامها . . !
« فحبابة » كما عُرِفَت من أخبارها جارية لعوب . . . مكشوفة النفس والعرض . . . وهى تملك من مواهب الإغراء ما يفتتن به العابد ، كما هى خبيرة بطبائع الرجال ووسائل تملكهم ، وإن فى نفسها لأنانية المرأة الأنثى وجوع الطباع التى فقدت كثيراً من عناصر القناعة والرضى والوقار ! وهى فوق هذا وذاك تجيد فن المبارزة النفسية والملاعبات الجسدية وهما سلاحها فى الانتصار ، حب السيطرة جزء من نفسها ، والتدبير وإحكام المؤامرات طابع لغرائزها . . . لذلك انتصرت على الرجل ، بل قضت على سمعته وحياته ، ولن نستطيع أن نقول : إن الخليفة له كل العذر فى ألا يتحمل كل هذه القوى مجتمعة فى أنثى فنانة جميلة ، لأن فى نفسه من المآخذ والاستعداد للتأثر بأمثال هذه المفاتن ما يجعلنا نحمله بعضاً مما صنع . . . !

ولحبابة شريك ذكى عابث فى التأثير على يزيد ، ذلك هو الأحوص الذى دخل حياة كل مغنية فخلق لها فى التاريخ طابعاً عرفت به ! ! لقد كان شعره كأساً عتيقة أضيفت إلى كئوس حبابة فلعبت بعقل يزيد ، وكان شعره الآلة المنفذة لأغراض « حبابة » النفسيَّة وحيلها الشيطانية ، فهو صاحب الشعر ، وهى صاحبة الغناء والدلال ، وما اجتمع الشعر والغناء والدلال إلا كانت جميعاً مصرعاً للقلوب ولا سيما قلباً كقلب يزيد . . !

والأحوص معروف بشعره الذى شكا منه الولاة والحكام حتى حبسه سليمان بن عبد الملك بعيداً عن الجزيرة العربية ، وما زال سجيناً حتى خلافة عمر بن عبد العزيز — وقد عرف عنه كراهيته للشعراء العابثين ، فذهب قوم من أهل الأحوص إلى عمر يستعطفونه فى العفو عنه فقال عمر : من القائل :

فما هو إلا أن أراهـــا فُجاءة     فأبهت حتى ما أكاد أجيب ؟

قالوا الأحوص ! قال : فمن الذى يقول :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر     بأبياتكم ما درت حيث أدور
وما كنت زوّارًا ولكن ذا الهوى     إذا لم يزر لا بد أن سيزور ؟

قالوا : الأحوص ، قال : فمن يقول :

ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا     سريرة حب يوم تبلى السرائر ؟

قالوا : الأحوص ، قال عمر : إنه لفاسق ، والله لا أرده ما كان لى سلطان! وظل سجينًا حتى خلافة يزيد بن عبد الملك .

وقالوا : إن الأحوص أرسل إلى حبابة شعرًا تغنيه ليزيد وهو :

كريم قريش حين ينسب ، والذى     أقرت له بالملك كهلاً وأمردا
وليس وإن أعطاك فى اليوم مانعًا     إذا عدت من أضعاف إعطائه غدًا
أصاب تلاد المال فى الحمد أنه     إمام هدى يجرى على ما تعودا
تشرف مجدًا من أبيه وجـــده     وقد ورثا بنيان مجد تشيَّدا

فلما غنته قال : لمن الشعر يا حبابة ؟ قالت : للأحوص السجين ! فعفا عنه وطلبه وأجزل له العطاء !

وخرج الأحوص من سجنه وراح يمد حبابة بشعره الذى تملك قلب يزيد حتى إنه ليلقى بنفسه عليها ويغيب فى أحلامه حين سمعها تغنى من وراء الستار :

كان لى يا يزيد حبك حينا     كاد يقضى علىَّ حين التقينا

قال المدائنى : وكانت حبابة إذا غنت وطرب يزيد قال لها : أطير . . ؟ فتقول له : فلمن تدع الناس ؟ فيقول : إليك . ! هكذا عشق يزيد حبابة !

وغنت حبابة أمام يزيد :

أبلغْ حبابة أسقى ربعهـــا المطر     ما للفؤاد سوى ذكراكم وطر
إن سار صحبى لم أملك تذكركم     أو عرّسوا فهموم النفس والسهر

فطرب يزيد وصاح وأمسك بوسادة وضعها على رأسه وجعل يدور فى الدار وهو يرقص . . . !

* * *

وقد بلغ من نفوذ حبابة على الخليفة أن كانت لها سلطة سياسية تعزل وتولى من تشاء من الولاة . . ! أرادت أن تولى « عمر بن هبيرة » على العراق فولته من قبلها . فقال بعض أهل العراق : ومن يطيق ابن هبيرة ؟ حبابة بالليل . . . وهداياه بالنهار . . ! وعرفت حبابة أن مسلمة بن عبد الملك يلوم الخليفة ويثنيه عنها ، فعملت على إخراجه من الولاية فأخرج . . .! وعز على « مسلمة » أن تضيع هيبة الخليفة فقال ليزيد : أنت خليفة المسلمين ! ولا ينبغى عكوفك على الشراب والغناء ، وقد وليت بعد عمر بن عبد العزيز وعدله فتشاغلت بهذه الجارية عن النظر فى الأمور ، والوفود ببابك وأصحاب الظلامات يصيحون وأنت غافل عنهم ! فقال يزيد : صدقت والله ! وترك الشراب وتجنب حبابة فلم يدخل عليها أياماً . . . وهنا تحس حبابة بالخطر الداهم فتستعمل سلاحها وتعرف من أين تأتى يزيد ، فتدس إلى الأحوص أن يقول شعراً تغنى به الخليفة وله ألف دينار . . . فيرسل إليها .

وفى يوم من أيام الجمعة وقد وعد الخليفة أن يصلى بالناس ، بينما حبابة قد أمرت بعض جواريها أن يُعْلِمْنَها إذا خرج للصلاة فأعلمنها . . . فإذا هى تعترض طريقه وبيدها العود تغنى من أبيات الأحوص :

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا     فقد غلب المحزون أن يتجلدا

فغطّى الخليفة وجهه وقال : مَهْ ! ! لا تفعلى فضحكت وغنت :

وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى     وإن لام فيه ذو الشّنان وفنّدا

فأقبل عليها وقال : صدقت والله . . . ! فقبح الله من لامنى فيك !

وعلى مسلمة لعنه الله . . . ! يا غلام ! مُرْ مسلمة أن يصلى بالناس ! ويأخذ حبابة فى يده ويجلس معها على الشراب ويقول لها : هاتى غناءك . . ! فتغنيه أبيات الأحوص :

ألا لا تلمــه اليوم أن يتبلدا فقــد غلب المحزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدى فمن شاء لامنى ومن شاء آسى فى البكاء وأسعدا
وإنى وإن فندت فى طلب الصبا لأعلم أنى لست فى الحب أوحدا
إذا أنت لم تعشق ولم تدرما الهوى فكن حجرًا من يابس الصخر جلمدا
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

وعلم الأحوص بما فعل شعره فاستأذن على الخليفة لينشده قصيدته التى أولها :

يا موقد النار بالعلياء من إضَم أوقد فقد هجت شوقًا غير منصرم

فرده الخليفة قائلاً . . . ! ليس لدى وقت للإنشاد! ! وأمر له بأربعين ألف درهم والألف الدينار التى وعدته بها حبابة !

* * *

وليس أدل على نفوذ حبابة فى سياسة الملك أن الخليفة ولى أحد مواليه أمرًا من الأمور فعزلته حبابة ، فغضب منها وخرج من عندها ، فما ارتفع النهار حتى اشتاقها فأرسل إليها خصيًا له وقال : انظر ما تصنع حبابة ! ثم أتاه وقال : رأيتها فى إزار خلُوقىّ له ذنبان وهى تلعب بلُعبها ! قال يزيد : ويحك ! احتل لها حتى تمر بها علىّ ، فراح الخصى يلاعبها ثم خطف منها لعبة وخرج يجرى ، فجرت فى إثره حتى مرت بالخليفة ، فقام إليها ضاحكًا فقال لها : قد عزلته ! فقالت : قد وليته. . . ! فعزل المولى وولى وهو لا يدرى!! فمكث وإياها أيامًا حتى دخل عليه أخوه مسلمة ، فقال له : ضيعت حوائج الناس . . . ! فما خرج حتى غنت حبابة :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرًا من يابس الصخر جلمدا

فطرب وقال : قاتلك الله . . . ! أبيت إلا أن تردينى إليك !

وفى الحق أن حبابة قد فهمت يزيد حق الفهم ، وانتفعت بما فهمت ! لقد سيطرت على الخليفة وأفادت من تحب من مناصب كبيرة وجاه ومال !

كان البيذق الأنصارى من قراء الحجاز ومغنيه ، وكان له بحبابة صلة قبل أن يشتريها يزيد ، دعته حبابة للدخول على الخليفة فدخل ويزيد على أريكة من الحرير قد غرق فيها إلى ثدييه وحبابة بجانبه على الشراب والغناء . . . فلما دخل البيذق : قالت : هذا أبى يا أمير المؤمنين ! أتأذن أن يقرأ لك ؟ فقرأ : ففاضت دموع يزيد حتى بللت لحيته ! ثم قالت : أيغنى ؟ قال يزيد : هات ! فغنى من شعر سعيد بن عبد الرحمن بن حسان :

مَن لصبٍّ مُصَيَّد هائم القلب مُقْصد
أنت زودته الضنا بئس زاد المزود
ولو انى لا أرتجيـ ـك لقد خف عُوَّدى
ثاويًا تحت تربة رَهن رمس بفَدْفد[1]
غير أنى أعلل النفـ ـس باليوم أو غد

وما فرغ البيذق من غنائه حتى ضربه يزيد فى صدره بمدهن فيه فصوص من ياقوت وزبرجد ، فأشارت إليه حبابة أن خذه فأخذه !

* * *

وتتجلى طبيعة الإسراف فى الشهوات فى يزيد حين يتأبى على شخص فى الوجود أن يطرب طربه أو يمعن فى اللذائذ مثله . . . !

غنته حبابة يومًا :

يا ليتنى إذ هجع النا س ونام الكلابُ صاحبها
فى ليلة لا يرى بها أحد يسعى علينا إلا كواكبها

---

(١) التيه والصحراء .

فطرب يزيد وصاح : يا حبابة ! هل رأيت أحداً أطرب منى ؟ قالت نعم : مولاى الذى باعنى ! فغاظه ذلك ، فكتب أن يُحمل إليه مقيداً ! فحُمل وأدخل عليه يرسف فى قيده ، وكانت حبابة قد دست إليه من أعلمه الخبر وأنها تريد منه الإسراف فى الظهور بمظهر الطرب . . فأمرها يزيد فغنت الصوت :

يا ليتنى . . . . . . . إلخ .

فوثب الرجل حتى ألقى نفسه على الشمعة فاحترقت لحيته وجعل يصيح الحريق . . . الحريق يا أولاد الزنا ! ! فضحك يزيد وقال : لعمرى إنه لأطرب الناس ! فأمر فَفُكَّت قيوده ووصله بألف دينار ووصلته حبابة بصلة ورجع إلى المدينة .

وهكذا لم تُجْد فى يزيد نصائح أهله وبخاصة مسلمة أخاه ، وكان آخرَ من وعظه منهم ولامه على الانقطاع إلى الشراب والغناء مولى خراسانىّ ذو قدر عنده ، فقال له يزيد : سأدعى أنك من عمومتى وأجلسك إلى حبابة لتغنيك ثم احكم بعد بما ترى ! فأجلسه إليها فغنت :

وقد كنت آتيكم بعـــلة غيركم فأفنيت علاتى فكيف أقول ؟

فطرب الشيخ وصاح ! فقال له يزيد : أدَعُ هذا أم لا ؟ قال الشيخ : لا تدعه !

* * *

حبابة وسلامة :

قلنا : إن يزيد اشترى حبابة وسلامة معاً ، ولكن حبابة وحدها هى التى استأثرت به وملكت عليه حياته ، وقالوا : إن مسلمة لما أكثر اللوم على يزيد وقال له : تركت الظهور وشهود الجمعة الجامعة وقعدت فى منزلك مع أولئك الجوارى ! ! طلبت حبابة وسلامة إلى الأحوص أن يصنع لهما شعراً فصنع :

وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

الأربعة الأبيات المتقدمة .

فغنت الاثنتان بها فى صوت واحد ، فطرب يزيد حتّى ضرب الأرض بخيزرانته ثم قال : هاتيا :

فغنت سلاّمة وحدها :

فقلت : ألا يا ليت أسماء أصفيت ... وهل قول « ليت » جامعٌ ما تبددا
وإنى لأهواها وأهوى لقـــاءها ... كما يشتهى الصادى الشراب المبردا
علاقة حب لجَّ فى سَـــنَنِ الصبا ... فأبلى وما يزداد إلا تجددا

وغنته سلاّمة أيضـًا :

ولو كان بذل الجود والمال مخلدًا ... من الناس إنسانـًا لكنت المخلدا
فأقسم لا أنفك ما عشت شاكرًا ... لنعماك ما طار الحمام وغردا

واختلفت حبابة وسلاّمة يومـًا فى طريقة غناء بيتينْ لمعبد وهما :

ألا حىّ الديار بسعد إنى ... أحب لحب فاطمة الديارا
أراد الظاعنون ليحـــزنونى ... فهـــاجوا صدع قلبى فاستطارا

فبعث يزيد إلى معبد ، فغنت كل أمامه بطريقتها فحكم لحبابة !

فقالت سلاّمة : والله يا ابن الفاعلة ! إنك لتعلم أن الصواب ما قلت ، ولكنك حكمت لمن يؤثرها أمير المؤمنين .

وغنت حبابة أمام يزيد :

لعمرك إنني لأحب ســـلعـًا ... لرؤيتهـــا ومن بجنوب سلع[1]
تقـــر بقربها عينى وإنى ... لأخشى أن تكون تريد فجعى
حلفت برب مكة والهـــدايا ... وأيدى الســـابحات غداة جمع
لأنت على التّنائى فاسمعيـــه ... أحب إلى من بصرى وسمعى

---

(١) اسم موضع .

ثم تنفست تنفساً شديداً ، فقال لها : أنت فى ذمة أبى لا! لئن شئت لأنقلنه إليك حجراً حجراً ! قالت : وما أصنع به ! ليس إياه أردت إنما أردت ساكنه !

وقال يزيد يوماً لحبابة وسلاّمة : أيتكما غنتنى ما فى نفسى فلها ما تطلب، فغنت سلاّمة فلم تصب ، وغنته حبابة بشعر ابن قيس الرقيات :

خلقٌ من بنى كنانة حولى     بفلسطين يسرعون الركوبا
هزئت أن رأت مشيباً برأسى     لا تلومى ذوائبى أن تشيبا

فأصابت ما فى نفسه ، فقال لها يزيد : ما تطلبين ؟

فبلغ من دلال حبابة أن قالت : تهبنى سلاّمة ! ! قال يزيد : اطلبى غيرها ! قالت وهى ومالها ! قال : هى ومالها لك ! فجزعت سلاّمة ! إذ كيف يهبها الخليفة لجارية مثلها ؟ وأية جارية ؟ لحبابة زميلتها فى الصغر والصبا وتلميذتها التى كانت تتعلم على يديها فى دار جميلة ! وراحت سلاّمة تعاتب حبابة ، فقالت : يا أختى ! أنا لا أنسى فضلك ولا أنكر صداقتك ، إنما أردت الدعابة فلا تخشى شيئاً !

وكانت تتردد على يزيد قبل خلافته مُغنِّية عجوز تسمى « أم عوف » فذكرها لحبابة فراحت تداعبه بهذا البيت :

أبى القلب إلا أم عوف وحبها     عجوزاً ومن يحببْ عجوزاً يفند

فكان كلما جلس مع حبابة إلى الشراب قال لها : غنينى غناء أم عوف !

* * *

موت حبابة :

قالوا فى سبب موتها : نزل يزيد بن عبد الملك مع حبابة ببيت راس الشام فقال لها : زعموا أنه لا تصفو لأحد عيشة يوماً إلى الليل حتى يكدرها عليه

مكدر ! وأنا أستطيع أن أقضى معك هذا اليوم دون ما شىء يكدر صفونا ، وسأجرب ، ثم قال لمن معه من بطانته : إذا كان غد فلا تخبرونى بشىء . ولا تأتونى بكتاب ، ولا تستشيرونى فى أمر مهما كان شأنه ، قالوا : نعم ، وأحضِر لهما الشراب والطعام ، وبينا حبابة تأكل رمانة إذ شرقت بحبة منها فماتت . . . !

هذا ما قالوا فى سبب موتها ، وما مِن رواية أخرى تخالف هذا القول ! إذن لقد ماتت حبابة بحبة من الرمان ! فما حال يزيد ؟ قالوا : إنه أقام بجانبها لا يدفنها ثلاثة أيام وهو يشم رائحتها ويرشفها حتّى تغيرت . . ! فعابوا عليه ذلك ، فأمر بدفنها وأقام على قبرها يندبها متمثلاً بقول كثير :

فإن يسل عنك القلب أو يدع الصبا فباليأس نسلو عنك لا بالتجلد

فما عاش بعدها خمس عشرة ليلة حتّى دفن إلى جانبها !

وقالوا : لما ماتت حبابة جزع يزيد عليها وأطرق أياماً وهو ضارب بذقنه على صدره ما يكلم أحداً ، ثم إنه اشتاقها بعد دفنها بأيام فأمر بنبشها وإخراجها حتّى يراها ، فعَابَ الناس عليه ذلك فرجع عن رأيه ، ولكن الحنين إليها عاوده فألح فى إخراجها من القبر ، فأخرجت وقد تغير وجهها وتشوه . ! فقالوا : اتق الله يا أمير المؤمنين ! ألا ترى كيف صارت ؟ فقال : ما رأيتها قط أحسن منها اليوم ! !

وعاش يزيد بعدها أياماً ، فكان يتسلى بجُويرية لها تحدثه وتؤنسه فبينا هو يوماً يدور فى قصره ومعه الجويرية إذ قال لها : هذا الموضع الذى كنا فيه ! فتمثلت :

كفى حزناً للهائم الصب أن يرى منــازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى وانتحب ، ومات حزناً عليها فدفن إلى جانبها فناحت عليه سلاّمة بشعر لها ذكرناه فى أخبارها .

* * *

## سلامة الزرقاء

هى إحدى جوارى « ابن رامين » وقد كان من أكبر تجار القيان فى المدينة ومن أبرعهم تخريجاً وتثقيفاً لهن ، وكان منزله مُنتدى للأشراف ومحبى الغناء كما كان عشاً للمغرمين ببعض جواريه ، وقد عرفت واشتهرت منهن سلاّمة الزرقاء وربيحة وسعدة ، ولهن فى كتب الأدب أخبار مع العشاق والمعجبين ، وكان أشهرهن فى ذلك سلاّمة الزرقاء .

قال بعض المدينيين : أتيت منزل ابن رامين فوجدت عنده جارية قد رفع ثدييها قميصَها ، لها شارب أخضر ممتد على شفتيها امتداد الطراز ! وكأنما خُطت طرتها وحاجباها بقلم ، لا يلحقها فى ضرب من ضروب حسنها وصف واصف ، فسألت عن اسمها فقيل : هى الزرقاء !

وقد اشتهر بحب الزرقاء محمد بن الأشعث القرشى ، وكان من فتيان أهل الكوفة وأدبائهم ، وظرفائهم ومن شعره وغنائه فيها :

أمسى لسلاّمة الزرقاء فى كبدى　　صدع مقيم طوال الدهر والأبد
لا تستطيع صناع القوم تشْعَبُه (١)　　وكيف يُشعب صدع الحب فى الكبد
إلاّ بوصل التى من حبها انصدعت　　تلك الصدوع من الأسقام والكمد

وكان ابن الأشعث كثير الاختلاف إلى دار ابن رامين ، كثير الاتصال بجواريه ، وكان ابن رامين معتزّاً بهذه الزيارات ، لأن له فيها مأرباً فى تجارته ورَفعاً لسمعته ، ولقد دخل مرة عنده فقابلته الزرقاء وبجانبها جارية لها فأعجبته فتبسم وقال :

---

(١) تشعبه : تلمه ، وهو من أفعال الأضداد .

قل لأختى التى أحب رضـــاها أنت لى — فاعلميه — ركن شديد
إن لى حاجة إليك فقـــولى بين أذنى وعاتقى ما نريد

ففطنت الزرقاء إلى قول ابن الأشعث ، فوهبت له الجارية فأخذها وخرج !

ويظهر أن صحبة تجار القيان وملازمة منازلهم والتودد إلى جواريهم كان أمرًا يعيبه أهل الكوفة ، ولا سيما إذا كان المتردد عليهم من ذوى المكانات ، فقد لام ابن الأشعث قومُه فى ملازمة الزرقاء وقضائه الوقت فى دار ابن رامين ، ولكنه لم يحفل بلومهم . . . ! ومضى فى طريقه وطالت صحبته لها ، إلى أن حدث ما كرهه فى هذه الزيارات ، فترك بيت ابن رامين وتحول إلى منزل « زُريق بن مُنيح » وكان شيخًا كريمًا نبيلاً يجتمع عنده أشراف الكوفة من كل حى ، وكانت له جارية تسمى « سحيقة » وقد قال فيها ابن الأشعث :

سحيقة أنت واحدة القيـــان فمالك مشـــبه فيهن ثان
فضلت على القيان بفضل حذق فحزت على المدى قصب الرهان

ويظهر أن ابن « رامين » قد غاظه هذا التحول فباح بسر لديه لابن الأشعث ، فقال يلومه ويمدح « سحيقة » ومولاها « زريق » :

يا ابن رامين بحت بالتصـــريح فى هوائى « سحيقة » ابن منيح
قَيْنَةٌ عفـــة ومولى كريم ونديم من اللبـــاب الصريح
رَبَعِىّ مهـــذب أريحـــى يشترى الحمد بالفعال الربيح
نحن منه فى كل ما تشتهى الأ نفس من لذة وعيش نجيح
فاسْـــل عنا كما سلوناك إنى غير سال عن ذات نفسى وروحى

ولكن ابن رامين لم يطق هذا الفراق . . . ! ولم يتحمل أن يتغزل ابن الأشعث فى غير الزرقاء ، فلم يدع شريفًا بالكوفة إلا تحمل به على ابن الأشعث ، فرجع إلى داره .

ولابن الأشعث فى الزرقاء شعر كثير غنت به ، ومنه ما غناه بنفسه ، فهو يقول فيها بعد أن اشتراها جعفر بن سليمان :

صاح إنى عاذل ما ذهبا ... من هوى هاج لقلبى طربا
أذكرتنى الشوق سلامة أن ... لم أكن قضيت منها أربا
وإذا ما لام فيهـا لائم ... زاد فى قلبى لحبى عجبا
من ذوات الدل لودَبَّ على ... جلدها الذَّر لأبدى نُدبا

ويقول :

رحبت بلادك يا أمامه ... وسلمت ما سجعت حمامه
وسقّى ديارك كلمـا ... حنت إلى السقيا غمامه
إنى وإن أقصـيتنِى ... سفها أحب لك الكرامه
وأرى أمـورك طاعة ... مفروضة حتّى القيـامه

وفيها يقول :

ما بالمغانى من أحـد ... إلا حمـامات فُرَد
أضحت خـلاء دُرَّسًا ... للريح فيهـا مطرد
عهـدى بها فيما مضى ... بنيـانها بيض جلد
فاستبدلت وحشًـا بهم ... والوُرْق تدعو والصُّرد

ويقول :

ليت من طيَّر نومى ... رد فى عينى المناما
أو شفى جسمًا سقيمًا ... زاده الهجر سـقاما
نظرت عينى إليهـا ... نظرة هاجت غـراما
تركت قلبى حزينًـا ... بهـواهـا مستهـاما

هذا بعض شعر ابن الأشعث فى الزرقاء ، وقد غُنِّىَ به حتى اشتهر أمره فى الكوفة ، وحتى إن رجلا عربيا من الحجاز قدم ليأخذ هذا الشعر وذلك الغناء فقد سمع أهله « أى الحجاز » به .

ولم نجد من أخبار الزرقاء ما يدلنا على أنها كانت تهوى ابن الأشعث كما كان يهواها ، وإنما كانت معجبة به كأديب له مكانته الاجتماعية فى الكوفة ، فهو يرفع من شأنها فى نظر الناس كما يرفع من شأن مولاها فى نظر عشاق القيان وفى أسواق التجارة بهن .

* * *

وكان من جوارى ابن رامين غير الزرقاء رُبَيِّحة وسُعدة ، وفيهن يقول إسماعيل بن عمار :

هل من شفاء لقلب لج محزون ... صَبَا وصبَّ إلى ريم ابن رامين
إلى ربيحة إن الله فضلها ... بحسنها وسماع ذى أفانين
أنت الطبيب لداء قد تلبّس بى ... من الجوى فانفثى فى فىّ وارقينى

ويقول لسعدة فى هذه القصيدة ويصف مجلس شراب :

يا سعدة القينة البيضاء أنت لنا ... أنس لأنك فى دار ابن رامين
لم أنس سعدة والزرقاء يومهما ... باللُّج(١) شرقية فوق الدكاكين
نُسقى شرابا لعِمْرَان(٢) يعتقه ... يمسى الأصحاء منه كالمجانين
إذا ذكرنا صلاة بعد ما فرطت ... قمنا إليها بلا عقل ولا دين
نمشى إليها بطاءً لا حراك بنا ... كأن أرجلنا تقلعن من طين
نمشى وأرجلنا عوج مطارحها ... مشى الإوز التى تأتى من الصين
أو مشى عميان دير لا دليل لهم ... إلا العِصىّ إلى عيد الشعانين(٣)

(١) اسم مكان . (٢) عمران بن عيسى بن طلحة . (٣) يوم عيد النصارى .

ويقول ابن عمار فيهن ويتحسر :

لابن رامين خُرَّد كمهـــا الر ... مل حسان وليس لى غير بعل
رَبِّ فضّلتـــه علىّ ولو شـــئـ ... ـتَ فضلتنى عليـــه بفضل

وروى ابن عمار نفسه قال : كنت أختلف إلى منزل ابن رامين فأسمع غناء من جاريتيه الزرقاء وسعدة ، وكنت معجباً بسعدة ، وعلمت ذلك منى فكتبت إليها أشكو ما ألقى :

يا ربّ إن ابن رامين له بقـــر ... عين وليس لنا غير البراذين[1]
لو شئت أعطيتـــه مالاً على قدر ... يرضى به منك غير الخُرَّد العين
لعابد الله بيت ما مررت به ... إلا وجئت على قلبى بسكين
فإن تجودى بذاك الشيء أحى به ... وإن بخلت به عنى فزنّينى

قال : فلما قرأت الأبيات ضحكت ثم أرسلت إلىّ تقول : حاشاك من أن أزنيك . . . ولكن أسير إليك فأغنيك وألهيك وأرضيك ! وصارت إلىّ فأرضتنى بعد ذلك ! !

* * *

وكان يختلف إلى الزرقاء شخصان : أحدهما محمد بن جميل وكان يهواها وتهواه ، وثانيهما روح بن حاتم وكان معترضاً بينهما كالشجي فى الحلق ، وربما كان منافساً لابن جميل ، ولكن الزرقاء استطاعت أن تتخلص منه فى ليلة كان نائماً عندها ، إذ أخذت سرواله وهو نائم فغسلته ، فلما أصبح سأل عنه ، فقالت غسلناه . . . ففطن أنه أحدث فيه ما استوجب غسله . . . فاستحيا وانقطع عنها . وخلت بابن جميل[2] .

ولجوارى ابن رامين مجالس غنائية يحضرها الأعيان والأشراف ، فمما حكاه أبو الفرج أن معن بن أوس وروح بن حاتم وابن المقفع اجتمعوا يوماً بمجلس تغنى فيه الزرقاء وسعدة ، فما فرغت من غنائها حتى أهداها معن

---

(١) جياد صغيرة . (٢) أغانى ج ١٣ ص ١٢٩ .

بدرة[1] فصبت بين يديها ، وكذلك فعل روح بن حاتم ، أما ابن المقفع فقد كتب لها صكاً بضيعته !

* * *

عبث ودعابة . . . !

كان منزل ابن رامين مصيدة للكسب واختلاب عقول المعجبين بجواريه ولا سيما الزرقاء ، قيل إن قوماً من أشراف الكوفة اجتمعوا عندها يوماً وهى تغنيهم وقد لبست إزاراً ورداء موردين كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفيها ، وبينا هى تغنيهم طرقهم طارق فقالت الزرقاء : من ؟ قالت جاريتها : « يزيد بن عون » الصيرفى الملقب بالماجن ، فأذنت له . . . فلما استقبلها أقعى بين يديها ثم أخرج من جيبه لؤلؤتين وقال : انظرى يا زرقاء ، جُعلت فداك ! ثم حلف أنه اشتراهما بأربعين ألف درهم ! قالت الزرقاء : وما شأنى بشرائهما ؟ قال : أردت أن تعلمى ! فغنت صوتاً خلبت به لب الماجن ، ثم قالت : يا ماجن ، هبهما لى ويحك ! قال : قد فعلت إن شئت ! قالت : شئت ، قال : علَىَّ أن تأخذيهما بشفتيك من شفتى ! ! فتسرع « روح بن حاتم » وتضايق من هذا العرض واستاء من القبول ، قال الماجن دَعْهُنَّ ! فإنما يتكسبْن من هذا ! قيل : فخرج ابن رامين وترك القوم ! قالت الزرقاء : قبلت ! فمشى الماجن على يديه وركبتيه واللؤلؤتان فى فمه وقال للزرقاء : هاك ! فلما أقدمت عليه بشفتيها جعل يصد عنها يميناً وشمالاً ليستكثر من ملاعبتها . . . ! فغمزت الزرقاء جارية كانت على رأسها فخرجت ، واندفعت هى إلى الماجن وأمسكت بمنكبيه حتى أخذت اللؤلؤتين بفمها من فمه ! وتوجهت إليه قائلة : المغبون مقهور ! ! قال : ما أبالى ! لا يزال طيب رائحتك فى أنفى وفمى أبداً ما حييت !

---

(١) عشرة آلاف درهم .

ومن المداعبات والعبث ما روى أن قوماً كانوا يستمعون الغناء فى منزل ابن رامين وبينهم رجل قرشي ، وقام ذلك القرشي لقضاء حاجة وترك مِطْرَفه فلبسته سعدة وقد خاطته فصار درعًا ، فلما رجع القرشي ورآه عليها ضحكت وقالت : أرأيتم أسرع من هذا ؟ صار المطرف درعًا ! قال القرشي : هولك !

وكان عليه طيلسان حريرى فأراد قضاء ضرورة فلف نفسه به وهَمّ بالخروج ، فقالت له سعدة : دع طيلسانك حتى تعود ! قال : أخاف أن يتحول مطرفًا !

هذه مداعبات أريد بها الكسب ، وهؤلاء التجار وجواريهم جماعات متكسبة بالحيل والطرق اللطيفة ، ولو أدى ذلك إلى شيء من التضحيات !

* * *

وتهافت كثير من العظماء على شراء جوارى ابن رامين ، فاشترى جعفر بن سليمان « سلاّمة » بثمانين ألف درهم ، واشترى محمد أخوه « ربيحة » واشترى معن بن زائدة « سعدة » .

قيل : لما اشترى جعفر بن سليمان سلاّمة الزرقاء ، أخفى أمرها عن أبيه ، وكان أبوه يومئذ واليًا على البصرة فى خلافة المنصور ، وكان عبد الله بن على ثائرًا ، ويومًا هجم عليه أبوه ، والزرقاء عنده فخبأها مع عودها تحت السرير . ! فقال له : ويحك ! نحن فى شدة وكرب وقد هجم علينا الأعداء وأنت تشترى الزرقاء بثمانين ألف درهم وتختلى معها للغناء والعبث ؟ فأخرج الزرقاء إليه ، فقامت وقبلت يده ورأسه ، وأعجب بها لما رأى من عقلها وفصاحتها وخفة روحها . ! فتركهما وانصرف ولم يعد إلى عتاب ابنه مرة أخرى !

وكان جعفر بن سليمان شديد الحب والغيرة على الزرقاء .

سألها يومًا : هل ظفر منك أحد ممن كان يهواك بخلوة أو قبلة ؟ فخشيت إن هى أخفت عنه شيئًا أن يعلمه بعد ، فقالت : لا والله ! إلا

يزيد بن عون الصيرفى . ! فإنه قبلنى وقذف فى فىّ لؤلؤة بعتها بثلاثين ألف درهم . . . فاغتاظ جعفر ولم يزل يحتال عليه إلى أن وقع فى يده فضربه بالسياط حتّى مات !

ولم ينس سليمان أبو جعفر لقاءه الأول للزرقاء عند ابنه ، فأتاه يومًا ليراها فأخرجها إليه فأقبل عليها باسمًا وقال لها : غنينى قول النعمان بن بشير :

إذا ما أم عبد الا ه لم تحلل بواديه
ولم تشف سقيمًا هيّـ ـج الحزن دواعيـه
غـزال رابه القنّـا ص تحميه صياصيه[1]
عرفت الربع بالإكليـ ـل عفّته سـوافيه
بجو ناعم الحوذا ن ملتف روابيـه
وما ذكرى حبيبًـا و قليـلا ما أواتيـه ؟
كذا الخمر تمنّاها وقد أسرف سـاقيه

فطرب وقال : ما أخطأ ابنى فى حبك وشرائك !

---

(١) الصياصى : الحصون .

# بَصْبَص !

جارية من جوارى المدينة ، وكانت لرجل يدعى « يحيى بن نفيس » وقد كان صاحب جوار كثيرات يعلمهن ويعرضهن للغناء والتجارة ، وقد أخذت الغناء عن ابن سريج ومعبد وأمثالهم من الطبقة الأولى للمغنين .

وكان لابن نفيس قصر عجيب يجتمع فيه أشراف المدينة لسماع الغناء من « بصبص » وممن كان يغشى هذا القصر محمد بن يحيى وعبد الله بن يحيى وعبد الله بن مصعب وغيرهم ، وقد وصف أحد الشعراء قصر بن نفيس بقصيدة جاء فيها :

شاقنى الزائرات قصر نفيس ... مثقلاتِ الأعجاز قُبَّ البطون

وقد أعجب فتيان قريش « ببصبص » وافتتنوا بها حتى إن منهم من اشتهر بحبها والهيام بها!

مرّ أبو جعفر المنصور بالمدينة عائداً من الحج فأقام بها أياماً ، ثم غادرها دون أن تتوق نفسه لسماع المغنين والمغنيات بها ، فقال عبد الله ابن مصعب :

أراحل أنت أبا جعفـــر ... من قبل أن تسمع من بصبصا
هيهات أن تسمع منها إذا ... جاوزت العيس بك الأعوصا[1]
فخذ لديها مجلسى لـــذة ... ومتعة من قبـــل أن تشخصا
أحلف بالله يميناً ومن ... يحلف بالله فقد أخلصا
لو انها تدعو إلى بيعـــة ... بايعتهـــا ثم شققت العصا !

(١) اسم مكان .

فلما بلغت الأبيات المنصور غضب ، ودعا بعبد الله بن مصعب بن الزبير وقال : أمَا إنكم يا آل الزبير قديمًا ما قادتكم النساء وشققتم معهن العصا حتى صرت أنت آخر الحمقى تبايع المغنيات ، فدونكم يا آل الزبير وهذا المرتع الوخيم . . . !

ولكن ابن الزبير لم يرتدع بكلام المنصور فشق العصا فعلاً ، وغدا مصطبحًا[1] مع بصبص وهي تغنيه شعرًا له :

إذا تمردت صُراحيــة كمثل ريح المسك أو أطيبُ
ثم تغنّى لى بأهزاجه زيد أخو الأنصار أو أشعب
حسبت أنى مالك جالس حفت به الأملاك والموكب
فلا أبالى وإلـهِ الـورى أشرّق العـالم أم غـرَّبوا ؟

وبلغ هذا الغناء المنصور فقال : العالم لا يبالون كيف أصبحتَ ولا كيف أمسيت ! !

وقد كان المنصور يكره الغناءِ أشد الكراهة ، ويحب الحداء[2] أشد الحب ، وقد أثر عنه أنه قال وقد اعتزم السفر : يعجبنى أن يحدو بىَ الحادى الليلة بشعر « طريف العنبرى » فهو آلف فى سمعى من غناء « بصبص » ، فأحضر له حاد معروف فسأله المنصور : ما بلغ من حسن حدائك ؟ قال الحادى : إذا حدوت وضعت الإبل رءوسها من حسن صوتى ، ولقد تعطش ثلاثة أيام إلى خمسة وتمر بالماء فلا تقر به ! وسار المنصور براحلته ليلاً فحدا به الحادى وتغنى بهذه الأبيات :

إنى وإن كان ابن عمّى كاشحًا لمزاحم من دونــه ووراءه
وأمده نصرى وإن كان امرأً متزحزحًا فى أرضــه وسمــائه
وأكون مأوى سره وأصــونه حتى يحق علىّ يوم أدائه
وإذا أتى من غيبة بطريقه لم أطلــع ماذا وراء خبائه

---

( ١ ) يشرب الخمر فى الصباح . ( ٢ ) غناء يردده حادى الإبل فى الأسفار .

وإذا تحيَّفت الحوادث مـاله قرت صحيحتنا إلى حَوْبائه
وإذا تريَّش فى غنـاه وفَرته وإذا تصعلك كنت من قرنائه
وإذا غدا يوماً ليركب مركبـاً صعباً قعـدت له على سِيسائه[1]

فأعجب المنصور وطرب بهذا الحداء وقال : : هذا شعر والله لأحَثّ على المروءة وأشبه بأهل الأدب من غناء بصبص .

فلما أصبح قال : يا ربيع ! أعط الحادى درهماً ! قال الحادى وقد صعق : يا أمير المؤمنين ، حدوت بهشام بن عبد الملك فأمر لى بعشرين ألف درهم وتأمر لى أنت بدرهم ؟ ! ! قال المنصور : إنا لله ! ذكرت ما لم نحب أن تذكره ووصفت رجلاً ظالماً أخذ مال الله من غير حله وأنفقه فى غير حقه . . . ! يا ربيع ، اشدد يديك به حتى يرد المال ! فبكى الحادى وقال : يا أمير المؤمنين ، قد مضت هذه السنون وقضيت به الديون وتمزقته النفقات ! ولا والذى أكرمك بالخلافة ما بقى عندى منه شىء . . . فلم تزل الشفاعات تأتى إلى المنصور فى الرجل حتى عفا عنه وشرط عليه أن يحدُوَ به ذاهباً وراجعاً ولا يأخذ منه شيئاً . . . ففعل الحادى وأمْرُه إلى الله . . . !

هذا هو شعور المنصور نحو الغناء عامة وغناء بصبص خاصة ، وهذا هو بخله بل حرصه فى العطاء . . . ! ولا عجب فهو الرجل الذى أسس ملك العباسيين الذى أتوا من بعده فبعثروا باليمين وبالشمال وبدون قدر أو حساب . . . !

* * *

وكانت بصبص بين جوارى ابن نفيس كسَلاَّمة الزرقاء بين جوارى ابن رامين ، لقد كانت أنفس جواريه وأحسنهن غناء وأجملهن وجهاً وجسماً ، كما كانت ذكية محدثة بارعة ، تفهم الأدب وتجيد المطارحة

---

(١) السيساء : فقرات الظهر .

وتتذوق الشعر وتقف على مواضع الجمال فيه ، لذلك كانت قطب الدائرة الذى يدور حوله زُوّار ابن نفيس ومحبو الغناء وعشاق المنادمة واللهو حتّى كثُر عشاقها والمتنافسون عليها . . . !

حدثوا أن محمد بن عيسى الجعفرى هوِىَ « بصبص » وهام بها وطال ذلك عليه ، ولقد شغل بها حتّى نسىَ نفسه وأهمل أمره ، كل هذا والجارية عنه مشغولة بفنها وإشباع المعجبين بها كل بما يليق به من لقاء وحديث ، واستاء الجعفرى وكبر عليه أمره ، وشق على نفسه أن يتفانى فى حب جارية مغنية ، فعزم أن يتسلى عنها ويسلوها ويكاشفها بما اعتزم .

ذهب إليها يوماً وقال لها : أتغنين :

وكنت أحبكم فسلوت عنكم ... عليكم فى دياركم السلام ؟

ولكنها كانت ذكية خبيثة . . . ! فقالت : لا ، ولكن أغنى :

تحمـل أهلهـا عنـا فبانوا ... على آثار من ذهب العفاء

فاستحيا وزاد كلفاً بها وعشقاً لها . . . ثم قال : أتغنين :

وأخضع بالعتبى إذا كنت مذنباً ... وإن أذنبَتْ كنت الذى أتنصّل ؟

قالت : نعم . . . وأغنى أحسن منه :

فإن تقبلوا بالود نقبلْ بمثله ... ومنزلكم منـا بأقرب منزل

* * *

وحدث الحسين بن الضحاك قال : « كان يألفنى رجل من جند الشام عجيب الخلقة والزى والشكل ، غليظ جِلف جاف ، فكنت أحتمل ذلك كله فى سبيل التعجب به والسخرية منه ، وكان يأتينى بكتب من عشيقة له ، ما رأيت كتباً أحلى منها ولا أظرف ولا أبلغ ، ويسألنى أن أجيب عنها ، فأجهد نفسى فى الرد عليها بمثلها .

وكنت أعلم أن هذا الشامى بجهله لا يميز بين الخطأ والصواب ، ولا يفرق بين الابتداء والجواب ، فلما طال ذلك عليّ حسدتُه واستعظمت هذه العشيقة عليه ، فعزمت على إفساد الأمر بينها وبينه ، فسألته عن اسمها فقال « بصبص » فكتب إليها على لسانه هذه الأبيات :

أرقصنى حبــك يا بصبص والحب يا سيدتى يرقص
أرمَضْتِ أجفانى بطول البكا فما لأجفانك لا ترمَص
وَا بأبى وجهُك ذاك الذى كأنه من حسنه « عُصْعص »

فجاءنى بعد ذلك فقال : يا أبا على ! ما كان ذنبى إليك ؟ قلت : عافاك الله ، ما بك ؟ قال :

أرسلَتْ إلىّ « بصبص » تدعونى للقائها فإنها مشتاقة لرؤيتى وقالت لى : قف بموضع كذا قريبًا من بابنا ، فتزينت بأحسن زينة ، وصرت إلى الموضع فوقفت أنتظر مكلمًا أو مشيرًا ، وإذا شيء قد صُبّ عليّ فملأنى من قرنى إلى قدمى ، وأفسد ثيابى وصيرها فى نهاية السواد والنتن . . . ! فرجعت وأنا أضحوكة الناس والصبيان تصيح خلفى ، ومن ذلك الحين انقطعت عنها رسائلى !

قال الحسين : فضحكت وخففت عنه وقلت له : لعلها لم تفهم الشعر لجودته . . . ! أو لأن شكلك لا يكون معينًا لمثل هذا الشعر . . . !

* * *

وحضر أبو السائب المخزومى مجلس غناء لبصبص وقد راحت تغنى :

قلبى حبيس عليــك موقوف والعين عبرى والدمع مذروف
والنفس فى حسرة بغصتهــا قد شــفّ أرجاءها التساويف
إن كنت بالحسن قد وُصِفت لنا فإننى بالهــوى لموصوف

يا حسرتا حسرةً أمـوت بها إن لم يكن لى لديك معروف

فطرب المخزومى ونعر وقال : ألا عرفَ لله قدرَه إن لم أعرف لك معروفك ! !
ثم أخذ قناعها عن رأسها وجعل يلطم ويبكى ويقول : بأبى والله أنت ! إنى لأرجو أن تكونى عنده أفضل من الشهداء . . . ! وصاح : واغوثاه ! يا لله لما يلقى العاشقون ! !

وهكذا ينُزل عشاقُ الغناء أمثالَ بصبص منزلة فوق الشهداء . . . !

* * *

وكان فتيان قريش مفتونين بغناء بصبص ، وكثيرًا ما يغشون مجالسها ، وكان فيهم فتى مدله بها ، وسألته بصبص أن يقضى لها حاجة فقام لقضائها فنسىَ نعله وخرج حافيًا . . . ! فقالت له : نسيت نعلك ، فعاد فلبسها وقال :

وحبك يلهينى عن الشىء فى يدى ويشغلنى عن كل شىء أحاوله

فأجابته بصبص :

وبى مثل ما تشكوه منى وإننى لأشـفق من حب أراك تزاوله

* * *

ولبصبص دعابات مكشوفة كما كان لسلامة الزرقاء . ذكروا أنه اجتمع عندها ذات يوم عبد الله بن مصعب ومحمد بن عيسى الجعفرى صاحب الهوى فيها وقوم من أشراف المدينة وفضلائها ، فتذاكروا مزيدًا المدنى . . . ونوادره العجيبة فى البخل ، فقالت بصبص : أنا آخذ لكم منه درهمًا ! قال مولاها : أنت حرة إن فعلت ولم أشتر لك مخنقة[1] بمائة ألف دينار وثوبًا موشًى بما تشائين ، وأجعل لك مجلسًا بالعقيق أنحر لك فيه بدنة لم تقتب[2] ولم تركب . . . ! قالت : جئ به وارفع عنى الغيرة ! قال : أنت حرة ! ولو رفع منك ما يشاء لأعنته على ذلك ! !

---

(١) نوع من العقود . (٢) كناية عن صغرها وإعزازها .

قال ابن مصعب : فصليت الغداة بمسجد المدينة فإذا أنا بمزيد المدنى فقلت له : يا أبا إسحاق ! أما تحب أن ترى « بصبص » ؟ قال : امرأته طالق إن لم أكن أدعو الله ليلاً ونهاراً أن يرينيها منذ سنة . . . ! قلت : إذا صليت العصر فوافنى فإنك تراها اليوم ! قال : امرأته طالق إن برحتُ من هنا حتى تجىء صلاة العصر ! قال ابن مصعب : فانصرفت لحوائجى حتى كان العصر فقصدت المسجد فوجدته فيه ، فأخذت بيده ودخلت به على القوم وبصبص بينهم ، فأكل الجميع وسكروا وتناوموا ، فأقبلت « بصبص » على مزيد وقالت : أبا إسحاق ! كأنك تشتهى أن أغنيك الساعة :

لقد حثوا الجمال ليهربوا منا فلم يئلوا[1] ؟

فقال : زوجته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى اللوح المحفوظ ! فغنته ساعة ثم قالت : أبا إسحاق ! كأن فى نفسك أن تقوم من مجلسك فتجلس إلى جانبى فتقرصنى قرصات وأغنيك :

قالت وأبثثتها وجدى : أبحت به قد كنتَ قِدما تحب السّتر فاستتر
ألست تبصر مَن حولى فقلت لهـا غطى هواك وما ألقى على بصرى ؟

فقال : امرأته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى الأرحام وما تكسب كل نفس غداً وبأى أرض تموت ؟ فغنته ساعة ثم قالت : أبا إسحاق ! أنا أعلم أنك تشتهى أن تقبلنى وأغنيك :

أنا أبصرت باللـيـل غلاماً حسن الدل
كغصن البان قد أصـ ـبح مسقياً من الطل

فصاح : أنت نبية مرسلة ! فقبلها وغنته ثم قالت : أبا إسحاق ! أرأيت أسقط من هؤلاء القوم ؟ يدعونك ويخرجونى إليك ولا يشترون ريحانـاً

---

(١) لم يلجئوا .

بدرهم ! أبا إسحاق ! هلم درهمًا نشترى به ريحانًا ! فما سمع « مزيد » لفظ الدرهم حتى وثب واقفًا وصاح : وامصيبتاه . . . ! يا زانية . . . ! أخطأت الهدف . . . وأسرع فخرج مهرولاً ولم يعد . . . فصاح القوم وعلموا أن حيلتها لم تنفع وأنها خسرت المعركة[١] . . . !

* * *

تلك رواية عن بعض ألوان العبث فى مجالس الغناء ! ترى ما نصيبها من الصدق ؟ أنا أجيزها بحذافيرها ، والقارئ كثيرًا فى كتب الأدب ولا سيما الكتب التى تعنى بالأخبار لا يجد فى هذه النادرة شيئًا من الإسراف إذا أضافها إلى غيرها من الأخبار الغريبة ، على أن النادرة ليس فيها شىء غير عادى إلا ما بدا من مزيد المدينى من الهوس والانحراف والإسفاف فى التعبير ، ولكن الرجل قد عبر عن طبيعته أصدق تعبير ، ومن الناس من لهم تلك الطباع ، فهم غير متماسكى الشخصية ، يبعثرون الكلام فى حدة وطيش وتهويل وعدم مبالاة ، وإذا كان مزيد قد رسم لنا شخصيته فى هذا الهراء فقد رسمت بصبص شخصيتها واضحة كجارية محترفة فيها مواهب ابنة الأسواق ! تعرف كيف ترضى كل من يعرفها ، وكيف تجتذب إليها أكثر عدد من المعجبين كما يجتذب العسل الذباب !

وقد قال ابن أبى الزوائد فى بصبص :

بصبص أنت الشمس مزدانة ... فإن تبدلت فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا ... فيما مضى كان يكون الجمال
إذا دعت بالعود فى مشهد ... وعاونت يمنى يليها الشمال
غنت غناء يستفز الفتى ... حذقًا ، وزان الحذق منها الدلال

---

(١) أغانى جـ ١٣ ص ١١٧ .

وهجا غُرَير بن طلحة مولاها فقال :

يا ويح بصبص من حى لقد رزقت وجهاً قبيحاً وأنفاً من جعاميس[1]
يَمُجّ من فيه فى فيها إذا هجعت ريقاً خبيثاً كأرواح الكرابيس[2]

وقالوا عن بصبص : إن المهدى قد أعجب بها فاشتراها سراً فى خلافة أبيه وحجبها عنه فولدت له « عُلية بنت المهدى » المغنية الشاعرة المعروفة .

وقالوا : إن أمّ علية هى « مكنونة » جارية المروانية ، وكانت أحسن جارية بالمدينة ، وقد اشتهرت بجمال الصدر والبطن ، فاشتريت للمهدى فى خلافة أبيه بمائة ألف درهم . . . ! وقد قالت عنها الخيزران : إن المهدى ما ملك جارية أغلظ علىّ منها ! !

وأنا أميل إلى أن « بصبص » هى أم علية بنت المهدى لجملة اعتبارات ، منها أن المهدى قد اشتراها قَطْعاً ، وأن علية كانت مغنية حاذقة ! فهى تشترك وبصبص فى هذا الفن ولم يعرف لمكنونة غناء ، على أن هذه رواية ابن خرداذبة وهو معروف بالدقة والتمحيص !

---

(١) جمع « جعموس » وهو لفظ مولد ومعناه الرجيع .
(٢) الثياب الخشنة .

# ذات الخال

جارية فتنت إبراهيم الموصلي فغدا بها مجنونًا ، وهي لرجل يدعى « قرين » ويكنى « أبا الخطاب » وهو مولى للعباسة بنت المهدى ، اعتنى بها أبو الخطاب فثقفها وتلقت الغناء عن كبار المغنين إذ ذاك ، وممن تلقت عنهم إبراهيم الموصلي فافتتن بها ، فحجبها سيدها عنه فلم يعد يراها ، فقال فيها هذا الشعر وغناه :

ما بال شمس أبي الخطاب قد حجبت ... يا صاحبيَّ لعل الساعة اقتربت ؟
أولا ، فما بال ريح كنت آنسها ... عادت إليَّ بصدٍّ بعد ما جنبت ؟
إليك أشكو أبا الخطاب جارية ... غريرة بفؤادى اليوم قد لعبت
وأنت قيِّمها فانظر لعاشقها ... يا ليتها قربت مني وما بعدت

وقد عرفت بالجمال والدلال ومواهب الإغراء ، وكان اسمها الحقيقي « خَنَث » أو « خَشَف » وإنما سميت « ذات الخال » لوجود خال على شفتها العليا زادها فتنة وسحرًا ! وزادتشبيبه بها فشهرها بشعره حتى تضايق مولاها فاستعدى عليه الرشيد ، ولست أدرى كيف يغضب أبو الخطاب من شاعر مغن كإبراهيم الموصلي شبب بجاريته فأعلى من قدرها ورفع من مكانتها ؟ ولقد كان ملاك الجوارى يفخرون حين تكون جارية من جواريهم موضع أحاديث القوم ، ووحيًا لخيال الشعراء وفيضًا لألحان المغنين ، بل إن منهم من كان يسعى جهده لينال هذا الفخر ، ويصنع الشفاعات ويبذل ماء وجهه فى تلمس زيارة شريف أو شاعر أو مغن داره والحديث إلى جواريه ، فإذا كان من تجار القيان فقد كسب المال العظيم ، وإذا كان من عشاق حيازتهن فقد كسب الجاه والسمعة وإعجاب الناس !

وما أشك — وحال أبى الخطاب هذه مع إبراهيم — إلا أنه عاشق لجاريته : مفتون بها ، ويبدو حرمان إبراهيم من ذات الخال فى أبياته تلك :

أذات الخال أقصيتِ محبًّا بكمُ صبَّا
فلا أنسى حياتى ما عبدت الدهر لى ربَّا
وقد قلت أنيليني فقالت أقرفِ الذنبا

ويتوجع إبراهيم فى هذه الأبيات ويتغنى بها :

أذات الخال قد طالَ بمن أسقمته الوجع
وليس إلى سواكم فى الـ ـذى يلقى له فـزع
أما يمنعك ذا الإسلا م من قتلى ولا الورع ؟
وما ينفك لى فيك هوى تفتره خُدَع

وفيها يقول إبراهيم ويغنى به :

فَمن يرحم مجنونا بذات الخال مفتونا ؟
أبى فيها فما يسلو وكل الناس يسلونا
فقد أودى به السقم وقد أصبح مجنونا
فإن دام على هذا ثوى فى اللحد مدفونا

وله وقد برح به الشوق :

لذات الخال أرقنى خيال بات يلثمنى
بكى وجرى له دمع لما بالقلب من حزن
فلا أنساه أو أنسى إذا أدرجت فى كفنى

وقالوا : كان ابن زيدان صاحب البرامكة فى دار إبراهيم الموصلى يلاعبه الشطرنج، إذ دخل عليهما إسحاق بن إبراهيم فقال له أبوه : ما أفدتَ اليوم ؟ قال إسحاق :

سألنى رجل : ما أفخم كلمة فى الفم ؟ قلت : لا إله إلا الله ، قال له أبوه : أخطأت هلا قلت : دنيا ودينا . . . ! فأمسك ابن زيدان قطعة من الشطرنج وشج بها رأس إبراهيم ، وقال له يا زنديق ! أتكفر بحضرتى ؟ فاغتاظ إبراهيم وأمر غلمانه فضربوه ؟ فانصرف ابن زيدان إلى جعفر بن يحيى فحدثه الخبر ، وما علِم إبراهيم حتى راح يستعطف الفضلَ بن يحيى فشفع له عند أخيه فانصرف وهو يقول :

إن لم يكن حب ذات الخال عنّانى إذا فحولت عن دار ابن زيدان
فإن هذى يمين ما حلفت بها إلا على الصدق فى سرى وإعلانى

* * *

اشتهرت ذات الخال وتحدث عنها الأشراف والمغنون وأهل العراق بسبب شعر الموصلى فيها وغيره ، فبلغ خبرها الرشيد فاشتراها بسبعين ألف درهم ، وكانت إحدى جواريه الثلاث اللواتى فُتِن بهن وعُرِف بحبهن وهن « سِحر وضياء وذات الخال » أو خِنث وفيهن يقول الرشيد :

إن سحراً وضياء وخنث هن سحر وضياء وخنث
أخذت سحرٌ — ولا ذنب لها — ثلثَى قلبى وتِرباها الثلُث

إذن « فسحر » كانت أحبهن عند الرشيد وأكرمهن منزلة ، ويظهر أنه ما كان يعرضها للغناء فى مجالسه العامة ، بل كانت لنفسه وقلبه خاصة ، فلم يشتهر أمرها شهرة « ذات الخال » ولم يتهافت عليها الشعراء والمغنون كعباس بن الأحنف وإبراهيم الموصلى .

اشترى الرشيد « ذات الخال » فنعم بها وبغنائها ، ويظهر أنه مال إليها ميلاً شديداً حتى طغى حبها عليه ، ولكن الغيرة العنيفة التى عرف بها الرشيد على من أحب نَغّصَت عليه سعادته بذات الخال وأقلقت باله . . . !

سألها يوماً فى مجلس شراب معها ، وقد شدّد عليها أن تَصدق :

أكان بينك وبين إبراهيم الموصلى شىء ؟ فأطرقت ذات الخال وتلكأت ، ثم قالت فى خوف وفزع ! أجل . . ! مرة واحدة . . ! فأقصاها عنه ونقص من قدرها .

وقالوا إنه قال يوماً لجلسائه : أيكم لا يبالى أن يكون « كُشخاناً[1] » حتى أهب له ذات الخال ؟ فصمت القوم ! ولكن وصيفه « حَمَوَيه » قال : أنا ، فوهبها له !

فاغتم إبراهيم وتأذّى وقال فيها وغنّى :

أتحسب ذات الخـال راجية ربّاً   وقد سلبت قلباً يهيم بها حبّاً
وما عذرها ؟ نفسى فداها ولم تدع   على أعظمى لحماً ولم تبق لى لبّاً

فاز « حمويه » الوصيف « بذات الخال » ولكن الرشيد لم يطق بعدها عنه فاشتاقها يوماً فقال له : ويلك يا حمويه ! وهبناك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك ؟ قال حمويه : وما تأمر يا أمير المؤمنين ؟ قال الرشيد : نحن عندك غداً !

فمضى حمويه وزين الجارية بجواهر قيمتها اثنا عشر ألف دينار استأجرها من بعض الجوهريين ، ثم أخرجها إليه وقد لعب الشراب برأسه ، فلما أبصرها الرشيد قال : ويلك يا حمويه ! من أين لك هذا وما وليتك عملاً تكسب منه مثل هذا ؟ ولا وصل إليك منى مثل هذا القدر ؟ فصدقه الخبر ، فبعث الرشيد فى إحضار أصحاب الجوهر فاشتراها منهم ووهبها لذات الخال ، ثم حلف ألاّ تسأله فى يومه هذا أمراً إلا قضاه ! فسألته أن يولى حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل . . . !

وحدثوا أنه كان لذات الخال دالة على الرشيد قبل أن يهبها . . . دعته إليها يوماً فوعدها أن يصير إليها فى مقصورتها ، وبينا هو إليها اعترضته جارية أخرى أغرته فدخل عندها . . . ! وشق ذلك على ذات الخال فأقسمت

(١) عديم الغيرة .

أن تغيظه . . . ! قيل : إنها دعت بمقراض فقصت الخال الذى فى خدها . . .
وبلغ ذلك الرشيد فشق عليه ذلك وجزع ثم استدعى الفضل بن الربيع وقال له : انظر من بالباب من الشعراء ؟ فقال الفضل : العباس بن الأحنف ، قال : أدخله ، فأدخله وقص الرشيد عليه الخبر وقال له : اعمل فى هذا شعرًا فقال :

تخلصت ممن لم يكن ذا حفيظة   وملت إلى من لا يغيره حال
وإن كان قطع الخال لما تعطفت   على غيرها نفسى فقد ظُلم الخال

فشرب المنصور وطرب على هذا الشعر وغنائه ، وقام إلى ذات الخال فترضَّاها وأمر للعباس بن الأحنف بألفى دينار ! !

ومن شعر العباس بن الأحنف فى ذات الخال :

ألا ليت ذات الخال تلقى من الهوى   نظير الذى ألقى فيلتئم الشعب
إذا رضيت لم يهنّى ذلك الرضـــا   لعلمى به أن سوف يتبعه عتب
وأبكى إذا أذنبت خوف صدودها   وأسألها مرضاتها ولها الذنب
وصالكم صــرم وحبكم قلى   وعطفكم صــد وسلمكم حرب

* * *

تلك ذات الخال بين الرشيد والموصلى والعباس بن الأحنف ، وتلك وجيعة كل منهم ، ولعلها كانت أبرع جوارى الرشيد لا فى الغناء وحده ، ولكن فى كل شىء كامرأة . . . !

قيل : بعث الرشيد إلى جاريته « سحر » لتصير إليه فاعتات عليه ذلك اليوم بعلة ، ثم جاءته من الغد فقال الرشيد :

أيا من ردّ وُدىّ أمس لا أعطيكه اليوما
ولا والله لا أعطيك إلا الصــد واللوما
وإن كان بقلبى منــك حب يمنع النوما
أيا من سمته الوصــل فأغلى المهر والسوما

ويقول الرشيد فى جواريه الثلاث[١] :

ملك الثلاث الآنسات عنانى وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعزّ من سلطانى

حدث إسحاق أن الرشيد بعث إلى ذات الخال وقد مضى الليل إلا أقله ، فحضرت إليه فأجلسها بجانبه وقال لها : غنى ، فغنت لإبراهيم :

أما تعلم ذات الخال فوق الشفة العليا
بأنى لست أهوى غيرها شيئًا من الدنيا
وأنى عن جميع الناس إلا عنهم أعمى[٢]
وأنى لو سقيت الدهر من ريقك لا أروى

قال : فطرب الرشيد . . . ثم استأذن عليه الفضل بن الربيع فى هذا الوقت المتأخر ، فلما دخل ، قال له الرشيد : ما وراءك فى هذا الوقت ؟ قال : كل خير يا أمير المؤمنين ، ولكن جرى لى الساعة أمر لم يجز لى كتمانه ، قال الرشيد : وما ذاك ؟ قال الفضل : أخرجت الساعة ثلاث جوار لى : مكية ، وعراقية ، ومدينية . . . فجرى لى معهن ما رأيته سببًا فى سرور أمير المؤمنين فجئت به إليك[٣] . . . ! فما انتهى الفضل من قصته حتى طرب الرشيد وضحك بغير حساب . . . !

وحب الرشيد لجواريه الثلاث أمر تناقله الركبان وتحدث به الناس فى الحل والترحال ، حتى إن فتية العرب وفتياتهم كانوا يتناشدون حين حج الرشيد هذه الأبيات :

ثلاث قد حللن حمى فؤادى ويعطين الرغائب فى ودادى

---

(١) قيل إنها للعباس بن الأحنف على لسان الرشيد .

(٢) هكذا فى الأغانى جـ ١٥ ص ٨٥ . (٣) القصة من غير تحرز فى الأغانى جـ ١٥ ص٨٢.

تظمت قلوبهن بخيط قلبى  فهن قرابتى حتى التنادى
فمن يك حل من قلبى محلا  فهــن من النواظــر والسواد

* * *

وللشعراء غير إبراهيم والعباس بن الأحنف شعر كثير فى ذات الخال ، مما يشعرنا بأنها كانت جارية تتمتع بما تتمتع به المرأة الممتازة من خصائص نادرة تميل إليها القلوب وتستهوى الأفئدة . . . فكونها مغنية مجيدة ليس كافياً وحده لهذا التهافت عليها ، فسلاّمة كانت أجود منها غناء ولم نر حولها مثل هذا التهافت ، وحبابة كانت أقل جودة فى الغناء من سلامة وقد فازت بتهافت الناس ، كما فازت بقلب الخليفة يزيد . . . فما أشبه ذات الخال بحبابة . . . فى كلتيهما مواهب الأنثى وخصائص المرأة الناعمة بالإضافة إلى فن الغناء والإبداع فيه .

دخل الموصلى على الرشيد وقد طافت به الذِّكَر ، فقال له : يا إبراهيم ! هات بعض ما قلت من شعر فى ذات الخال وغنى به ، فاندفع إبراهيم يغنى :

تقول ذات الخــال لى يا خلىّ البــال
فقلت حاشاك من أن يكون حالك حالى
أعرضت عنى إذْ أوقعتنى فى الحبــال
إن الخلى هو الغــافل الذى لا يبالى

فطرب الرشيد وقال : يا إبراهيم ! فاندفع يغنى :

يا ليت شعرى كيف ذات الخال  أم أين تحسب حالها من حالى ؟
هل أنكرَتْ فمهــا وضمت مرة  رأسى إليهــا ثم قالت مالى
ألذلة أقصيتنى ، نفسى فــدا  ؤك أم أطعت مقــالة العذال ؟
والله ما استحسنت شــيئًا مُونقًا  ألتــذّه إلا خطرت ببالى

فتجهم الرشيد وقال : أصحيح هذا يا إبراهيم ؟قال : هو لك يا أمير المؤمنين..!

ثم قال الرشيد : هات وغنّى :

يا ليت شعرى والنساء غـــوادر    خُلْفُ الوُعُود بهنّ غير قليل
هل وصل ذات الخال يومًا عائد    فتزول لوعاتى وحـــر غليلى ؟
أم قد تناست عهـــدنا وإخالهـــا    عن ذاك حالت دون كل خليل

فهزّ الرشيد رأسه ، وقال : صدقت يا إبراهيم .

# عُلَيّة بنت المهدى

هذه ليست جارية من الجوارى ، ولكنها ابنة الخليفة المهدى ، وإنما نتحدث عنها بين الجوارى المغنيات لجملة اعتبارات :

١ ـ أنها مغنية من الطراز الأول ، وشاعرة موهوبة ، ولشعرها وغنائها فى العصر العباسى قيمة كبيرة وشهرة واسعة .

٢ ـ أن لها فنًّا خاصًّا فى الغناء ، فهى صاحبة مذهب غنائى سار عليه كثير من المغنين والمغنيات ، حتى إن إبراهيم الموصلى نفسه — وهو أستاذ المغنين — كان يعجبه بعض ألحانها فينتحلها لنفسه .

٣ ـ كانت عُلَيّة فنانة موهوبة ، ومغنية بالطبيعة ، فهى لم تتحشم لأنها ابنة خليفة ، كما أن غضب الرشيد والمأمون منها لاشتهارها بالغناء لم يستطع أن يخنق فنَّها أو يميته . . . ! فظهر صارخًا رغم أنفها ورغم تقاليد نسبها وحسبها !

٤ ـ يحس من يقف على أخبار علية تضايقها أو حيرتها بين وضعين ، أولهما : أنها ابنة خليفة وعمة خلفاء عظام ، وثانيهما : فن الشعر والغناء وهو جزء من تكوينها الطبيعى ، وكلاهما حارب الآخر فى نفسها وشعورها ؛ حتى تغلبت ناحية الفن فيها ، وما أحسب إلا أن خاطرًا كان يهتف فى أعماقها دائمًا : « ليتنى كنت جارية . . . ! » .

٥ ـ كان أخوها إبراهيم بن المهدى زعيمًا كبيرًا من زعماء الغناء ، وقد عاشرته وتربَّت معه فتأثرت به ، ثم ظهرت عليه فى الفنّ .

كل هذه الاعتبارات — وهى بعض التعليل — كانت الجواز الذى أباح لنا أن نذكر علية ونتحدث عنها بين الجوارى المغنيات وإن لم تكن جارية . . . !

وقد ذكرنا فى أخبار « بصبص » أنها أمها ، وأن المهدى اشتراها سرًّا فى خلافة أبيه المنصور فولدت له « علية » ، وقالوا : إن أمها « مكنونة » جارية المروانية ، وعلى أى ، فهى ابنة جارية ، وجارية مغنية .

وكانت علية شخصية ظريفة محدثة بارعة ، لها مواهب أدبية ممتازة فى صنعة الشعر وروايته ونقده ، وكان بجبينها عيب ، فكانت تستره دائمًا بالعصائب المكللة بالجواهر فتبدو رائعة فتانة ، وكانت عفيفة متدينة ، لا تغنى ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة ، فإذا طهرت أقامت على الصلاة وقراءة القرآن والأشعار ، وقد كانت مفتونة بها ، كثيرة الاطلاع عليها .

غرام عُلية . . . !

لأول مرة نسوق الحديث عن مغنية عشقت خادمًا ! وأية مغنية ؟ علية بنت الخليفة المهدى صاحبة المكانة العالية فى الأدب والفن والمجتمع . . . !

قالوا : إن علية هَوِيَتْ خادمًا للرشيد يدعى « طلّ » فكانت مفتونة به رغم الحوائل الاجتماعية ، لا تستطيع البعد عنه أو عدم رؤيته يومًا كاملاً ، ولقد كانت تراسله بالأشعار التى تفيض عاطفة صريحة ليس فيها مداراة ، كتبت إليه مرة وقد احتجب عنها فذهبت إليه زائرة :

قد كان ما كُلفتُه زمنًا ... يا « طلُّ » من وجد بكم يكفى
حتى أتيتك زائرًا عجلاً ... أمشى على حتف إلى حتف

ولعلية شعر كثير فى « طل » تحاول فى بعضه الإبهام خوف التشهير به ،

فقد تعيد الضمير عليه مؤنثًا ، وقد تعيد الضمير على نفسها مذكرًا ، وربما صَحَّفت اسمه « تنقط الحروف المهملة أو تغير نقط الحروف المعجمة حتى تظهر الكلمة كلمةً أخرى» .

فمن شعرها وغنائها فيه :

يا رب إنى قد عرضت بهجرها فإليك أشكو ذاك يا رباه !
مولاة سوء تستهين بعبدها نعم الغلام وبئست المولاه
« طل » ولكنى حرمت نعيمه ووصاله إن لم يُغثنى الله
يا رب إن كانت حياتى هكذا ضُرًّا علىَّ فما أريد سواه

كذلك من شعرها وغنائها فيه وقد صحَّفت اسمه :

أيا سروة البستان طال تشوقى فهل لى إلى ظل لديك سبيل ؟
متى يلتقى من ليس يُقضى خروجه وليس لمن يهوى إليه دخول ؟
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا فيَلْقى اغتباطًا خُـلَّةٌ وخليل

كذلك من غنائها وشعرها فى « طل » :

سلم على ذاك الغزا ل الأغيد الحسنِ الدلال
سلم عليه وقل له يا غُلَّ ألباب الرجال
خلَّيت جسمى ضاحيا وسكنت فى ظل الحجال
وبلغت منى غاية لم أدر فيها ما احتيالى ؟

ضج المجتمع العباسى من هذا الشعر وذاك الغناء ، وتحدث الشعراء والمغنون والأدباء باسم علية وطل ،وتهامس القوم فى قصر الرشيد ، فوقف على الخبر وأقسم على علية ألا تكلم « طلا » ولا تذكر اسمه بلسانها ! خافت علية من بطش الرشيد وتهيبت غضبه فوعدته بما أمر ، وخنقت عاطفتها فى نفسها وانصرفت إلى القراءة ولا سيما القرآن الكريم ، فبينا هى تقرأ يومًا فى سورة البقرة ، إذ دخل عليها الرشيد وقد بلغت إلى قوله تعالى : « فإن لم يُصبها

وابل فطلّ » فقالت : فإن لم يصبها وابل « وسكتت » ! قال لها الرشيد : أكملى الآية ! فأعادتها هكذا « فإن لم يصبها وابل فالذى نهانا عنه أمير المؤمنين» فضحك الرشيد وقبل رأسها وقال : قد وهبت لك « طلا » ولا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه . . . !

* * *

ويحدثنا الأصبهانى عن محمد بن على المعروف بالشطرنجى ، وهو شاعر علية بنت المهدى ، أنها أغرمت بخادم لها يدعى « رَشَأ » فكانت تقول الشعر فيه وتُكَنِّى عنه « بزينب » فمِمَّا قالت وغنت فيه :

وجَد الفـؤاد بزينبـا وجداً شـديداً متعبا
أصبحت من كلفى بها أُدعى سقيماً منصبا
ولقد كنيت عن اسمها عمداً لكى لا تغضبا
وجعلت زينب سترة وكتمت أمـراً معجبا
قالت وقد عز الوصا ل ولم أجد لى مذهبا
والله لا نلت المـود ة أو تنال الكوكبا

وكان لأم جعفر زوجة الرشيد جارية تدعى « طُغيان » فوشت بين علية ورشأ وأوقعت بينهما . . . ! فهجتها علية بهذا الشعر :

لطغيانَ خف مذ ثلاثين حجة جديد فلا يبلى ولا يتخرّق !(١)

وهو هجاء موجع مرير . . . !

وتقول علية فى « رشأ » وقد بلغها أنه أقسم ألاّ يشرب النبيذ سنة كاملة :

---

(١) ثلاثة أبيات آثرنا حذف البيتين الأخيرين منها .

قد ثبت الخاتم فى خنصرى إذ جاءنى منك تجنّيك
حرّمت شرب الراح إذ عفتها فلست فى شىء أعاصيك
فلو تطوّعت لعوّضتنى منه رضاب الريق من فيك
فيا لها عندى من نعمة لست بها ما عشت أجزيك
يا زينبا قد أرقت مقلتى أمتعنى الله بحبيك

وبعد . . . فقد يعجب القارئ كيف تُغرم علية بخدم الرشيد وأمامها الأشراف والأمراء والقواد والشعراء وغيرهم من ذوى المكانات الذين يليقون بها وتليق بهم ؟ والجواب أن « علية » كانت محجبة ، فهى واحدة من نساء القصور اللواتى لهن جوار وحاشية ، فلم يكن لديها من السبل ما يمكنها من مخالطة طوائف الناس كما كان لغيرها من الجوارى المحترفات وغير المحترفات فى الجوارى من أحبهن الخلفاء وتزاحم عليهن الأمراء والقواد والأشراف ! أما علية فقد عصرت قلبها وفنها لـ « طل ورشأ » . . . وتلك ظاهرة حتمية من ظواهر الكبت والتحجب ، وخاصة لفنانة شاعرة كعلية التى عاشت خمسين عامًا ولم تعرف عنها فاحشة أو ريبة ! !

* * *

علية والرشيد :

كان لعلية شاعر خاص بها هو « أبو حفص الشطرنجى » ولقد نشأ فى بيت المهدى ، ولازم علية بعد وفاة أبيها ، فكان يصنع لها الشعر فى المعنى الذى تريده بينها وبين إخوتها الخلفاء ، لذلك نستطيع أن نشك فى بعض الأشعار التى نسبت إلى « علية »ولن يكون هذا الشك داعية إلى تجريدها من صنعة الشعر ، فقد ورد لها فيه ما لا يحتمل الشك ، وما سقناه من الأشعار جميعه من صنعها ، وإنما كانت تلجأ إلى الشطرنجى فى الأمر يجدّ فلا تجد

له مخرجاً إلا بشفاعة الشعر ، فمن ذلك أن الرشيد غضب عليها يوماً فأمرت الشطرنجى أن يقول شعراً يعتذر فيه عنها إلى الرشيد ويستعطفه فقال :

لو كان يمنع حسن العقل صاحبه ... من أن يكون له ذنب إلى أحد
كانت علية أربى النـــاس كلهم ... من أن تكافا بسوء آخر الأبد
ما أعجب الشيء ترجوه فتحرمه ... قد كنت أحسب أنى قد ملأت يدى

أعجبت علية بهذا الشعر وعملت فيه لحناً وألقته على جوارى الرشيد حتّى حذقنه وغنين به فى أول مجلس من مجالسه ، فطرب وسأل عن القصة فأخبرنه ، فاستدعى علية وطيّب خاطرها وصالحها . . ! وقال : لا جرم أنى لا أغضب أبداً عليك ما عشت !

وغنت علية يوماً شعراً لأبى النجم العجلى أمام الرشيد :

تضحك عما لو سقت منه شَفَا ... من أقحوان بلّه قطــر الندى
أغر يجلو عن غِشا العين العَشا ... حلو بعينى كل كهل وفتى
إن فؤادى لا تسـلّيه الرُّقى ... لو كان عنها صاحياً لقد صحا(١)

فطرب وقام يقبلها حتّى أغمى عليها . . . !

وكان الرشيد ملهب الحس ، سريع التأثر والتقلب ، شديد الحنان كثير البكاء ، وكان كثيراً ما يأتى أموراً ارتجالية إذا وجدت دواعيها ، ثم يتنبه بعد .

حكَوْا أنه أهديت له جارية جميلة فتَنَتْه فاصطبح معها ! وقد جمع فى مجلسه كل جوارى قصره حتّى بلغن الألفين وهن مزينات بالحرير والجواهر والورود ، فهال ذلك أمّ جعفر وجزعت ، فاشتكت أمرها إلى علية بنت المهدى ، فقالت عُلية لأم جعفر : لا يهولَنَّك هذا ! فوالله لأردّنه إليك

(١) هكذا وردت الأبيات فى أخبار علية فى الأغانى .

اليوم ! فصنعت شعرًا وعملت له لحنًا وألقته على جواريها وجوارى أم جعفر حتى حذقنه ، وما جاءت صلاة العصر حتى خرجت علية وأم جعفر وحولهما الجوارى يرقصن ويغنين أمام الرشيد :

منفصل عنى وما قلبى عنه منفصلْ
يا قاطعى اليوم لمن نويتَ بعدى أن تصل ؟

فطرب الرشيد وقام على رجليه واستقبل أم جعفر وعلية ، وقال : يا مسرور ! لا تبق فى بيت المال درهمًا ! فكان ما نثر على الجوارى فى هذا اليوم ستة آلاف درهم . . . !

وكانت علية أول أمرها تصنع الشعر وتغنيه سرًا فلا يعلم به إلا الخاصة من الجوارى أو أساتذة الغناء كإبراهيم الموصلى وابنه إسحاق ، ولم تجهر بغنائها إلا بعد أن اشتهر حبها للخدم ، وتناقل الناس أشعارها وألحانها .

* * *

حدثوا أن الرشيد أرق ليلة وقد اشتاق إلى إبراهيم الموصلى ، فركب حماره الأسود القصير ملثمًا ، وقد التحف برداء موشى ، وبين يديه مائة خادم أبيض ، وسار ليلاً حتى دخل على إبراهيم ، فقام إليه وقبَّل حافر حماره ! وقال : يا أمير المؤمنين ! جعلت فداك ! أفى مثل هذه الساعة تظهر ؟ قال : نعم ! شوق طرق بى ؟ ثم جلس الخليفة فنظر عيدانًا وآثارًا لجلسة شهية . . . ! فقال : ما هذا يا إبراهيم ؟ قال بعد تلجلج وارتباك : أصدقك يا أمير المؤمنين :

بعثت إلىّ علية بنت المهدى بجاريتين ظريفتين لأعلمهما لحنين :

قال الرشيد : علىّ بهما ، فأحضر الخادمتين بين يديه فكأنهما سمكتان فى حوض من البلور . . . ! قال الرشيد لإحداهما : غنى ! فغنت :

بُنِيَ الحب على الجور فلو أنصف المعشوق فيه لسمُجْ

ليس يُستحسن فى حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج
لا تَعتبِنْ من محب زَلة زلة المعشوق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفًا خالصًا لك خير من كثير قد مُزِج

فطرب الرشيد واهتز ، وقال لإبراهيم : لمن الشعر ؟ ما أحسنه ؟ ولمن اللحن ؟ ما أظرفه ؟ قال إبراهيم : لا أدرى ، فنظر الرشيد إلى الجارية وقال : لمن يا جارية ؟ قالت : لِستى . . . ! قال : ومن ستُّك هذه ؟ قالت : علية أخت أمير المؤمنين ، قال : الشعر واللحن ؟ قالت : نعم ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه إلى الأخرى وقال لها : غنى ، فغنت :

تحبَّبْ فإن الحب داعية الحب وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصر ، فإن حُدثت أن أخا الهوى نجا سالمًا فارج النجاةَ من الحب
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب ؟

فطرب الرشيد واستخفه الطرب وسأل عن الشعر والغناء فأنكر إبراهيم ، وصرحت الجارية الثانية بأنهما معًا لعلية أخت أمير المؤمنين . . . فأطرق الرشيد وتفكر ، وطال إطراقه ، فخاف إبراهيم واضطرب ، ولمع بخاطره أن يغير من حالة الخليفة فيحضر إليه جارية من جواريه لتغنيه لحنًا جديدًا ! فأحضر الجارية ، وقال : نفسى فداؤك يا أمير المؤمنين ، هذه جارية لم تَنْهَد ! فنظر إليها الرشيد نظرة فاحصة وقال لها : غنى ! فغنت :

يا مُورى الزند قد أعيتَ قوادحهُ أقبس إذا شئت من قلبى بمقباس
ما أقبح الناس فى عينى وأسمجهم إذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

فاهتزَّ الرشيد ولمعت أسارير وجهه وأعاد الصوت مرارًا وشرب أرطالاً ، ثم سأل الجارية عن صانع اللحن فأمسكت ، فاستدناها فتراجعت . . . !

فمال برأسه إليها فأقبلت على أذنه وأسرّت إليه بشيء ، فقام على الفور ، ودعا بحماره ! وانصرف مع الصباح وقد قال لإبراهيم : احتفظ بالجاريتين . .!

انصرف الرشيد فى ذيول الظلام الأخيرة ، فإلى أين ؟ إلى علية بنت المهدى ! فما دخل عليها حتّى ذعرت ! فقال لها : أحببت أن أشرب عندك هذا الصباح ! فحمل إليه النبيذ ، فما شرب منه أرطالاً حتّى أخذ العود من حجر جارية من الجوارى ودفع به إلى علية وقال لها : وتربة المهدى لتغنّين ! قالت : وما أغنى ؟ قال : غنى : بُنى الحب على الجور فلو . . . الأبيات المتقدمة ! فعرفت علية أنه وقف على القصة ، فلما فرغت من غنائها هذا الصوت ، قال لها : غنى : تحبّب فإن الحب داعية الحب . . . الأبيات المتقدمة ، فغنت ! وما انتهت حتّى قام فقبل رأسها وقال : يا سيدتى! هذا عندك ولا أعلم ! وأقام عندها بقية اليوم !

* * *

وحدّث يحيى بن خالد البرمكى قال : أخذ بيدى أمير المؤمنين الرشيد ، ثم أقبل على حجرة يخترقها حتّى انتهى إلى حجرة مغلقة ، ففتحت له ، ثم رجع من كان معنا من الخدم ، ثم صرنا إلى حجرة مغلقة ففتحها بيده ، ثم أغلقها ، وقد نفذنا منها إلى رواق ففتحه ، وكان فى صدره مجلس غناء مغلق ، فنقر الرشيد الباب بيده نقرات فسمعنا حِساً ، ثم أعاد النقر فسمعنا صوت عود ، ثم أعاد النقر ثالثة فغنت جارية ما ظننت والله أن الله خلق مثلها فى حسن الغناء وجودة الضرب ، فقال لها الرشيد بعد أن غنت أصواتاً مختلفة : غنى صوتى ! فغنت :

| | |
|---|---|
| ومخنث شـــهد الزفاف وقبله | غنى الجوارى حاسراً ومنقّباً |
| لبس الدلال وقام ينقر دفه | نقراً أقر به العيون وأطربا |
| إن النساء رأينـــه فعشقنـــه | فشكَوْن شدة ما بهن فأكذبا |

قال يحيى : فطربت حتى هممت أن أنطح الحائط برأسى ! ثم قال الرشيد : غنى « طال تكذيبى وتصديقى » فغنت :

طال تكذيبى وتصديقى    لم أجد عهداً لمخلوق
إن ناساً فى الهوى غدروا    حسَّنُوا نقضَ المواثيق
لا ترانى بعدهم أبداً    أشتكى عشقاً لمعشوق

قال يحيى : فرقص الرشيد ورقصت معه ! ثم مضينا إلى الدهليز راجعين ! فقال لى ، وهو قابض على يدىّ : أعرفت هذه المرأة ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين ، قال : فإنى أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتّم ذلك ، وأنا أخبرك أنها علية بنت المهدى ، ووالله لئن لفظت به بين يدى أحد وبلغنى ذلك لأقتلنك . . . !

وكان الرشيد مفتوناً بغناء أخته علية ، فهو يلجأ إليها كلما هاجت نفسه وتيقظ شوقه ، وها هو ذا يذهب إليها فى حنان ودعة فيقول لها : غنينى يا أختى ! فتصنع فيه شعراً لساعتها وتغنيه به :

تفديك أختك ، قد حبوت بنعمة    لسنا نعدّ لها الزمان عديلا
إلا الخلود ، وذاك قربك سيدى    لا زال قربك والبقاء طويلا
وحمدت ربى فى إجابة دعوتى    فرأيت حمدى عند ذاك قليلا

واستدعى الرشيد يوماً أختاً لها ولم يطلبها « أى عُلَيَّة » ، فغضبت وعملت شعراً وغنت به :

مالى نُسيتُ وقد نُودى بأصحابى    وكنت والذكرُ عندى رائح غاد ؟
أنا التى لا أطيق الدهر فرقتكم    فرقّ لى يا أخى من طول إبعاد

وحجّت علية أيام الرشيد ، فلما انصرفت أقامت « بطيزناباذ[1] » أياماً

(١) مكان على طريق الكوفة .

فغضب الرشيد لذلك ، وداخله شيء من الريبة فى إقامتها بمكان لم تصرح به ، فقالت عُلَيَّة :

أيّ ذنب أذنبتــه أيّ ذنب أيِ ذنب لولا رجائى لربى ؟
بعقامى بـ « طيزناباذ » يومًـــا بعــده ليلة على غير شرب
ثم باكرتها عقـــارًا شمولاً تفتن النـــاسك الحليم وتُصْبى
قهـــوةً قرقفًا تراهـــا جهولاً ذات حـــلم فرّاجةً كل كرب

فلما رجعت صنعت لحنًا فى هذه الأبيات وغنته للرشيد ، فطرب وعفا عنها .

ورحلت علية عن « بغداد » لتقيم بالرقة عند خالها يزيد بن منصور بضعة أيام . . . وبينا هى بالرقة ، اشتاق إليها الرشيد فأرسل فى طلبها فرجعت ، وقالت فى طريقها شعرًا وغنت به :

اشربْ وغنِّ على صـــوت النواعير ما كنت أعرفها لولا ابن منصور
لولا الرجاء لمن أمّلت رؤيته ما جزت بغداد فى خوف وتغرير

ولما خرج الرشيد إلى « الرّى » أخذ أخته علية معه فلما وصل إلى « المرج » عملت هذا الشعر وغنت فيه :

ومغترب بالمرج يبكى لشجـــوه وقد غاب عنه المسعدون على الحب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضهم تنشق يستشفى برائحة الركب

وسمع الرشيد هذا الغناء ليلاً من علية وهى لا تراه ، فعرف أنها اشتاقت إلى العراق وأهلها ، فردها فى الصباح ومضى فى طريقه وحده . . !

وغنت عليةُ الرشيد هذين البيتين فى يوم عيد الفطر :

طالت علىّ ليالى الصوم واتصلت حتى لقد خلتها زادت على الأبد
شـــوقًا إلى مجلس يُزْهَى بصاحبه أعيذُه بجلال الواحـــد الصمد

فقال الرشيد : ها قد انتهى الصوم فهلم يا عُليةُ . . . !

عُليَّةُ والمأمون والأمين :

لما مات الرشيد حزنت عُليَّة حزنًا شديدًا ، وتركت الشراب والغناء ، وأقسمت ألاّ تقربهما ماعاشت ! ولكن الأمين — وكان مفتونًا بغنائها — ما زال يستدرجها ويستميلها حتّى غنت على مضض . . . !

أطلت عاذلتي لومى وتفنيدى وأنت جاهلة شوقى وتسهيدى
لا تشرب الراح بين المسمعات وزُرْ ظبيًا غريرًا نقى الخد والجيد
قد رنحته شمول فهو منجدل يحكى بوجنته ماء العناقيد
قام الأمين فأغنى الناس كلهم فما فقير على حال بموجود

وكانت علية جشعة فى الغناء يستهويها منه كل شىء جديد ، وإنها لا تتورع أن تنسب إلى نفسها ما يعجبها من غناء إبراهيم الموصلى وإسحاق ابنه ، ويحدثنا الأخير أنه عمل لحنًا فى شعر إسماعيل بن يسار وهو :

سقيًا لأرض إذا ما نمت نبهنى بعد الهدوّ بها قرع النواقيس
كأن سوسنها فى كل شارقة على الميادين أذناب الطواويس

وقبل أن يغنى اللحن أو يسمعه إنسان احتالت عليه علية هى وجواريها فأخذته منه ، وأعطته عشرين ألف درهم على ألا يبوح لأحد أنه لنفسه ، أو يغنيه أمام الخليفة ، رضى إسحاق على كره ، وراحت علية تغنيه للمأمون وهو يطرب له ويعجب ، وبعد موت علية دخل إسحاق على المأمون فغناه الصوت نفسه . . . ! فدهش وقال : من أين لك هذا وهو صوت علية عمّى ؟ فروى إسحاق القصة ! فقال له المأمون : يا بغيض ! وأى فخر لك فى أن تبيع غناءك بالمال ثم تجهر به ! فخجل إسحاق وآلى ألا يغنى هذا الصوت أبدًا !

وحكى أبو أحمد بن الرشيد أنه سار مع المأمون يومًا فى دهليز القصر حتى اقتربا من دار الحرم ، فسمع أحمد غناء أطربه ، فمال يمينًا وشمالاً فقال له المأمون : ما بك ؟ قال : سمعت ما لم أتمالك معه نفسى ! قال المأمون : هذه عمتك علية تطارح عمك إبراهيم « أخاها » من شعر لها :

مالى أرى الأبصار بى جافية ... لم تلتفت منى إلى ناحيه

لا ينظر الناس إلى المبتلَى ... وإنما الناس مع العافيه

صحبى . . .! سلوا ربكم العافيه ... فقد دهتنى بعدكم داهيه

قاطعنى بعدكم سيدى ... فالعين من هجرانه باكيه

ودخل إسماعيل بن الهادى على المأمون ، فسمع من وراء ستار غناء عجيبًا ، فسأل : ما هذا ؟ قال له المأمون : هذه علية بنت المهدى تلقى على أخيها إبراهيم لحنًا من غنائها :

ليس خطب الهوى بخطب يسير ... ليس ينبيك عنه مثل خبير

ليس أمر الهوى يُدبَّر بالرأ ... يِ ولا بالقياس والتفكير

هذا ، وليست علية وحدها من نبغت فى الشعراء والغناء واشتهرت بهما ، ولكنّ إبراهيم بن المهدى أخاها — وكان قد ادعى الخلافة — يعتبر من كبار أساتذة الغناء ، وله فيه أخبار تشهد بعلو كعبه . . . وقالوا : ما اجتمع فى الإسلام قط أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته علية ، وكانت علية تفوقه فى فنى الشعر والغناء .

وكان لعلية وإبراهيم أخ ثالث يدعى « يعقوب » ، وكان أبرع الناس فى الزمر ، حكت « عَريب » المغنية : أنها اجتمعت يومًا مع إبراهيم بن المهدى عند أخته علية ، وعندها أخوها يعقوب ، فغنت علية من صنعتها وأخوها يعقوب يزمِرُ عليها :

تحبَّبْ فإن الحب داعية الحب ... وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

إلخ الأبيات وقد تقدمت فى الكلام عن علية .

ثم غنى إبراهيم من صنعته وأخوه يعقوب يزمـِرُ عليه :

يا واحد الحب مالى منك إذ كلفت نفسى بحبك إلا الهم والحزن
لم يُنْسِيَنْكَ سرور ، لا ولا حزن وكيف لا ، كيف يُنسى وجهك الحسن؟
ولا خلا منك قلبى ، لا ولا جسدى كلى بكلك مشغول ومرتهن
نور تولد من شمس ومن قمر حتى تكامل منه الروح والبدن

قالت عريب : فما سمعت مثل هذا قط ، وما أظن أننى . . سأسمع مثله . . . !

هؤلاء ثلاثة أخوة فتنهم الفن فافتتنوا به .

وعاشت علية خمسين سنة ، وتوفيت عام ٢١٠ هجرية ، وقالوا : إن سبب موتها أن المأمون جعل يقبل رأسها ، وكان وجهها مغطى فشَرِقت من ذلك ! . ثم حُمَّتْ وماتت بعد أيام !

* * *

# شارية

## جارية إبراهيم بن المهدى

وإبراهيم بن المهدى هو ابن الخليفة المهدى ، وأخو الخليفة الرشيد وقد ثار على المأمون ابن أخيه وادعى الخلافة لنفسه بالرَّى ، ولكن أعوان المأمون قبضوا عليه ، فاعتذر إليه وبايعه فعفا عنه ، وله فى ذلك أخبار كثيرة فى كتب الأدب ولا سيما الأغانى .

وإبراهيم له شعر غاية فى الجودة والرقة ، وهو من أساطين المغنين وأصل من أصول الغناء فى العصر العباسى ، ولأنه كان يغنى لنفسه ومزاجه لم يتقيد بفن القدماء من المغنين ، لذلك قال النقاد عنه : إنه أول من أفسد الغناء القديم .

وهو أخ « لعُلَيَّة » بنت المهدى التى أفردنا لها فصلاً فى هذا الكتاب .ونسب « شارية » غير محقق ، فقد اختلف الرواة فيه وأسرفوا فى الاختلاف لكل مذهبه الذى يراه .

ومن هذه الروايات جميعًا تبين أن أباها غير معروف ، ولكن شارية نفسها تقول : إن أباها من قريش ، وقد سرقت وهى صغيرة فبيعت إلى امرأة من بنى هاشم تقيم بالبصرة ، وإن هذه عرضتها للبيع بثلثمائة درهم ، فتقدم لشرائها إسحاق الموصلى وإبراهيم بن المهدى ، ولكنها كانت من حظ إبراهيم ، فضمها إليه وهى فى السابعة من عمرها ولذلك كان يسميها « ابنتى » .

ونثبت هنا رواية أخرى فى شرائها رواها « هبة الله » بن إبراهيم بن المهدى قال : كانت شارية عند امرأة هاشمية بالبصرة ، وقد عرضت للبيع على أبى « فى بغداد » ، فتقدم الراغبون لشرائها حتى وصل ثمنها ثمانية آلاف درهم ، ولم يكن عند أبى دراهم ، فقال لى : ويْحك ! قد والله أعجبتنى هذه الجارية إعجاباً شديداً وليس عندنا شىء ! قلت له : تبيع ما تملكه من الخزف فتوفر ثمنها ! قال أبى : قد تذكرت فى شىء !

اذهب إلى علىّ بن هشام وقل له : قد عرضت علىّ جارية فأخذت بمجامع قلبى ، وليس عندى من ثمنها شىء ، وأحب أن تقرضنى عشرة آلاف درهم ، فصرت إلى « على » فأخبرته الخبر ، فدفع إلى عشرين ألف درهم ، وقال لى : قل لأبيك : هذه الدراهم حلال لك فى الدنيا والآخرة ، فأخذتها وصرت إليه ، فوالله لو طَلَعْتُ عليه بالخلافة لم تكن تعدل عنده تلك الدراهم ! فاشتراها وضمها إلى جواريه . . . !

* * *

فرح إبرهيم بشرائها ، وكأن الخلافة طلعت عليه كما قال ابنه ! فقد كان يتوسم فيها النجابة والذكاء وكمال الأنوثة ، كما كانت وديعة هادئة ، حلوة الحديث ظريفة الجواب ، وراح سيدها يُعنى بأمرها ، فعهد بها إلى جواريه فى نشأتها الأولى ، كما تعهدها هو بتعليمها الغناء وتحفيظها الأشعار ، فلم تبلغ الرابعة عشرة حتى بدت أنوثتها ، وطبعها طابع الحسن بالفتنة والجمال ، وقد بلغ من إعزازه إياها أنه كان يفضلها على جميع جواريه ويقدمها عليهن ، وكانت عنده جارية عزيزة عليه تسمى « رَيّق » وكثيراً ما وقع بينها وبين شارية شجار وخلاف ، فكان إبراهيم ينصرها عليها ويجاهر بإعزازها ومحبتها !

وراح إبراهيم ينعم بشارية ويفخر بها ، فهي تغنيه وتجالسه وتسامره ، ويدعو إلى منزله من يريد سماعهـــا من أصدقائه وأهل منزله. وممن كانوا يختلفون إلى منزله ويسمعون شارية « على بن هشام » وعبد الوهاب بن على ، والأول من الأمراء الشعراء ومن قواد المأمون، والثانى وزير المعتصم، فأعجبا بالجارية وحقدا على إبراهيم حيازته إياها، وراح الثانى منهما يدبر له المكايد عند الخليفة .

وتقول شارية : إنها كانت مع إبراهيم فى « حرّاقة » بنهر « دجلة » وكانت الليلة مقمرة فما شرب إبراهيم رطلاً حتى اندفع يغنى :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بهـــا
لكى يعلم الناس أنى امرؤ ... أتيت الفتوة من بابها[1]

فهاجت خواطرها للغناء فاندفعت تغنى :

لقد حثوا الجمال ليهربوا منا فلم يئلوا

فوثب إليها إبراهيم فأمسك فاها وقال: أنت والله أحسن من « الغُريض »[2] وجهاً وغناء ! فما يؤمنني عليك؟

ومما غنته شارية فى منزل إبراهيم صوت من شعر إسحاق الموصلى وغنائه :

ضَنّتْ سعاد غداة البين بالزاد ... وأخلفتك فمـــا توفى بميعاد
ما أنس لا أنس منها إذ تودعنا ... والحزن منها وإن لم تبـــده باد

مؤامرة وحيلة ! !

قلنا إن عبد الوهاب بن على حقد على إبراهيم حيازته لشارية، فراح يصفها للخليفة المعتصم ويحبب إليه شراءها ، وما زال به حتى طلبها من إبراهيم ! قال محمد بن سهيل[3] : عرض المعتصم فى شارية سبعين ألف درهم فأباها عليه

---

(١) الشعر للأعشى . (٢) مغن قديم عرف بالوجه البض ولين البشرة !

(٢) كان كاتباً لإبراهيم وكان شيخاً ثقة .

إبراهيم.. ! فعاتبته فى ذلك فلم يجبنى بشىء ، ثم دعانى فدخلت عليه بعد أيام وبين يديه مائدة عليها سفود فيه ثلاثة فراريج ، فرمى إلى بواحد فأكلته ، وأكل اثنين وشرب عليهما وشربت معه ، ثم ضرب ستراً كان إلى جانبه فسمعت حركة عيدان، ثم قال : يا جارية ! غنى ! فغنت من شعر جرير وغناء إبراهيم :

أسرى لخالدة الخيال ولا أرى     شيئاً ألذ من الخيال الطارق ؟
إنّ البليـــة من يُمَلّ حديثـــه     فانقع فؤادك من حديث الوامق
أهواك فوق هوى النفوس ولم يزل     مُذْ بِنت قلبى كالجناح الخافق
شـــوقاً إليك ولم تجاز مـــودتى     ليس المكذب كالحبيب الصادق

قال ابن سهيل: فسمعت شيئاً أذهلنى! فقال إبراهيم : يا سهل! هذه شارية. . . ! وهذه الذى عاتبتنى عليها فى أن أبيعها للخليفة بسبعين ألف دينار! لا والله ! ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار ! ! وتأثر الخليفة بالرفض، كما تأثر وزيره من قبل ، فعملا على انتزاع الجارية من إبراهيم بطرق مفتعلة وتحايل غريب، وكان من أثر هذا التحايل أن ظهرت امرأة فى الطريق! ! ومن تكون ؟

هى امرأة ادّعت أنها « زهرة بنت كلاب » من قريش ، وأنها أم شارية تريد ردّ ابنتها إليها وتحريرها . . . ! وكان سندها فى هذه الدعوى عبد الوهاب بن على ، فهو الذى كان ينظم حملاتها على إبراهيم، ويسهل لها الدخول على المعتصم، ويشجعها على فضيحته فى المجالس العامة ، وهو مع هذا كان يدعى صداقة إبرهيم ، ويحذره من مفاجئات هذه المرأة ومكائدها ولكن شكواها قد وصلت إلى المعتصم! وفطن إبراهيم إلى ما عساه يكون ، فدبر حيلة طريفة أبطلت عليهم تدبيرهم . . . ! فما الحيلة ؟ لقد تصدق « بشارية » على « ميمونة » ابنته، ثم ركب إلى دار ابن داود القاضى ، وأحضر عشرين شاهداً وبعث إلى « شارية » فحضرت ، وأمام القاضى والشهود قال : أشهدكم

جميعاً أن « شارية » حرة، وإنى قد تزوجتها وأمهرتها عشرة آلاف درهم! ثم قال : يا شارية! أرضيت؟ قالت : نعم يا سيدى! والحمد لله على ما أنعم علىّ به!

وما خرج القوم من دار ابن داود حتى حضر إليهم عبد الوهاب بن على من قبل الخليفة وقال لإبراهيم :

يقول لك أمير المؤمنين : من المفترض علىّ طاعتك وصيانتك عن كل ما يضرك، إذ أنت عمى وصنو أبى، وقد رفعت إلى امرأة من قريش قصة ذكرت فيها أنها من بنى زهرة، وأنها أم شارية، واحتجت بأنه لا يجوز أن تكون بنت امرأة من قريش أمة لمخلوق! فإن كانت المرأة صادقة فمن المحال أن تكون شارية جارية لك! فمن الأليق بك والأصلح أن تخرج شارية إلى من تثق به من أهلك، حتى نتبين صدق هذه الدعوى، فإن كانت كما قالت المرأة فادفع بها إليها. . . وإلا فإنا نردها إلى منزلك كما كانت، وهذا كله طيب لك فى دينك ومروءتك!

سمع إبراهيم المقال: فقال لعبد الوهاب: فديتك يا أبا إبراهيم! هب شارية بنت زهرة بنت كلاب! أتنكر على ابن عباس بن عبد المطلب أن يكون بعلاً لها؟ قال عبد الوهاب: لا، قال إبراهيم : فتقول لأمير المؤمنين: إنى أعتقتها وتزوجتها فى دار القاضى أمام عشرين شاهداً وأبلغه السلام!

وكان المعتصم ينتظر عبد الوهاب على أحر من الجمر، فما دخل عليه حتى قال له: ما وراءك؟ أظن أن عمى لم يقنعه كلامك! كما أظن أن له من الحيل ما يتغلب بها عليك! قال: الأمر كما ظننت يا أمير المؤمنين وأقبح!

* * *

وبعد! فهل أعتق إبراهيم شارية؟ وهل تزوج منها؟

الحق غير ذلك، فهو لم يعتقها ولم يتزوج منها، ذلك لأنه حين أعتقها وتزوجها أمام الشهود، كان عتقاً لجارية ليست فى ملكه، فقد وهبها كما

قلنا ابنته «ميمونة» فلم يكن الزواج صحيحاً ، ولكى تعود جاريته إليه كما كانت فقد اشتراها من «ميمونة» بعشرة آلاف درهم ، فصارت له يعاشرها معاشرة الأزواج بملك اليمين وهى تعلم أنها زوجته الشرعية ، ولم تعرف «شارية» هذا السر حتى بعد وفاة إبراهيم ! فقد أرادت الاشتراك فى ميراثه مع أهله ، فصارحوها بالحقيقة !

وحين مات إبراهيم اشتراها المعتصم ، فصارت إليه ، وظلت فى قصره حتى مات! ولم يكن المعتصم مُدَلَّهاً بها أو عاشقاً لها ، وإنما كان معجباً بغنائها وجمالها معاً ، مما لم يجد مثلهما فى جارية من جواريه ، ولم يعرف عن المعتصم عشقه للجوارى ولم يشتهر بحب جارية خاصة ملكت عليه نفسه كما اشتهر غيره من الخلفاء !

جلس المعتصم يوماً للغناء فغنت جواريه جميعاً ، وحين اندفعت شارية تغنى لحن إسحاق :

كل شىء منك فى عينى حسن ونصيبى منك هم وَحَزَنْ
لا تظنى أنـــه غَــيَّرنى قِــدم العهــد ولا طول الزمن

فأعجب وصاح للحاضرين : هذه الجارية على ما تسمعون مِن حسن الغناء ، وعلى ما ترون من ملاحة الوجه ، فكيف ولم يَعِفّ عنها إبراهيم ابن المهدى ؟

وتقول «ريّق» جارية إبراهيم ، إن شارية كانت تتعب إبراهيم حين علّمها الغناء ، وكانت أحياناً تتعمد الخطأ فى اللحن بالزيادة أو النقص ، فكان يعاقبها بأن تقف على رجليها وتغنى فلا تجلس حتى تجيد اللحن ، وكان هذا ما أهاب بالمعتصم أن يطلب شراءها منه .

* * *

وبعد المعتصم اشتراها «الواثق» وكان محباً للغناء وصاحب صنعة فيه ،

فكان يطارحها الغناء وتطارحه ، كما علمت جاريته « طباعِ » الغناء فبرعت فيه . . . طلب إليها الواثق أن تغنيه يوماً فغنت :

قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانبا
قد بلغتَ الذى أرد تَ وإن كنت لاعبا
واعترفنا بما ادّعـ يت وإن كنت كاذبا
فافعل الآن ما أرد ت فقد جئت تائبا

قال الواثق : لمن الشعر يا شارية ؟ ولمن الغناء ؟

قالت : لهذا قصة يا أمير المؤمنين ! هذا شعر لإسحاق ، وقد صنع فيه لحناً ، ولما سمع به مولاى إبراهيم بن المهدى طلبه منه فصاغ فيه لحناً آخر ، وأسمعه لإسحاق فأعجب به ، وقال له : أضعت غنائى بغنائك ! !

وكان لشارية وهى عند الواثق جارية تدعى « سُرَّه » فعشقها المعتمد بن الواثق فباعتها إياه ! ولكن المعتمد عاجلته المنية فتزوجت « سرة » من « ابن البقال » المغنى ، وكان ابن المعتز قد تعشقها ولم يبح بعشقه إياها . . . ! فقال فيها وقد غنته شارية :

أقول وقد ضاقت بأحزانها نفسى ألا رُبَّ تطليق قريب من العرس
لئن صرت للبقال يا سُرّ زوجةً فلا عجبٌ ، قد يربض الكلب فى الشمس

* * *

وكانت شارية تنافس « عريبَ » فكانت تذهب بجواريها إلى منازل الأشراف « بِسُرَّمَنْ رأى » وتقيم مجالس الغناء بينهم ، كما كانت « عريب » تفعل ذلك لا منافسة لها ، وإنما إجابة لدعوة الأشراف لها ، ولم تستطع شارية أن تقف أمامها لأنها لم تبلغ من الفن والمكانة ما بلغت « عريب » .

قالوا : إن شارية غنت يوماً مع جواريها أمام الواثق شعراً لإبراهيم بن المهدى :

يا طول علة قلبيَ المعتــادِ ألِفَ الكرامَ وصحبة الأمجاد
ما زلت آلف كل قِرْم ماجــد متقــدم الآباء والأجــداد

فوهب لها ولجواريها ألف ثوب من جميع أنواع الثياب ! وقالوا : إنه لم يوهب لجارية من الثياب مثل ما وهب « لشارية » .

* * *

واتصلت شارية بالخليفة المتوكل فأعجب بها وخصها بالعطايا ، حكت « مُلح العطّارة » وهي مغنية محترفة عرفت بكثرة استعمالها العطر ، أن شارية غنت يوماً بين يدى المتوكل واقفة مع الجوارى هذا الشعر :

بالله قولي لمن ذا الرشــا الـ ـمثقل الردف هضيم الحشــا
أظرف ما كان إذا ما صحا وأملح الناس إذا ما انتشى
وقــد بنى برج حمام له أرســل فيــه طائراً مرعشا
يا ليتني كنت حماماً له أو باشــقاً يفعل بي ما يشا
لو لبس القُوهِيَّ[١] من رقــة أوجعــه القُوهى أو خدشا

فطرب المتوكل وقال لشارية : لمن الغناء ؟ قالت : أخذته من دار المأمون ، ولا أدرى لمن ؟ قلت « أى ملح » : أنا أعلم الناس به ، قال : لمن يا ملح ؟ قلت : أقوله لك سرًّا ؟ فقد أذنيه إليّ ، فقلت له : الشعر والغناء جميعاً لخديجة بنت المأمون . . . ؟ قالته في خادم لأبيها كانت تهواه . . . ؟ فأطرق طويلاً ثم قال لا يسمع هذا منك أحد . . . ؟

وبعد : فهذه شارية وتلك قصتها ، وأظهر شيء فيها أنها لم تكن صاحبة صنعة خاصة بها ، وإنما كانت تغني ألحان غيرها . وأكثر ما كانت تغنيه شعر إبراهيم بن المهدى وإسحاق الموصلي وغناؤهما ، ولم تعرف لها ناحية أدبية أو غرامية كما عرف للنابغات من الجوارى .

---

(١) طوق الحمام .

## دنانير . . !

جارية كوفية ، صفراء اللون ، عرفت بحلاوة الحديث وقراءة الشعر والشغف بالأدب ، وكان مولاها « محمد بن كُناسة » الشاعر العباسى المعروف ، نشأت دنانير فى داره فتأثرت بشعره ، وتعلقت بصناعة الشعر فصنعت منه قدرًا قليلاً لم يبلغ من الجودة ما يجعل الرواة يهتمون بروايته كثيرًا . وكان الشعراء والمغنون يقصدون دار ابن كناسة ليساجلوا « دنانير » الغناء والشعر والحديث الأدبى .

حدث « الكلابى » قال : جئت يومًا إلى منزل محمد بن كناسة فلم أجده ، ووجدت جاريته « دنانير » جالسة ، فقالت لى : مالك محزونًا يا أبا الحسين ؟ قلت : رجعت من دفن أخ لى من قريش ! ! فسكتت ساعة ثم قالت :

بكيتَ على أخ لك من قريش ... فأبكانا بكاؤك يا علـى
فمات وما خبرناه ولكن ... طهارة صحبه الخبر الجلى

وكان لابن كناسة صديق يسمى « أبا الشعثاء » وكان عفيفًا مزاحًا ، فكان يدخل إلى دنانير فيسمع غناءها ويعرض فى حديثه بأنه يهواها ، فقالت فى ذلك :

لأبى الشعثاء حب باطن ... ليس فيه تهمة للمتهم
يا فؤادي فازدجر عنه ويا ... عَبَثَ الحب به فاقعدْ وقم
زادنى منه كلام صائب ... ووسيلات المحبين الكلم
صلِ إن أحببتَ أن تعطينى ... يا أبا الشعثاء لله وصُم
ثُم ميعادك يوم الحشر فى ... جنة الخلد إن الله رحم
حيث ألقاك غلامًا ناشئًا ... يافعًا قد كملتْ فيه النعم

ولم يكن لدنانير وهى فى بيت مولاها من الشهرة إلا قدر محدود بين زوار سيدها والمعجبين بمجالسها الخاصة ، ولم يتهيأ لها فى ذلك العهد أن تتلقى الغناء عن أساتذته ، فكانت تغنى من صنعتها هى أو من صنعة غيرها سمعت بها وحفظتها كما هى !

وعلى ما كان لدنانير من سمعة محدودة فقد تسربت إلى يحيى بن خالد البرمكى فاشتراها من سيدها ، وهنا تستقبل حياة لامعة جديدة !

* * *

دنانير ويحيى بن خالد :

اشترى يحيى بن خالد البرمكى « دنانير » فانتقلت بذلك من منزل شاعر متكسب ، إلى قصر وزير عبقرى عظيم ، ومن وسط اجتماعى متواضع ، إلى وسط فخم يغص بالترف وأنواع النعيم ، وقد أضفت الحياة الجديدة عليها جمالاً جديداً وثقافة جديدة ، فقد عُرفت وهى عند يحيى بجمال الوجه ورشاقة القد حتى فتنت كل من رآها ، كما بدأت تستكمل ثقافتها الغنائية ، وتتلقى الفن على أصوله من أساطينه أمثال « بَذْل » المغنية التى خرجتها ، وأمثال إبراهيم الموصلى وإسحاق ابنه وابن جامع ، وما زالت تتلقى الغناء وتفتن فيه حتى نبغت ، وحتى قال عنها ابن جامع : كنت أنازل « دنانير » جارية البرامكة وكثيراً ما كانت تغلبنى !

وكثر ترداد إبراهيم الموصلى على يحيى فاتصل بدنانير جاريته ، فتلقت عليه أصول الغناء ، وقد كانت ميالة إلى فنه بارعة فيه ، حتى إنها كانت تغنى فلم يعرف أهو غناؤها أم غناء الموصلى ؟ ولقد قال الموصلى يوماً ليحيى : إذا فقدتنى ودنانير عندك فكأنك لم تفقدنى ! وكان يلقبها بابنته لكثرة ما أخذت عنه ، ولشدة ما أعجب بها !

صنعت « دنانير » يوماً صوتاً من عندها :

نفسى ! أكنت عليــك مدعيًا أم حين أزمع بينهم خُنتِ ؟
إن كنتِ مولعــة بذكرهم فَعَــلىَ فراقهم ألا مُتّ ؟

وأسمعته ليحيي وطلبت منه الحكم على الصوت ! قال يحيي : ليس لى أن أحكم حتى تعرضيه على أبيك « يعنى الموصلى » فهو أحق بالحكم لأستاذيته وعلو كعبه فى الغناء ! فإن استحسنه كان حسنًا ، ووالله لتعيدنَّهُ على كل ليلة مرة ، وإلا فما أرجو أن تغنيه أبدًا !

قال إبراهيم : فحضرت باب يحيى ولم يكن موجودًا فأدخلت وإذا الستارة قد نصبت ، فسلمت على دنانير من وراء الستارة ، فردت السلام ، فأخذت عودها فداعبته وقلت : هاتى ! فغنت الصوت ! فوالله لقد أعجبنى وأطربنى ! ثم قلت : أعيديه ! فأعادته مرارًا وأنا أتلمس فيه موضعًا لأصلحه فلم أجد ، ثم قابلت يحيى فأخبرته بجودة الصوت وإبداع دنانير فيه ، فداخله سرور عظيم ووصلنى بعطايا أعظم !

وكان يحيي معجبًا كل الإعجاب « بدنانير » وكان شديد الغيرة عليها ، كما كانت آيته الفنية التى يفخر بها على المغنين والمغنيات ! وكثيرًا ما كان يهيئ المجالس الغنائية لكبار المغنين وينازلهم بدنانير ، فكانوا يقرون لها بالفضل والتقدم ، وقد يكون هذا الإقرار حقيقة فنية صادقة ، وقد يكون مجاملة ليحيي البرمكى وإعظامًا له ، وهذا ما أميل إليه !

دعا يحيي مرة بعض أساتذة الغناء من أمثال فليح ، وحكم الوادى وابن جامع إلى مجلس غناء بقصره ، وأرسل إلى دنانير : هلمى فأصحابك عندنا ! فخرجت وحولها وصائفها ، فغنى كل بصنعته ، وغنت دنانير بصنعتها فكانت المتقدمة عليهم ، فوهبهم يحيى كلا منهما ألف دينار ! ووهب « دنانير » ألفين فوزعتها عليهم !

وكان يحيي كلما سمع صوتًا أعجبه وَدَّ لو تعلمه « دنانير » وتغنيه ! فما

كان يدخر جهداً إلا بذله فى تثقيفها وتهذيبها ، سمع مرة صوتاً غنائياً من شعر عبد الله بن قيس فى مدح عبد الله بن جعفر وأوله :

ذكرتك إنْ فاض الفرات بأرضنا . . . إلخ الصوت !

فعزم أن تحفظه دنانير وتغنيه ، فعهد إلى « حكم الوادى » المغنى أن يقوم بتعليمها الصوت ، وجعل له فى ذلك خمسمائة دينار ، قالت دنانير : يا سيدى ، خمسمائة دينار لحكم الوادى ، أما جاريتك فلا شىء ! قال يحيى : وأنت ألف دينار إن أجدته وغنيته !

قال حكم : فدخلت على دنانير وأنهكت نفسى فى تعليمها الصوت ، فما زادت على مرة واحدة حتى حذقته وغنته فى صوت بديع متقن ، فلما حضر يحيى جلس وقال : هاتى يا دنانير ! فغنت الصوت :

ذكرتك إن فاض الفرات بأرضنا ... وفاضت بأعلى الرقمتين بحارها
وحولىَ مما خوّل الله نعمة ... عطاؤك منها شولُها[1] وعشارها
فجئناك نثنى بالذى أنت أهله ... عليك كما أثنى على الروض جارها
إذا مت لم يوصل صديق ولم تقم ... طريقٌ من المعروف أنت منارها

فطرب يحيى واهتز وقال لحكم : ما رأيك يا أبا يحيى ؟ قال : يا سيدى ، نفسى فداؤك ! أنا أمضغ هذا الصوت منذ خمسين سنة فما أجدته « كدنانير » التى مضغته منذ ساعة فقط !

ولست أدرى كيف يُعجب يحيى البرمكى بشعر مُدح به الأمويون ؟ وكيف تُغنيه جاريته فى منزله وهو وزير الرشيد وكاتم سره ؟ ولعل هنا سراً نفسياً عميقاً جديراً بالبحث والتحليل ، ولعل لهذا السر صلة بما وقع للبرامكة من نكبة وفجائع .

---

(١) الشول النوق التى شالت بأذنابها وكرهت الفحل وذلك حين تلقح .

دنانير والرشيد :

عرف الرشيد ما لدنانير من المكانة في قلب يحيى وما نَعَتَهَا به من الملاحة والإجادة في الغناء ، فكان يكثر من زيارته في منزله ، ويقضي معه معظم لياليه . وكانت دنانير الباعثَ النفسي لزيارة الرشيد ، بل كانت فتنته التي استهوته بغنائها وحديثها وملاحتها ، وبلغ من إعجاب الرشيد بها أن أهداها في ليلة عيد عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار . . . ولكنه رُدَّ إليه في مصادرة أموال البرامكة . . .

كثرت زيارات الرشيد لدنانير واشتهر أمر زيارته إياها . . . وتحدث الناس كيف ينتقل الخليفة إلى جارية ؟ ولقد ساء أمَّ جعفر زوجتَه ما صار إليه أمر الخليفة ، كما استاءت من تصرفاته قبلُ مع بعض جواريه ، فشكت استياءها منه إلى أهله وذوى المكانة من حاشيته ، فصاروا جميعاً إليه وعاتبوه . . . ولكنه قال : مالي أرب في دنانير إلا في غنائها . . . فتعالوا واستمعوا إليها ! فإن استطعتم عنها سُلوا سَلَوْتُ معكم ! فصار بعض عمومته إلى منزل يحيى واستمعوا إلى دنانير تغنى :

| | |
|---|---|
| هذى دنانير تنساني وأذكرها | وكيف تنسى محباً ليس ينساها |
| أعوذ بالله من هجران جارية | أصبحتُ من حبها أهذى بذكراها |

فما سمع أعمامه هذا الغناء حتى طربوا واهتزوا وصفقوا وعذروا الرشيد فيها . . . ! ثم قاموا إلى أم جعفر فألحوا عليها ألا تُلحَّ في عتاب الرشيد فإنه معذور . . .

قبلت أم جعفر العذر فلم تعد إلى لومه ، وأهدته عشر جوار من جواريها ، منهن « مارية » أم المعتصم ، و « مراجل » أم المأمون ، و « فارهة » ، أم صالح بن الرشيد . وظل الرشيد مفتوناً « بدنانير » وقد كان في استطاعته أن يشتريها من سيدها لولا أن ذلك السيد هو يحيى بن خالد البرمكي

الذى كان له على الرشيد دالة قاهرة ! ورأى لا يرد . . . !

وكان ما كان مما أدى إلى فتك الرشيد بالبرامكة وإبادتهم ومحو آثارهم ، فأمر الرشيد بنقل دنانير إليه ، فنقلت ، ثم أمرها يوماً أن تغنى فأبت قائلة : يا أمير المؤمنين ! إنى آليتُ ألاّ أغنى بعد سيدى أبداً ! فغضب الرشيد وأمر بصفعها فَصُفِعت . . . ! وأقيمت على رجليها ، وأعطيت العود ، فأخذته وهى تبكى وتنتحب ، واندفعت تغنى :

يا دار سلمى بنازح السَّند بين الثنايا ومَسقط اللُّبد[1]
لما رأيت الديار قد دَرَست أيقنتُ أن النعيم لم يُعد

وقد حاول الرشيد بعظمته وفخامته أن يستميل « دنانير » إليه ويمحو من قلبها حزنها على البرامكة ، وأن ينسيها الماضى فلم يستطع ، إذ أن « دنانير » قد فقدت كل شىء بضياع البرامكة ، فلم تعد تستطعم للحياة طعماً ، ولم يعد قلبها مسرحاً للأمانى كما كان ! فالخلفاء وعظمتهم ، وفخامة القصور والجوارى والترف والنعيم واللذائذ والمتع . . كل أولئك أمام عينيها وفى إحساسها لا يساوى شيئاً مما فقدت . . . فلا سبيل إلى الحياة وهى لا تحس بشىء فى الحياة ! !

أحسّ الرشيد ذلك فيها فقطع أمله منها ، وتأكد من إخلاصها لسيدها فرقّ لها ، وأطلق سراحها تعيش أين تريد وكيفما تحب .

عاشت « دنانير » بعد البرامكة فى دار من دورهم — وقد بليت — لا تفرح لنعمة ، ولا تطرب لعشق أو غناء .

* * *

---

(١) أسماء أماكن .

دنانير وعُقيد :

ويقع فى حب « دنانير » بعد هذه النكبات « عقيد[1] »مولى صالح بن الرشيد ، وقد كان شاعرًا مغنيًا له صنعة عرف بها ، أحبّ « دنانير » وشغف بها وقال فيها الأشعار . ولكنها لم تلتفت إليه ، وأقامت على الوفاء للبرامكة ، ومن شعره فيها :

هذى دنانير تنسانى وأذكرها ... وكيف تنسى محبًّا ليس ينساها
أعوذ بالله من هجران جارية ... أصبحت من حبها أهذى بذكراها
قد أكمل الحسن فى تركيب صورتها ... فارتجّ أسفلها واهتز أعلاها
قامت لتمشى فليت الله صورنى ... ذاك التّراب الذى مسّته رجلاها !
والله والله لو كانت إذا برزت ... نَفْسُ المتيم فى كفيه ألقاها

وتقدم إليها « عقيد » ليخطبها فردته ، فاستشفع عليها صالح بن الرشيد « وبذل » المغنية والحسين بن محرز فلم تقبل ! فكتب إليها هذا الشعر وغنّى به :

يا دنانير قد تنكر عقلى ... وتحيرت بين وعد ومطل
شغفى شافعى إليك وإلا ... فاقتليني إن كنت تهوين قتلى !
أنا والله والأمير وما ... آمل من موعد الحسين وبذل
ما أحب الحياة يا أخت إن لم ... يجمع الله عاجلاً بك شملى

ويبدو من حرارة الشعر أن « عقيدًا » أحب دنانير وصدق فى حبّه ، كما يبدو أنها وعدته ومطلت ، وأنها ترددت فى قبول الزواج منه . . . ثم عاودتها ذكرياتها الماضية مع البرامكة فاغتمّت ورفضت !

(١) فى الأغانى ج ١٦ ص ١٣٨ عقيل .

وقالوا : حين تولى الأمين الخلافة جمع المغنين والجوارى والمخنثين فى ليلة زهراء ، وقد وقف فى صحن كبير ملئ شموعًا تعرف باسمه ، وحوله الوصائف يغنين على الطبول ، وقد أخذ الجوارى والمخنثون يزمرون ويضربون ويغنون شعر عقيد فى « دنانير » :

هذى دنانير تنسانى وأذكرها وكيف تنسى محبًّا ليس ينساها

. . . الأبيات المتقدمة .

هذا ، وقد ذكروا أن « دنانير » فى أخريات أيامها عند يحيى البرمكى أصيبت بالعلة الكلَبية . فما كانت تصبر على الطعام ساعة واحدة ، فكان يحيى يتصدق بألف درهم من أجلها فى كل يوم من أيام الصيام ! ، كما ذكروا أن « دنانير » ظلت وحيدة حزينة بعد البرامكة ، فلم تغنّ إلا للبكاء عليهم ، ولم تستجب لعاشق أو معجب بها حتى ماتت ، فرثاها مولاها الأول ابن كُناسة بأبيات منها :

الحمد لله لا شريك له يا ليت ما كان منك لم يكن

إن يكن القول قلّ فيك فما أفحمنى غيرُ شدة الحزن

وهكذا قضت دنانير وهى رمز صادق للإخلاص والوفاء .

## بذل

هذه مغنية متقدمة ، أخذت الغناء عن شيوخه المتقدمين أمثال دحمان وفليح وابن جامع ، وهى من مولدات المدينة ، ولكنها نشأت بالبصرة وتثقفت على علمائها ، وكانت تنتقل وهى صغيرة إلى مجالس الغناء ، وتتصل بالمغنين فتستمع إليهم ، ويستهويها غناؤهم فتثبت الألحان فى ذهنها كما تسمعها ، وقد امتازت بموهبة التقليد المحكم ، لذلك كانت راوية ثقة للألحان والشعر الغنائى .

وقد أعجب بها « على بن هشام » فاشتراها من مولى لها خامل الذكر ، وضمها إلى جواريه ، فكانت بينهم فى مكانة الأستاذة التى تلقنهم الأشعار والألحان المنسوبة إلى أصحابها ، ويقولون : إن « ابن هشام » مولاها أعجب بها إعجاباً شديداً ، فقال فيها الأشعار ، ومنها وقد جفته :

تغيرتِ بعدى والزمان مغير — وخستِ بعهدى والملوكُ تخيس
وأظهرت لى هجراً وأخفيت بغضةً — وأفريت وعداً واللسان عبوس
ومما شجانى أننى يوم زرتكم — حُجبتُ وأعدائى لديك جلوس
وفى دون ذا ما يستدل به الفتى — على الغدر من أحبابه ويقيس
كفرت بدين الحب إن رُمت[1] بابكم — وتلك يمين — ما علمت — غموسُ
فإن ذهبت نفسى عليكم تشوقاً — فقد ذهبت للعاشقين نفوس
ولو كان نجمى فى السعود وصلتكم — ولكن نجوم العاشقين نحوس

---

(١) فى الأغانى طرت .

ويظهر من أخبارها القليلة الغامضة أن صلتها بعلى بن هشام لم تدم طويلاً ، إما لأن « علياً » كان كثير التقلب بين الجوارى ، وإما لأنه لم يكن مرغوباً فيه من خلفاء العباسيين ! !

* * *

لم تطل حياتها عند مولاها إذ اشتراها « جعفر بن موسى الهادى » وهو ولى عهد ، فكان يخرج بها فى رحلاته ويقيم وإياها الأسابيع فى الخلاء ، وهى تغنيه أصوات المغنين وتروى له الأشعار ، وحين انتقلت الخلافة بعد أبيه « الهادى » إلى « الأمين » لم تدم عنده طويلاً .

حدثوا أن الأمين استمع إلى « بذل » عند جعفر فأعجب بحسن صوتها وبجمالها الصفراوى الذى عرفت به ، فتاقت نفسه إليها فطلب شراءها منه ! قال جعفر : يا سيدى ! مثلى لا يبيع جارية ، قال : فهبها لى ! قال : إن رضيتْ !

فانصرف الأمين حانقاً وعمل على انتزاعها منه ، وفى ليلة زاره فيها واحتال عليه حتى شرب فغلبت الخمر عليه ، فأمر ببذل فحملت إلى « حرّاقته » وما أصبح الصباح حتى عرف جعفر المكيدة فسكت ! !

ولكن الأمين أراد إرضاءه ، فبعث فى طلبه من الغد ، فذهب إليه فى حراقته وبذل جالسة بين يديه تغنى لحناً لإبراهيم الموصلى :

وزعمت أنى ظالم فهجرتنى ورميت فى قلبى بسهم نافذ
ونعم ، ظلمتك فاغفرى وتجاوزى هذا مقام المستجير العائذ

فعرف « جعفر » أنها تعرض بظلم « الأمين » فيما فعل . . . وفطن « الأمين » إلى ما تريد ، فدفع إلى « جعفر » من المال ما أرضاه وانصرف .

ولم تكن بذل مستريحة إلى الأمين ، وكان يحس هذا منها ويحاول أن يستميلها إليه بإهدائها الجواهر الثمينة التى قدرت بعشرات الآلاف من الدنانير ، والتى كانت سبباً فى أن يتقدم أولاد جعفر والأمين إلى ميراثها بعد موتها .

وظلت بذل فى قصر الأمين إلى أن قتل فخرجت وعاشت فى دارها وحيدة مع جاريتها « وشيكة » ولم يمتلكها بعد الأمين خليفة أو أمير ، وكانت تعتمد فى حياتها على ما تملكه من جواهر الأمين ، وما يصل إليها من الخلفاء .

ويقولون : إن كثيراً من الأشراف والقواد ووجهاء العرب تقدموا إلى بذل طالبين الزواج منها فلم تقبل ، وفضلت البقاء فى عزلة عن الناس لا تجيب طلباً ، ولا تنتقل إلا إلى دور الخلفاء حين يطلبونها ! وكثيراً ما كان الخليفة « المأمون » يبعث إليها فتغنيه ، وتلقى الغناء على جواريه ، ويسألها عن نسبة بعض الألحان التى تخفى عليه .

ذكروا أن المأمون اصطبح يوماً وبين يديه « بذل » فأمرها بالغناء وكان القدح فى يده ! فغنت اللحن الذى أوله :

ألا لا أرى شيئاً ألذ من الوعد . . . . . . الخ ، فغيرت فيه ، [1] بما لا يليق

ولكنه ابتسم وقال : أتمى الصوت ! فغنت :

ألا لا أرى شيئاً ألذ من الوعد ومن أملى فيه وإن كان لا يجدى
ومن غفلة الواشى إذا ما أتيتها ومن زورتى أبياتها خالياً وحدى

---

(١) اللفظ صريح فى الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ .

ومن صحبة فى الملتقى ثم سكتة　　وكلتاهما عنـــدى ألذ من الخلد

فطرب المأمون وقال : لو كنت لنا !

وغنت بذل أمام إسحاق الموصلى :

إن ترينى ناحل البدن　　فلطول الهم والحزن
كان ما أخشى بواحدتى　　ليتـــه والله لم يكن

فطرب وشرب وقال : أستاذة تدفع إلى العجب وتوحى بالشراب !

* * *

مكانتها :

نفرد لبذل — على قلة أخبارها — كلمة عن مكانتها ، لأنها أظهر شىء فيها . فهى كجارية جميلة محسنة الغناء قد بلغت الذروة ، ولكنها ليست الجارية التى ظفرت بشهرة واسعة ، وحياة حافلة بالترف والنعيم وتهافت القلوب عليها كغيرها ! والسبب فى ذلك — على ما أظن — رغبتها عن الظهور وتعففها عن التبذل والخلاعة ، ويحس من يقرأ أخبارها أن فى ميولها النفسية كثيراً من الزهد والتصوف ، فهى عند على بن هشام وجعفر بن الهادى والأمين ، لم يعرف عنها تهافتٌ على الشهوات ، ولا ميل إلى الإغراء والتلاعب ، وقد كان فى استطاعتها لو لم تكن زاهدة — أن ترضى بواحد ممن تقدموا للزواج منها ، وجميعهم من أشراف العرب ووجوههم ، أو أن تتهلل لما كان يبديه المأمون لها من رغبته فيها وميله إلى شرائها ، وإنما أعرضت عن كل هذا فعاشت « بعد الأمين » فى دارها وحيدة هادئة .

ولزهدها فى الحياة الماجنة سبب آخر ، هو أنها جارية عالمة راوية ثقة ، لا يغيب عنها لحن واحد من ألحان المتقدمين والمتأخرين ، كما لا يغيب عنها نسبة كل لحن إلى صاحبه ، وقد ألفت كتاباً فى الأغانى ونسبتها إلى أصحابها اشتمل على اثنى عشر ألف صوت ، وأهدته إلى على بن هشام ! كما عرف عنها أنها كانت تغنى وحدها ثلاثين ألف صوت ! !

والغريب أن هذه الجارية لم تكن لها فى الغناء صنعة معروفة « أى لم تضع من عندها تلحيناً خاصاً بها » كما صنع المغنون أمثال الموصلى وابنه وإبراهيم ابن المهدى ، وكما صنعت عريب وجميلة وعزة الميلاء وحبابة وغيرهن . . . ! وإنما كانت تغنى أصوات غيرها فتجيدها وتُحكمها ، إذن فهى مقلدة أو مرددة أو حاكية . . . ! ولكن حسبها أنها مستودع لألحان الغناء العربى ، ومرجع للباحثين عنه والمؤرخين فيه . . . !

وكانت لها منزلة ممتازة لدى الخلفاء والأمراء ، فكلهم يعظمها ويوقر شخصيتها ويدعوها فيستمع إليها ويخضع لحكمها !

حين هجرت « على بن هشام » وعاشت فى منزلها بعد « الأمين » كان يتردد عليها ويتودد إليها ، ويظهر أنها ملّته فلم تكن تستريح إلى زيارته . . . !

وبلغ المأمون أنها غضبى من « على » فأكرهه على أن يذهب إليها فيترضاها . . . !

وذهب على إليها يوماً ــ وهى تمشط شعرها فكرهت دخوله عليها !

فقالت جاريتها وشيكة : يا سيدتى : أتحتجبين على ابن هشام ؟ فدعت بمنديل غطت به وجهها ورأسها وأذنت له فدخل !

فصاحت به بذل : إن كنت أتيتنا بأمر الخليفة فأهلاً وإلاّ فاخرج !

فترضاها وطلب إليها نسبة أربعة آلاف لحن إلى أصحابها . فكتبت له بها جميعها فى يوم واحد !

ولمكانتها كمرجع ضخم فى الغناء، كان يتردد عليها إبراهيم بن المهدى على عظم قدره ويأخذ من رواياتها ، ولما تمكن من الغناء ، وأصبح له فيه صنعة وشهرة استغنى عنها وتناساها ! ! وعز عليها ذلك فذهبت إليه يوماً وغنت أمامه على العود مائة صوت بطريقة واحدة وتوقيع واحد وإصبع واحدة ، فلم يعرف إبراهيم واحداً منها . ثم تركته وانصرفت !

ويشعر إبراهيم بخطر هذه الجارية وعلو كعبها فى الغناء فيستصبغر نفسه ، ويعود إليها زائراً مقراً بتفوقها ، معترفاً بفضلها ، فيأخذ عنها كلما احتاج !

واستدعاها المأمون يوماً وعنده إسحاق الموصلى ، فقال لها : غنينى يا بذل ! فغنت صوتاً ونسبته إلى صاحبه . فخالفها إسحاق فى النسبة واللحن ، فسكتت ساعة ، ثم اندفعت تغنى هذه الأصوات الثلاثة !

أولا من شعر العباس بن الأحنف :

| | |
|---|---|
| أبكى ، ومثلى بكى من حب جارية | لم يخلق الله لى فى قلبها لينا |
| هل تذكرين وقوفى عنـــد بابكم | نصف النهار وأهل الدار لاهونا ؟ |

ثم سكتت قليلاً ، واندفعت تغنى ثانياً من شعر إبراهيم الموصلى فى مدح الرشيد :

| | |
|---|---|
| إذا ظُلَم البـــلاد تجللتنا | فهـــارون الأمام لهـــا ضياء |
| بهارون اســتقام العدل فينا | وغاض الجور وانفسح الرجاء |
| رأيت الناس قد سكنوا إليــــه | كما سكنت إلى الحرم الظباء |
| تبعت من الرسول سبيل حق | فشأنك فى الأمور به اقتداء |

ثم سكتت برهة وغنت ثالثًا من شعر قيس بن ذريح :

بكيت ، نعم بكيت ، وكل إلف إذا بانت قرينته بكاها

وما فارقت لبنى عن تقال ولكن شقوة بلغت مداها

فطرب المأمون واستعادها مرارًا ! ثم نظرت « بذل » إلى إسحاق وسألته عن صانعها فاضطرب ولم يعرفها !

ثم قالت للمأمون : يا أمير المؤمنين ! هى والله لأبيه . . . ! تعنى « إبراهيم الموصلى » وقد أخذتها من فيه ، فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره ؟ فاشتد ذلك على إسحاق ، وخجل أمام المأمون وانصرف حاقدًا عليها ، وقد عرف عنه هذا الموقف المشين فى الأوساط الغنائية .

وبعد : فهذه بذل التى لم ينصفها التاريخ بالشهرة التى تستحقها كما أنصف غيرها ، وتلك حياتها وخصائصها ، وهى كما نرى أستاذة لكثير من المغنين ولا سيما الجوارى ، أمثال شارية جارية إبراهيم بن المهدى ، ومتيم الهاشمية جارية على بن هشام أيضًا .

# عريب
## زعيمة الغناء العباسى

من هى ؟

هذه شيخة الغناء العباسى ، كما كانت جميلة شيخة الغناء الحجازى ، وقد اختلفت الروايات وتعددت فى نسبها وحياتها ، ثم فى مدى صلتها بمن اتصلت بهم من الخلفاء والعظماء والقواد .

وأوضح الروايات وأقربها إلى العقل وأشدها قربـًا بحياة عريب هى أنها ابنة جعفر بن يحيى البرمكى !

ذلك أن أم « عريب » كانت تسمى « فاطمة » وكانت قيِّمة لأم عبد الله بن يحيى بن خالد البرمكى ، ورآها جعفر فَهَوِيها ، وسأل أم عبد الله أن تزوجها إياه ففعلت ، وعرف الخبر يحيى بن خالد فأنكره ولام جعفرًا وعنَّفه ، وقال له : أتتزوج جارية لنا لا نعرف لها أبـًا ولا أمـًّا ؟ اشتر مكانها مائة جارية واتركها !

لم يستطع جعفر أن ينزل على رأى يحيى — وهو مقتنع به — كما لم يستطع أن يظل جهرًا على زواجه منها ، فأسكنها فى السر دارًا بناحية الأنبار ، ووكل بها من يرعاها ، وكان يتردد عليها فولدت « عَرِيبَ » سنة إحدى وثمانين ومائة ، ولكن أمها ماتت وتركتها طفلة ، فدفعها جعفر إلى امرأة نصرانية لتربيتها ، ولما وقعت نكبة البرامكة باعتها النصرانية إلى « سِنبس » وكان تاجر قيان مشهور ، وهذا باعها إلى إسماعيل المراكبى فكانت جاريته .

إذن « فعريب » برمكية الدّم ، وإن كانت لم تتمتع بما تمتع به البرامكة من رفاهية العيش ونعيم الحياة ! ! ، ويقول ابن المعتز : إنه سمع الفضل بن مروان يقول : كنت إذا نظرت إلى قدمى « عريب » شبهتها بقدمى جعفر بن يحيى! وتعجّب قوم من بلاغة « عَريب » وأدبها فقال واحد منهم : فما يمنعها من ذلك وهى بنت جعفر بن يحيى ؟

وكانت عريب مغنية حاذقة ، وشاعرة رقيقة ، ومحدثة بارعة ، كما كان لها إلمام نادر بالثقافات العربية كالأدب والشعر والتاريخ وعلوم اللسان والبلاغة والشريعة ، وقد أخذت هذه العلوم من علمائها بالبصرة وهى عند مولاها « المراكبى » ، وقد اشتهرت بالحسن والجمال والدلال والظرف والدلال واللباقة ، وإنها لأعظم مغنية عباسية فى جودة الضرب على العود وإتقان الصنعة والمعرفة بفن النغم والأوتار ، وقد قيل : إنه لم يأت بعد القيان الحجازيات أمثال « جميلة وعزة الميلاء ، وسلامة الزرقاء » مغنية بارعة كعريب .

وحدث ابن المعتز أنه جمع دفاترها وصحفها التى جمعت فيها غناءها فوجدها أكثر من ألف صوت !

ولعظم مكانتها بين المغنين قامت بينهم ضجة كبرى فى تقدير فنها ونقد أصواتها ، وانقسموا جماعات وفرقًا ، كل يبدى رأيه ما بين قادح ومادح ، على أن السواد الأعظم من هذه الآراء يقر لها بالفضل والزعامة والابتكار فى خلق الألحان ، وأن لها مذاهب خاصة عُرفت باسمها وأخذها عنها كثير من المغنين والمغنيات !

لذلك ، فهى أصل كبير من أصول الغناء العباسى ، كما كانت جميلة أصلاً من أصول الغناء الحجازى ، وهى فوق هذا نقادة بارعة صريحة ، يعتد برأيها ويؤخذ به كحجة فنية ودليل قاطع !

دخل الهشامى على المعتز وعنده « عريب » تغنى ، فقال له : يا ابن هشام ! غن ! قال : تبت من الغناء مذ قتل سيدى المتوكل . فقالت عريب : قد والله أحسنت حيث تبت ! فإن غناءك كان قليل المعنى ، لا متقن ولا صحيح ولا طريب ! فأضحكت المجلس جميعاً ! فقام الهشامى خجلاً وأطلق لسانه فيها !

ولم نقف فى أخبار عريب – وهى كثيرة – على من علمها الغناء ، حتى إن الأصبهانى نفسه لم يعرض له ، ولم يورد فى سياق أخبارها أكثر من « أن مولاها المراكبى خرج بها إلى البصرة وأدبها وعلمها الخط والنحو والشعر والغناء » . والذى أميل إليه أن « عريب » تثقفت على علماء البصرة فى العلوم اللسانية والأدبية ، وأما الغناء فإنها بدأت أول ما بدأت بتقليد ألحان لغيرها أعجبتها ، ولما لها من استعداد غنائى خالص استطاعت أن تستغنى عن ألحان غيرها فتخلق من مواهبها وابتكارها ألحاناً عرفت بها ، وصارت مذاهب يتناقلها عنها المغنون وينسبونها إليها ، فهى بهذا صاحبة مدرسة غنائية جديدة فى الغناء العباسى ، لم تخل – طبعاً – من امتزاجها بالغناء الحجازى القديم ، لذلك كانت زعيمة الغناء فى هذا العصر .

* * *

كيف عاشت ؟

هذه امرأة أولاً . . . ومغنية ثانياً . . . ! ولقد عاشت فى الحياة فأدت وظيفتها كاملة كأنثى ، وعملها كاملاً كمغنية ، وما رأيت جارية ممن كتبت أو قرأت عنهن نجحت فى هذين الجانبين معا إلا « عريبَ » .

أما نجاحها فى الحياة كامرأة فهو ما سنفصله فيما يأتى من علاقاتها الوجدانية مع الخلفاء والأمراء والقواد ، وأما نجاحها كمغنية فحسبها أن يعترف

لها إبراهيم بن المهدى ، وإبراهيم الموصلى وإسحاق ابنه ، وهم أساطين الغناء ، ولقد قال عنها إسحاق الموصلى : « ما رأيت امرأة أضرب من « عريب » ولا أحسن صنعة ووجها ، ولا أخفّ روحا ، ولا أعذب دلالاً ورشاقة ، ولا أحسن خطًّا بارعًا ، ولا أبلغ كلامًا ، ولا أسرع جوابًا ، ولا ألعب بالشطرنج والنّرد ، ولا أجمع لخصلة حسنة لم أرها فى امرأة غيرها قط ! » حتى إن يحيى بن أكثم قاضى قضاة المسلمين أقر لها بذلك حين سأله حماد بن إسحاق الموصلى عنها ، فقال : هى كذلك وأكثر ! قال حماد : وهل سمعتها ؟ قال نعم ! فى دار المأمون ! ولما عرف إسحاق ما دار بين حماد ابنه ويحيى بن أكثم ضحك وقال له : أما استحييت من قاضى القضاة أن تسأله عن مثل هذا ؟ !

هذا ، ولما اختصت به « عريب » من أنوثة كاملة ، وفن أدبى غنائى ممتاز ، كانت حياتها مصطخبة عارمة بين الرجال ، وكان موقفها بينهم مترعًا بالأحداث والمفاجئات ، فهى من ناحيتها تذكى هذا الاضطراب بما تملك من أسلحة الأنوثة الجائعة ، والميول الخليعة الماجنة ! والرجال من ناحيتهم يتصارعون بما فيهم من تشوق لها ورغبة فيها . . . !

ولقد دخل فى حياتها كثير من الرجال العظام ، وكان ألمعهم عبد الله بن إسماعيل المراكبى مولاها الأول ، وحاتم بن عدىّ أحد قواد خراسان ، ومحمد بن حامد المعروف بالخشن من قواد خراسان ، والخلفاء محمد الأمين ، والمأمون ، والمعتز ، والمعتصم والواثق ثم أبو عيسى بن الرشيد أخو المأمون ، وصالح المنذرىّ الخادم وإبراهيم بن المدبر ! وهؤلاء لهم فى حياة « عريب » أثر معروف كما كانت لها فى حياتهم حوادث وأخبار كثيرة .

واتصل بها غير هؤلاء كثيرون من المغنين والولاة والحكام ولكنه اتصال وقتى عابر تقتضيه الظروف والمناسبات .

وللكلام عن حياة « عريب » الوجدانية والفنية ينبغى أن نلم بحياتها مع كل واحد من هؤلاء ، ولنبدأ بمولاها الأول :

عريب والمراكبي والقائدان :

قلنا إن « عَريب » بنت جعفر بن يحيى ، وأن حاضنتها النصرانية باعتها إلى « سنبس » تاجر القيان بعد نكبة البرامكة ، وأن هذا باعها إلى عبد الله ابن إسماعيل المراكبي. . . وأعجب بها المراكبي فرباها فى منزله ، وخرج بها إلى البصرة فأدبها وعلمها واحترفت الغناء وجلست له فى دار مولاها ، وكان مولاها كغيره ممن يعجبون بجواريهم ، فكان يفتح أبواب داره للسماع ، فتردد عليها المعجبون ، وكثر الزائرون والمتطلعون إلى « عريب » ، ولقد كانت « عريب » فاحصة أديبة ، فقد استطاعت أن تنتقى من بين المعجبين بها قائداً معروفاً هو « حاتم » بن عدى ولقد استهونه فمال ، وأغرته فأجاب ، فوقع كل فى شباك الآخر وعملا معاً على التخلص من المراكبي الذى كان مكروهاً من « عريب » مستخفاً به من ابن عدىّ !

واعتزمت « عريب » الفرار إلى حاتم ، فقامت ليلاً وسيدها نائم ، فلفّت ثيابها ، وتدلت من فوق الحائط بحبل غليظ أعدته لذلك ، فتلقاها ابن عدىّ وسار بها إلى مكان مجهول ..! ومما يقولون : إن ابن عدى أرسل إلى المراكبي يقترض منه « عوداً » لتغنى « عريب » عليه ! فأقرضه وهو لا يعلم أن جاريته عنده وأقامت الجارية مع عشيقها أياماً حتى ملّته ! ذلك أنه كان قد ركبه دين فساءت حاله ، فلم تستطع البقاء معه ففرت دون أن يشعر بها !

وكان للمراكبي ابن يسمى عيمى ، فقال شعراً فى ذلك يُعَيّرُ به أباه :

قاتل الله عريبـا ... فعلت فعـلا عجيبا
ركبت والليـل داج ... مركباً صعباً مهيبا
صبرت حتى إذا مـا ... أقصد النوم الرقيبا
فتـدلت لمحب ... فتـلقـاهـا حبيبا

ومنهـــا :

أيها الظبى الذى تسـ ـــحر عينـــاه القلوبا
والذى يأكل بعضاً بعضـــه حسنا وطيبا
كنت نهباً لذئاب ولقـــد أطعمت ذيبا
وكذا الشاة إذا لم يك راعيهـــا لبيبـــا
ولقد أصبح عبـــد اللـ ـه كُشخانا[1] حريبـــا
قد لعمرى لطم الخـ ـد وقد شق الجيوبـــا
وجرت منـــه دموع بلّت الذقن الخضيبا

* * *

فرت عريب من حاتم بن عدى ، فحزن عليها وراح يبحث عنها دون جدوى فقال فيها وغنته « عريب » :

ورُشّوا على وجهى من الماء واندبوا قتيل عريب لا قتيل حـــروب
فليتـــك إذ عجلتنى فقتـــلتنى تكونين من بعد الممات نصيبى

وقام مولاها وعشيقها بالبحث عنها ليلاً ونهاراً ، وكل يخفى بحثه عن الآخر ، حتى مر ابن أخ للمراكبى ببستان فى بغداد كان فيه قوم يغنون ، وكانت عريب فيهم ، عرف ابن الأخ صوتها فأمسك بتلابيبها حتى حضر مولاها فساقها إلى داره ، وضربها مائة مقرعة وهى تصيح : يا هذا ! لم تضربنى ؟ فإن كنت مملوكة لك فبعنى ! فاستعطفها وقبل رأسها ويديها ووهب لها عشرة آلاف درهم فقبلت وأقامت معه على مضض ! وعادت حياة « عريب » فى دار مولاها كما كانت وعاد هو ففتح بابه للمعجبين بعريب وبغنائها ، وما لبثت الجارية حتى وقعت فى غرام جديد ! بمن هذه المرة ؟ بحمد بن حامد القائد الخراسانى المعروف بالخشن ، ولقد أحبته « عريب » حباً عميقاً

---

(١) الكشخان الذى لا يغار .

وقالت فيه أشعاراً كثيرة وغنت بها ، وكان ابن حامد أشقر أزرق العينين وفيه تقول :

بأبى كل أزرق أصهب اللون أشقر
جن قلبى به ولي س جنونى بمنكر

وعرف مولاها غرامها بابن حامد فمنعها الخروج ، وإذا خرجت أرسل معها جارية له تدعى « مظلومة » لتراقبها وتمنعها من لقاء الحبيب . . . ! وما يكون شعور مظلومة نحو ابن حامد ؟ إنها هى الأخرى تعشقه ، ولا أمل لها فيه ما دامت عريب فى طريقها . . . فلا أقل من أن تعمل على لقائه وتتمتع بالنظر إليه ، وعملت مظلومة على تنفيذ هذه الخطة ، فكانت تهيئ لعريب وابن حامد أسباب اللقاء وهى الرقيبة عليهما . . . ! وفى هذا يقول بعض الشعراء :

لقد ظلموكِ يا مظلومَ حتى أقاموك الرقيب على عريب
ولو أولوك إنصافاً وعدلاً لما أخلوك أنتِ من الرقيب
أتنهيْنَ المريب عن المعاصى فكيف وأنت من شأن المريب!
فإن يسترقبوك على عريب فما رقبوك أنت من القلوب

لم تطق عريب العيش بجانب مولاها وهى مدلهة بابن حامد ، كما لم تكتف بلقائه على يد مظلومة بين الحين والحين ، ففرت إليه ! فتلقاها وحماها بالقوة وحجبها فى منزله !

وحاول مولاها أن يسترجعها من ابن حامد فلم يقبل ، فشكاه إلى المأمون الذى اشتط بدوره وتحايل فأخذها لنفسه من الاثنين ! وسيأتى تفصيل القصة فى أخبارها مع المأمون !

وتحايلت عريب فقابلت ابن حامد وهى عند المأمون ، فلما عرف الخبر حبسها شهراً فى مكان مظلم ، ثم رق لها فأخرجها وهى تقول :

لو كان يقدر أن يبثك ما به     لرأيت أحسن عاتب يتعتب
حجبوه عن بصرى فمُثِّل شخصه     فى القلب ، فهو محجَّب لا يحجب

وخرجت من قصر المأمون ليلاً متخفية ، فأتت ابن حامد فى معسكره ، فراح يعاتبها ويقول لها : صنعت كيت وكيت ! فقالت له : يا عاجز ! خذ بنا فيما نحن فيه ! من سرور . . . !
وإذا كان غد ، فأرسل إلىَّ عتابك وأنشدت :

دَعى عدّ الذنوب إذا التقينا     تعالىْ لا أعدُّ ولا تعدى
فأقسم لو هممتِ بمد شعرى     إلى باب الجحيم لقلتُ مُدّى

* * *

وقع بين عريب وبين ابن حامد شر كاد يقضى على ما بينهما ، فتحايلت حتى قابلته فقالت : كيف قلبك يا محمد ؟ قال : أشقى ما كان وأقرحه ! قالت : استبدل تسلُ ! قال : لو كانت البلوى باختيار لفعلت ! ولكنى أصبر مكرها وأتعزّى بقول العباس بن الأحنف :

تعب يطول مع الرجاء لذى الهوى     خيرٌ له من راحة فى الياس
لولا كرامتكم لما عاتبتكم     ولكنتم عندى كبعض الناس

فذرفت عيناها وانصرفت .

وقلّت مقابلة عريب لابن حامد ، فشك فيها واتهمها بالغدر والخيانة ، وأكثر فى ذلك ، فقالت متوجعة :

ويلى عليك ومنكا — أوقعت فى الحب شكا
زعمت أنى خئون — جورًا علىّ وإفكا
إن كان ما قلت حقا — أو كنت أزمعت تركا
فأبدل الله ما بى — من ذلة الحب نُسكا

ورأى ابن حامد شدة الرقابة عليه وعلى عريب من المأمون وحُرّاسه فسكت على مضض ، وحبس أنفاسه فى صدره ، ولكنّ « عريب » كانت تتحين الفرص لتلقاه ، وتّهيئ لذلك الوقت والمكان . وكذلك المرأة إذا أحبت ! كتبت إليه مرة رسالة تستزيره فيها وتخبره بسنوح الفرصة لهذه الزيارة ! فرد عليها أنه خائف على نفسه من المأمون فكتب إليه هذا الشعر وغنت فيه :

إذا كنت تحذر ما تحذر — وتزعم أنك لا تجسر
فمالى أقيم على صبوتى — ويوم لقائك لا يقدر ؟
تبينت عذرى وما تعذر — وأبْليت جسمى وما تشعر
ألفتَ السرور وخليتنى — ودمعى من العين ما يفتر

فما قرأ هذا الشعر حتّى ذهب إليها مخاطرًا بحياته !

وقالوا : إن المأمون لما سمع أشعار « عريب » فى محمد بن حامد وعرف أن العقاب والحبس والتهديد والوعيد والرقابة ، كل أولئك لم يجد شيئًا فى عريب وعشيقها ، قال : لن تنفعنا هذه الجارية ! وزوجها إياه . . . !

* * *

عريب والأمين :

كان الأمين فى حياة أبيه الرشيد على كثير من الدّل والتيه ، وكانت له ميول ورغبات خاصة لا يستريح حتّى ينالها جميعها ، وكانت عريب وقتئذ

صبية صغيرة عند مولاها « المراكبى » فسمع الأمين بجمالها وحسنها ، وزادها فى نظره حُسناً عمه إبراهيم بن المهدى، وكان من أساتذة المغنين ، واشتاق الأمين إلى شراء عريب فلم يقبل مولاها فحقد عليه ذلك ، ولما تولى الخلافة عاد إلى طلبها ، فأسرف المراكبى فى ثمنها حتى بلغ مائة ألف دينار ، فقبل الأمين الصفقة وأخذ « عريب » ولم يدفع من ثمنها شيئاً .

وجاء المراكبى إلى باب الأمين يطلب ثمن الجارية فقبض أعوانه عليه وحبسوه . . ! وطالبوه بخمسمائة ألف درهم ، قيل إنه اقتطعها من نفقات « الكراع » أيام الرشيد ، فاستشفع الرجل بالفضل بن الربيع فشفع له عند الأمين ، فأطلق سراحه وانصرف دون أن يأخذ شيئاً . . . !

وخلا الجو للأمير وقد امتلك « عريب » وكان بها مشغوفاً وبغنائها طروباً ! غنت أمامه يوماً :

لكل أناس جوهر متنافس ... وأنت طراز الآنسات الملائح

فطرب وصاح : كيف تكونين لغير الخليفة ؟ !

ولم تطل أيام الأمين حتى قتل ، ففرت « عريب » إلى دار مولاها الأول ، لا رغبة فى الحياة بجانبه ، وإنما رغبة فى مخالطة المعجبين بغنائها وجمالها ، ومنهم ابن عدى وابن حامد وقد أوردنا خبرهما معها . وقالوا : لما قتل الأمين ، هجم المراكبى وأعوانه على داره فأخرجوا « عريب » قهراً ! فوقفت أمه « زبيدة » فى وجوههم فلم يتورعوا ، وقد صاح المراكبى وهو خارج : إن ابنك لم يدفع ثمنها . . . ! ومن ذلك الحين أصبحت « عريب » امرأة تصارع بجمالها وأنوثتها أبطال الرجال .

* * *

عريب والمأمون :

ولى المأمون الخلافة وكان قد بلغه خبر « عريب » وما هى عليه من الجمال وجودة الغناء ، كما بلغه تصارع القواد عليها ، وشراء الأمين إياها ، وفرارها

إلى ابن حامد القائد الخراسانى ، وما بينه وبينها من حب عارم وتصادف أن حضر إليه مولاها الأول يشكو « ابن حامد » أنه اغتصب منه « عريب » ويتوسل إليه أن يردها إليه لأنه لا يستطيع العيش بدونها ، سمع المأمون الشكوى ، ووقف على الضجة التى أحدثتها عريب بين القواد والمعجبين بها ، فماذا هو صانع ؟

لقد أمر بإحضار ابن حامد مكبلاً ، كما أمر أن يجرد من ثيابه ويضرب بالسياط حتى يُحضر « عريب » ! وعلمت عريب الخبر فحضرت راكبة حمارًا وقد كشفت عن وجهها وهى تصيح : ويلاه ! لم تضربوه ؟ لا أريد المراكبى ! إن كنت مملوكة له فليبعنى !

ورآها المأمون . . . فامتزجت بشعوره ، وتبلبلت أفكاره ، وتيقظت فى نفسه نوازع الشوق إليها ، وعفا عن ابن حامد ! ولكن : أيردها إليه أم إلى مولاها الأول ؟ لا إلى هذا ولا إلى ذاك ! ولكنه يحتال حيلة لطيفة فيرسلها إلى « قتيبة بن زياد القاضى » ليحكم فى أمرها ، ويُحضِر حضرة القاضى مولاها فيسأله البينة أنها ملك له ! . . . فيدهش الرجل ويتعجب ويصيح ! ما سمعنا بمثل هذا فى القضاء ؟ كيف أطالب بما لم يطالب به أحد فى امتلاك الرقيق ؟

وأحس المأمون أن حجة الرجل قوية ، وأن القاضى ربما حكم له بها ، فيبعث بها إلى قاض آخر ، هو « محمد بن عمر الواقدى » وكان يعلم ما فى نفس المأمون نحو « عريب » فيحكم ببيعها ! !

ومن يشتريها ؟ المأمون ! يشتريها بخمسين ألف درهم فيدفعها لمولاها المراكبى وهو يقول له : لولا أنى حلفت ألا أشترى مملوكًا بأكثر من هذا لزدتك ! ولكنى سأدفع إليك شيئًا تكسب فيه أضعاف ثمنها ، ورمى إليه بخاتمين من ياقوت أحمرَ قيمتهما ألف دينار ! وخلع عليه خلعًا عظيمة ! .

قال مولاها : يا أمير المؤمنين ! إنما ينتفع الأحياء بمثل هذا ! . أمّا أنا فإنى ميت لا محالة ! لأن هذه الجارية كانت حياتى .

قالوا : فخرج الرجل من حضرة المأمون وقد اختلط عقله ، ومات بعد أربعين يومًا من بيعها . . . !

* * *

وحدثوا أن المأمون اشترى « عريب » بمائتى ألف درهم ، وذكروا فى هذا أن « إبراهيم بن رباح » قال : كنت أتولى نفقات المأمون ، وقد وصف له إسحاق الموصلى « عريب » فأمره بشرائها ، وأمرنى أن أحملها إليه ، وأن أدفع مائة ألف درهم ثمنها ومثلها لإسحاق ففعلت . . . ! ولم أدر كيف أثْبتُها فى باب النفقات وأخيرًا أثبتها أنها ثمن جوهرة وأجرة صائغ ودلاّل . . . ثم جاء الفضل بن مروان ، وكان قيِّما على المال فحاسبنى فى ذلك ، وغضب لأن أدفع من بيت المال مائتى ألف درهم ثمن جوهرة وأجرة صائغ ، وشكانى إلى المأمون ، فلما حضرت بين يديه غضب علىّ وعنَّفنى ، فهمست فى أذنه أنه ثمن الجارية وصلةُ إسحاق . فهدأ . . . ثم قلت له : أيُّما أصوب يا أمير المؤمنين ؟ ما فعلت ، أم أثبت فى الديوان أنها خرجت فى صلة مُغنّ وثمن مغنية ؟ فضحك المأمون وقال : الذى فعلت أصوب ! ! ثم قال للفضل : يا نَبَطى ! لا تعترض على كاتبى هذا فى شىء . . . !

* * *

وخلُصَت عريب للمأمون وقد كانت بعض أمانيه ، بل كل آماله ، ولقد تشوق إليها وتمناها قبل أن يراها أو يسمع صوتها .

حدث « عَلوية » وهو من كبار المغنين العباسين ، أنه كان سائرًا يومًا فلقيه المراكبى مولى عريب وقال له : يأيها الرجل الظالم ! عريب هائمة بك ، وإنها لتحلم بك كل ليلة ثلاث مرات . أفلا جئت إلينا لتراك ؟

قال علوية : فذهبت إليها فلما رأتنى عانقتنى وقالت : اجلس أسمِعك غناء فى شعر أبى العتاهية ، واندفعت فغنت :

عذيرى من الإنسان ، لا إن جفَوته صفا لى ، ولا إن كنت طوع يديه

وإنى لمشتاق إلى قرب صـــاحب يروق ويصفو إن قدَرت عليه

فرقصت طرباً من هذا الغناء ، وبينا أنا كذلك وقد سكرت من الشراب والغناء وإذا برسل المأمون يطلبوننى . . . فدخلت عليه وأنا أتمايل وأغنى الصوت الذى سمعته من « عريب » فطرب ، وسألنى عن خبره فشرحته له . . . فقال : ادنُ منى ! فدنوت ، وأعدت الغناء سبع مرات ! فقال فى آخر مرة : يا علوية ! خُذ الخلافة منى وأعطنى صاحبة الصوت . . . !

وهكذا يبذل المأمون الخلافة فى « عريب » قبل أن يراها أو يعاشرها ! وها هى ذى الآن فى يديه . . . ! فا حاله معها ؟

* * *

اتفقت الأحاديث على اختلافها أن المأمون ذهب فى حب « عريب » كل مذهب ، وأنها ملكت عليه أحاسيسه حتى سميت « المأمونية » وأنه فى بعض الأحيان كان يقبل رجليها . . . ! ولقد قالت مرة حين قبلهما : والله يا أمير المؤمنين لولا ما شرفهما الله بوضع فَمِك الكريم عليهما لقطعتهما . . . ! ولكن لله علىّ ألا أغسلهما لغير وضوء أو طهر إلا بماء الورد ما عشت ! فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت !

وحدثت « تُحفة » جارية عريب أنها كانت تغلف شعرها بستين مثقالاً من المسك والعنبر ، وتغسله كل جمعة ، فكانت الجوارى تقتسمن غسالة رأسها بالقوارير . . . !

ملكت عريب على الخليفة أمره ، فقدم إليها ما تريد ، وأطاعها فيما

تشاء حتّى إنه ليطيعها حين تقترح أن يحضر ابن حامد بعض مجالسها مع الخليفة ! يطيعها وهو يعلم ما كان بينها وبينه ، ولكنه مضطر فعليه أن يركب الصعب !

قال ابن المعتز : كنا نصطبح مع المأمون يوماً وعنده ندماؤه وبينهم ابن حامد — على كره منه — فأومأ ابن حامد إلى عريب بقُبلة ، فاندفعت دون إذن المأمون فغنت :

رمى ضِرع ناب فاستمر بطعنـــة كحاشـــية البُرد اليمانى المسهَّم

تريد بهذا الغناء جواب ابن حامد ، وأنها لو فعلت لكان جزاؤه طعنة لا قبلة ، ففطن المأمون : وقال لها : أمسكى ! فأمسكت ! ثم التفت إلى الندماء وقال : من فيكم أومأ إلى عريب بقبلة ؟ والله لئن لم يصدقنى لأضربن عنقه ! فقام ابن حامد وقال : أنا يا أمير المؤمنين ! والعفو أقرب للتقوى ، فعفا عنه !

وقال بعض الندماء : كيف استدل أمير المؤمنين على ذلك ؟ قال المأمون : إن « عريب » لا تبتدئ بالغناء إلا لمعنى طارئ ، ومن عادتها أن تلاعب عودها قبل الغناء ! وأنها غنت ولم تستأذن ! فعلمت أن غناءها على هذا النحو جواب لشىء . ولا يكون هذا الشىء إلا طلب قبلة . . . فأجابته بالطعنة التى وردت فى البيت . . . !

هذه عريب حتّى فى حضرة المأمون ! وهذا ابن حامد عشيقها الواثق من مكانته فى نفسها ، ومن مكانة عريب فى نفس المأمون ، وهذا هو المأمون الشاعر الأديب الذى برهن فى هذه الملاحظة على دقة الحس وصفاء الفهم والإدراك !

ووقع بين المأمون وعريب شىء أغضبها منه فهجرته ، فدخل عليه

أحمد بن أبي [1] دُؤَاد فقال له المأمون : يا أحمد ! تعال فاقض بيننا ! فقالت عريب : لا حاجة لى فى قضائه ودخوله فيما بيننا ! وأنشدت :

ونخلط الهجر بالوصـــال ولا يدخل فى الصلح بيننا أحد

وكان المأمون لا يطيق عنها فراقًا ، حتّى إنه ليأخذها معه فى كل تنقلاته وفى حروبه ببلاد الروم ، ومع هذه الملازمة وتلك الرقابة الشديدة ، فقد كانت « عريب » تحتال فى لقاء ابن حامد !

* * *

حدث الحمدونى قال : كنت فى مجلس المأمون ليلة فى بلاد الروم . وكان بالسماء ظلام ورعد وبرق ، فبعثنى برسالة إلى معسكر « المعتصم » وبينا أنا سائر إذ سمعت وقع حوافر دابّة ورائى فرهبت ، وتبينت الراكب على ضوء بارقة برقت فإذا هى عريب ! قلت : عريب ؟ قالت : نعم ! حمدون ؟ قلت : نعم ! فسألتها من أين أقبلت هذه الساعة ؟ قالت : من عند محمد بن حامد ! قلت : وما صنعت عنده ؟ قالت : يا غبى ! عريبُ تجىء فى هذا الوقت من عند ابن حامد خارجة من معسكر الخليفة ، متخفية راجعة إليه ، وتقول لها : أى شىء صنعت عنده ؟ صليتُ معه التّراويح ! أو قرأت عليه جزءًا من القرآن ! أو دارسته شيئًا من الفقه ! يا أحمق! تحادثنا وتعاتبنا وشربنا وغنينا . . . [2] وانصرفنا . . . ! أفهمت ؟

قال الحمدونى : فغاظتنى ، ومضيت فأديت الرسالة ، ثم عدت إلى المأمون وأخذنا فى الحديث وتناشدنا الأشعار . . . وهممت أن أخبره الخبر فرهبته ، وأشفقت على « عريب » فى نفسه ، وقلت : أقدم له تعريضًا بشىء من الشعر فهو فاهم لا محالة ! وأنشدت :

---

(١) أحد قضاة الدولة العباسية

(٢) الأغانى ج ١٨ ص ١٨٩ وفى النهاية ج ٥ ص ١٠٢ .

ألا حيٍّ أطلالاً لقاطعــة الحبل ألوف تساوي صالح القوم بالرَّذْل

فلو أن ما أمسى بجانب تلعــة إلى جَبَلَى طىٍّ فساقطة الحبل

جلوس إلى أن يقصر الظل عندها لراحوا وكلُّ القوم منها على وصل

فقال لى المأمون : اخفض صوتك لا تسمع « عريب » فتغضب وتظن أننا فى حديثها ، فأمسكت عما أردت أن أخبره به !

هذا شعر لا شك أنه تعريض ، وإن حرص المأمون على ألا تسمع « عريب » هذا التعريض لدليل على أنه يعلم أمرها . . . أو على الأقل لا يغيب عن ذهنه طبيعتها من أنها لم تنس ابن حامد ، وأنها تترك أشراف الناس لتتصل بأراذلهم ، وأنها تصل الناس جميعًا إذا أرادوا وصالها . . . فهى بذلك غير متمنعة . . . ! وهى بذلك ليست للمأمون وحده . . . !

ومع كل هذا فالخليفة يحبها ويؤثرها حتى على نفسه ! وإنه ليشتاق إليها هذه الليلة فيبعث فى إحضارها فتحضر ، فيجلسها بين يديه ويقول لها : غنى ! فتغنى :

ماذا بقلبي من دوام الخفــق إذا رأيت لمعــان البرق ؟

من قِبــل الأردن أو دمشــق لأن من أهــوى بذاك الأفق

فارقتــه وهو أعــز الخلــق علىَّ ، والزور غــير الحق

ذاك الذى يملك منى رِقى ولست أبغى ما حييتُ عتــقى

وما فرغت من الغناء حتى تنفست نفسًا كاد يشق ضلوعها ! فقال بعض الحاضرين : هذا والله تنفس عاشق ! قالت : اسكت يا عاجز ! أنا أعشق ؟ والله لقد نظرت نظرة مريبة فى مجلسى فادَّعاها عشرون رئيسًا ظريفًا ممن كانوا فيه ! ووالله لم يكن فيهم واحد عنيتُه !

* * *

وعتب المأمون يوماً على « عريب » فى بعض الأمر فهجرها أياماً ! ثم مرضت فعادها وقال لها : كيف وجدت طعم الهجر ؟ قالت : يا أمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ذم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا ، فخرج المأمون إلى جلسائه فأخبرهم بحديثها وقال : أترى لو كان هذا من كلام النّظام[1] لم يكن كثيراً ؟ وتجادل المأمون مع أحد جلسائه يوماً فى صوت غنائى فقال : علىّ « بعريب » ! فجىء بها وهى محمومة ، فسألها عن صاحب الصوت فقالت : لى ! قال : غنيه ! فغنت :

دعى عدّ الذنوب إذا التقينا  تعالى لا أعُدُّ ولا تعدى[2]

. . . إلخ الصوت . . . فقال المأمون : ومن القائل تعالى . . . ؟ ! فأمسكت « عريب » وخجلت . . . ! وابتسم المأمون وأذن لها بالانصراف ! فمضت وقد تضاعفت عليها الحمى .

وحياة عريب مع المأمون غاصة بالأخبار المتشابهة المتناقضة التى لا تفيدنا عنها شيئاً أكثر مما ذكرنا ، ولقد ظلت فى قصره طول حياته حتى مات رحمه الله ، فبيعت فيما كان يملك من جواهر وقيان ، وسنرى « لعريب » أخباراً أخرى ماجنة مع بعض من عشقتهم غير من مضْوا فى الكلام عليها !

* * *

عريب وبعض الخلفاء :

مات الخليفة المأمون فبيعت «عريب» فى ميراثه ، والعجب أنّه لم يُبع واحد أو واحدة من عبيد المأمون وجواريه غيرها !

ومن اشتّراها ؟ الخليفة المعتصم ! اشتّراها وحدها دون غيرها من مخلفات المأمون ، فكأن هذه وحدها كانت شغله الشاغل ، لذلك أسرف فى ثمنها فدفع مائة ألف درهم ثم أعتقها !

---

(١) أحد فلاسفة المتكلمين وزعيم المعتزلة .

(٢) تقدم الصوت فى عريب مع ابن حامد .

ويظهر أن « عريب » لم تجد ناحية واحدة فى المعتصم تستريح إليها ، لذلك عرفت بكراهته ومناوأته ، واتفق أن المعجبين بها وعشاقها قد تهافتوا عليها وهى عنده ، فكان أمام أمر واحد هو ألا يبقى عليها ويتركها وشأنها . . . !

قال ابن المعتز : كان سبب إهمال المعتصم « عريب » أنه وجد لها كتاباً بخط يدها إلى العباس بن المأمون ببلاد الروم تقول فيه : اقتل أنت العلج[1] ، حتى أقتل أنا الأعورَ الليليّ ههنا ! تقصد بالأعور الليلى الواثق ، لسهره ليلاً ، وكان المعتصم قد استخلفه ببغداد وخرج هو لمحاربة الروم ، وتقصد بالعلج المعتصم نفسه . . . ! — وكان جزاؤها فى ذلك أن أهملها المعتصم وأخرجها من قصره وتركها وشأنها !

ولست أدرى كيف يسكت الخليفة عن مثل هذا التصرف من جارية ، وقد عرف ما تنطوى عليه طويتها من أمور خطيرة سياسية كهذه ؟ وليس لهذا من تعليل سوى ماكان لعريب من مكانة فى نفوس الخلفاء والأمراء ، على أن الخلفاء كانوا يغدرون بأبنائهم وأخواتهم ، ويفتكون بأقرب الناس إليهم لأقل شبهة أو مظنة تتعلق بالخلافة ، فما بالك بتلك ، وقد ضبطت بجريمة كبرى واضحة لا لبس فيها ! !

وهكذا كانت تصنع الأنوثة ، والفن فى نفوس هؤلاء الناس . . . !

* * *

واتصلت عريب بالخليفة « الواثق » ولكنه لم يعرف عنه أنه اشتراها وضمها إلى جواريه ، وإنما كانت تقوم بمجالس الغناء لديه حين يطلبها ! وماذا يا ترى منعه من شرائها ؟

---

(١) العلج : الرجل الغليظ .

لم يكن فى قلب « الواثق » متسع لحب جارية أخرى سوى « فريدة » جاريته ، فهو مغمور فيها ، شارد وإياها فى النعيم ومجالس الغناء ؛ ولقد بلغ حبه إياها مبلغاً ملك عليه حواسه . . . ! فمن تكون « عريب » هذه فى قلب الواثق ؟

وشىء آخر له قيمته فى إهمال الواثق « عريب» ، ذلك أن الواثق كان ذا صنعة غنائية ، فهو صاحب أصوات معروفة فى الغناء العربى ، وصاحب مذاهب جديدة فيه عرف بها ، ولو لم يكن الواثق خليفة ومن أبناء الخلفاء لكان من أساطين الغناء فى عصره . . . !

كان الواثق هكذا ، وكان يحلو لعريب أن تكايده وتضايقه فى غنائه ، فكلما صنع صوتاً فى شعر وغناه ، صنعت فى هذا الشعر نفسه لحناً آخر وغنته ، فيكون أجود من لحنه ، هذا أمر لا شك يؤذى صاحب الفن فى فنه وإن كان غير محترف به ، ويغم من ظن فى نفسه موهبة اعتز بها ، ففاقه فيها غيره وضايقه بهذا التفوق ! . . . فمن الأصوات التى غنَّاها الواثق وثبت لحنها له :

لم آتِ عامدة ذنباً إليك ولا أقر بالذنب، فاعفُ اليوم عن زللى
فالصفح من سيد أولى لمعتـذر وقاك ربك يوم الخوف والوجل

وتأتى « عريب » فتضع للصوت لحناً آخر وتغنيه ، فيكون جيداً فينسب إليها !

ومن الأصوات التى غناها الواثق :

أشكو إلى الله ما ألقى من الكمد حسبى بربى ولا أشكو إلى أحد
أين الزمان الذى قد كنت ناعمةً فى ظله بدنُوِّى منك يا سَنَدِى ؟
وأسأل الله يوماً منك يُفرحنى فقد كَحَلْتَ جفونَ العينِ بالسَّهَدِ

ولعريب فى هذا الصوت لحن آخر ينسب إليها !

لهذا وذاك ، ولرسالتها للعباس بن المأمون التى ذُكرت ، أهمَلَ الواثق أمر « عريب » فلم يُعن بها ولم يضمها إلى جواريه . . . !

ولعل « عريب » كانت تريد ذلك ، فصنعت ما صنعت بالمعتصم والواثق فكان لها ما أرادت . . . !

وتقول « عريب » نفسُها : عاصرتُ من الخلفاء ثمانية ، واتصلتُ بكل واحد منهم فلم يعجبنى إلا ابن المعتز ، لأنه كان يشبه « أبا عيسى » ابن الرشيد . . . !

وبعد : فقد عَرَفَتْ « عَريب » ثمانية من الخلفاء ، ولكن لم يملكها غيرُ ثلاثة منهم ، هم الأمين والمأمون والمعتصم ، وحياتُها معهم جميعاً تنبئنا بأنها لم تحب واحداً منهم ، رغم أن معظمهم أحبّوها وهاموا بها كما ذكرنا !

* * *

عريب وعشاق آخرون :

عرفنا فيما مضى من حياة « عريب » أنها عشقت قائدين هما عديِ بن حاتم ، ومحمد بن حامد الخراسانى ، وأن حبها للأخير كان عارماً عنيفاً ، ولكن حياتها الغرامية لم تقف عند هذين ، بل إن لها من العشاق من سنتحدث عنهم الآن ، وأولهم :

أبو عيسى بن الرشيد :

هو أخو المأمون ، وكان وسيم الطلعة مهيباً ، وكان له فى الغناء صنعة عرف بها ، هامت به عريب وعشقته ، وقد روت أنها ما عشقت أحداً من بنى هاشم وأصفته الودّ من الخلفاء وأولادهم سواه !

(١) غيرنا بعض الألفاظ فى العبارة وأصلها فى نهاية الأرب ص ١٠٦ ج ٥ .

وقد عرف بانتظار الناس إياه وهو سائر ليَرَوْا وجهه ، وما كانوا يفعلون ذلك مع الخلفاء !

ولما مات بكته «عريب» وجلست تنوح عليه هي وجواريها أياماً ، وقيل إنها رثته بشعر لها ، وغناء شِعرىٍّ لم نعثر عليهما ، ولكنّ الذى وجدناه بيتان من قصيدة[1] « أبى تمام » تمثلتْ بهما « عريب » فى رثائه .

* * *

ومن عشقتهم عريب :

« صالح المنذرِىّ الخادم » .

حدثوا أنّ واحدة من جواريها دخلت عليها يوماً فقالت لها « عريب » : ويحك ! تعالىْ إلىّ ! فجاءت ، فقالت: قَبِّلى هذا الموضع منى ! فإنك تجدين ريح الجنة — وأشارت إلى جزء من جسمها — ! ففعلت الجارية ، ثم قالت لها : ولِمَ ؟ قالت : قبّلنى الساعة صالح المنذرى فى هذا الموضع ! وحُكى أن« عريب» تزوجت منه سراً !

وكان صالح يعمل فى خلافة المتوكل ، فوجّهه إلى مكان بعيد فى قضاء حاجة فقالت عريب :

أما الحبيب فقــد مضى بالرغم منى لا الرِّضا
أخطأتُ فى تركى لمن لَمْ ألق فيه مُعْتَرِضَا

ومِمّن عشقتهم « عريب » وأسرفت فى عشقهم :
إبراهيم بن المدبر .

وقد كان شاعراً كبيراً ، وكاتباً معروفاً من كتاب العراق المتقدمين ، وكان يكتب للخليفة « المتوكل » فى كل أمور الملك ويتصرف فى العظائم من

---

(١) التى أولها : كذا فاليجل الخطب . . . إلخ .

شئونه ؛ كما تولّى كثيرًا من الولايات منها ولاية البصرة ، وحدث أن حامت حوله الشبهات فى بعض تصرفاته الديوانية فقبض عليه « المتوكل » وحبسه ، وله شعر رقيق عاطفى قاله فى سجنه ، واستعطف به المتوكل ولكنه لم يعفُ عنه حتى تشفعت له « عريب » ومن شعره فى سجنه قصيدة أولها :

أدمـوعها أم لؤلؤ متنـاثر ينـدى به ورد جنىٌّ ناضر ؟

ومنهـا :

هـذا الزمان تسومنى أيامـه خَسْفًا وها أنذا عليه صابر
إن طال ليلى فى الإسار فطالما أفنَيتُ دهـرًا ليلُه مُتقاصر
والحبس يحجبنى وفى أكنـافه منّى على الضراء ليثٌ خادر
عجبًا له ! كيف التقَت أبوابُه والجودُ فيـه ، والغمام الباكر
هلاّ تقطع أو تصدع أو وَهَى فعـذرته ؟ لكنه بى فاخر !

وكان بين « عريب » وبين ابن المدبر صلات غرامية عنيفة تطايرت أخبارها فى كل ناحية ، كما كانت بينهما مراسلات بالكتابة والأشعار ، تناقلها الأدباء وغنى بها المغنون .

وتظهر شخصية « عريب » ونفوذها فيما مثّلته من محاولات عجيبة لإخراج ابن المدبر من سجنه ، فاستمالت بدهائها « عبد الله بن يحيى بن خاقان » وهو الذى أدان ابن المدبّر وأشار على المتوكل بسجنه ، واستطاعت أن تجعل منه مساعدًا وشفيعًا له وقد كان عدوّه اللدود ، كما استطاعت أن تفرض نفوذها على الخليفة فيعدها بإطلاق سراحه ، فتُسرع بكتابة رسالة إلى ابن المدبر تبشره بالفرج القريب ، وتتشوق إليه ، فأجابها بهذه الأبيات :

لعمركَ ما صــوتٌ بديع لمعبد　　بأحسنَ عندي من كتاب عَريب
تأملتُ فى أثنائه خط كاتب　　ورقة مشــتاق ولفظ حبيب
وراجَعَنى من وصلها ما استرقنى　　وزَهَّدنى فى وصل كل حبيب
فصرتُ لها عبدًا مُقِرًّا بملكها　　ومستمسكا من ودّها بنصيب

وحين سُجن « ابن المدبر » كانت « عريب » غاضبةً عليه ، مقاطعة له ، ذلك أنه كان يشرك فى حبها أخرى تسمَّى « نبتَ » جارية البكرية ، وكانت مغنية جميلة ، وقد قال فيها كثيرًا من الشعر علمت به « عريب » فغضبت عليه وقاطعته ، ومن شعره فيها :

« نبت» إذاسكتَتْ كان السكوت لها　　زَيْنًا ، وإن نَطَقَت فالدُّر ينتثر
وإنمــا أقصــدت قلبى بمقلتهــا　　ما كان سهم ولا قوس ولا وتر

وله فيها :

يا نبتُ يا نبت قد هام الفؤاد بكم　　وأنتِ والله أحلى الخلق إنســانا
ألا صلينى فإنى قد شغفت بكم　　أن شئت سرًّا وإن أحببت إعلانا

وعلى الرغم من تحول « ابن المدبر » عن « عريب » إلى « نبت » فإنها لم تتحول عنه ، ولم تتخل عن مساعدته فى نكبته ، ويَشْعر « ابن المدبر » بهذا الجميل فيقول فى شعره إليها :

وراجعنى من وصــلها ما استرقنى　　وزَهَّدنِى فى وصل كل حبيب

ويتوجع « ابن المدبر» فى سجنه ويشكو حاله إلى « عريب » فيقول :

إلى الله أشكو وحشتى وتفجعى　　وبُعدَ المدى بينى وبين عَريب
مضى دونها شهران لم أحْلُ فيهما　　بعيش ، ولا من قربها بنصيب

فكنت غريبا بين أهـــلى وجيرتى ولست إذا أبصرتها بغريب
وإن حبيبا لم ير الناس مثـــله حقيق بأن يُفدَى بكل حبيب

* * *

ويخرج ابن المدبر من سجنه، ويعفو عنه الخليفة المتوكل، وتعود مياهه إلى مجاريها ، ويستأنف صلاته ومجالسه ومكاتباته إلى « عريب » .

حكى ابن المعتز أن ابن المدبر كان كثيرًا ما يغش « عريبَ » ويتصل بغيرها ويخلف وعده إياها ، فكتبت إليه مرة تقول : « وهب الله لنا بقاءك ممتعًا بالنعم ، ما زلت أمس فى ذكرك ، فمرة بمدحاك ، ومرة بأكلاك وبذكرك بما فيك لونًا لونًا . . .

اجحدْ ذنبك الآن، وهاتِ حُجج الكتّاب ونفاقهم ! . . . فأما خبرُنا أمس فإنا شربنا من فضل نبيذك على تذكارك رطلاً ، وقد رفعنا حسابنا إليك ، فارفع حسابك إلينا ، وخبِّرنا مَنْ زارك أمس وألهاك ؟ وأىّ شىء كانت القصة على وجهتها ؟ ولا تتحايل فتحوجنا إلى كشفك ، وقل الحق ، فمن صدق نجا ، وكفاك بهذا من قولى عقوبة والسلام ! » .

وحاول ابن المدبر أن يعتذر إليها بمراوغة الشعراء ونفاق الكتاب كما قالت « عريب » ، فقبلت عذره على دخيلة فى نفسها منه ، إلى أن جمعهما مجلس جميل وصفه « ابن حمدون »قال :

كنت أنا وابن المدبر وابن ميّادة(١) وغيرهم فى بستان ، واليوم غيم ، ورذاذه يقطر أحسن قطر ، ونحن فى أطيب عيش وأنعم بال ، فتنفس ابن المدبر وصاح : تنقصنا عريب . . . ! فلم نشعر إلا بعريب قد أقبلت من بعيد !

---

(١) شاعر عباسى .

فوثب إبراهيم من بيننا، فخرج حافياً ، فتلقاها وأخذ بركابها حتّى نزلت ! وقبل الأرض بين يديها ، وكانت قد هجرته مدة لشيء أنكرته عليه ، فجلست بيننا وأقبلت عليه مبتسمة وقالت : إنما جئت إلى مَن ههنا لا إليك ! فاعتذر وشفعنا له إليها ، فرضيت عنه ، وأقامت بيننا أياماً ونحن على الشراب والغناء . . . !

ومن شعر ابن المدبر فيها وقد غنته فى هذا المجلس :

بأبى من حقق الظن به   وأتانا زائراً مبتـــديا
كان كالغيث تراخى مُدَّة   فأتى بعد قنوط مُرْوِيا
طاب يومان لنا فى قُربه   بعد شهرين لهجر مضيا
فأقر الله عينى وشـــفى   سقماً كان لجسمى مُبْليا

ومن شعره وقد تغنت به فى المجلس :

ألا يا عريب وُقيت الردى   وجنَّبك الله صَرف الزمنْ
فإنك أصبحت زين النساء   وواحدة الناس فى كل فنّ
فقر بك يدنى لذيذ الحياة   وبعدك ينفى لذيذ الوسنّ
فنعم الأنيس ونعم الجليس   ونعم السمير ونعم السكن

* * *

وكانت « عريب » تؤثر ابن المدبر على كل من عرفت بعد ابن حامد ، حتّى إنها لتهيئ له الراحة والسرور ولو على حسابها ! وكان ابن المدبر — كما قلت — مراوغاً لعوباً ، فيه أنانية العابثين وانحلال المجان الفساق !

وكثيراً ما كان يسيء إليها بالخيانة والغدر والمماطلة ! لقد عاد إلى التغزل فى « نبت » بعد أن استغفر وأقر بالذنب بين يدى « عريب » منقذته وواهبته إيَّاه الحرية! عاد إلى قول الشعر فيها بحرارة وعمق، فقال من قصيدة طويلة :

يا غادرًا يا أحب الناس كلهم إلىّ — والله — من أنثى ومن ذكر
ويا رجائى ويا سؤلى ويا أملى ويا حياتى ويا سمعى و يا بصرى
ويا مناى ويا نورى ويا فرحى ويا سرورى ويا شمسى ويا قمرى

ومنها :

يا قوم قلبى جريحٌ من تذكرهـا وقلبهـا فارغ أقسى من الحجر
الله يعلم أنى هائم دَنِفٌ بغـادة ليتها حظى من البشر

قرأت « عريب » شعره فى « نبت » فلم تتعجب ، وقد عرفت طباع صاحبها وتقلباته العاطفية ، وإنما انطوت على نفسها واعتزمت السلو !

ولكن قلب المرأة كالزهرة ، تذبلها الريح الشاردة ، ثم تنعشها قطرة الندى ! وما هو إلا يوم من أيام الطبيعة الفاتنة فى حدائق بغداد حتى انتعش قلب « عريب » ، وحن إلى ابن « المدبر » فتحايلت ! ! بماذا ؟ أرسلت إليه جاريتيها « تحفة وبدعة » برسالة كتبت فيها : أصبح يومنا هذا طيبًا ، طيب الله عيشك ، ولم يصادف طيبه منى نشاطًا ولا طربًا إليك ، لأمور صدتنى عنك ، وقد بعثت إليك « ببدعة وتحفة » ليؤنساك وتُسر بهما ! . . . سرك الله وسرنى بك » !

فما قرأ الرسالة حتى كتب إليها :

كيف السرور وأنت نازحـة عنى ! وكيف يسوغ لى الطرب ؟
إن غبت غاب العيش وانقطعـت أسـبابه وألحت الكرب

فما قرأت البيتين حتى أسرعت إليه على حمار لها ! فتلقاها حافيًا ، ودخلت والحمار يطأ بساطه وما عليه ! ! ثم أخذ بركابها وأجلسها وأقعى بين يديها ثم قال :

ألا رب يوم قصر الله طـولـه بقرب «عريب» حبذا هو من قرب
بها تحسن الدنيا وينعم عيشهـا وتجتمع السراء للعين والقلب

قالوا : وقضت معه يوماً فى شراب وغناء لها فى هذا الشعر . . . !

وكانت بدعة تضرب على العود ، وتحفة تزمر فى هذا المجلس ، فوصفهما ابن المدبر قال :

إن عريباً خلقت وحدها فى كل ما يحسن من أمرها
ونعمـة الله فى خلقـه يقصر العالم عن شكرها
أشهد فى جاريتيها على أنهـما محسنتا دهـرها
فبدعة تبدع فى ضربها وتُحفـة تبدع فى زمرها
يا رب أمتعها بما خولت وامدد لنا يا رب فى عمرها

وأراد ابن المدبر أن يمحو الشك من قلب « عريب » فكتب إليها ، وقد تغنت به فى مجالسها :

زعموا أنى أحب عريبـا صـدقوا والله حبًا عجيبا
حل من قلبى هواها محلا لم تدع فيـه لخلق نصيبا
ليقل من رأى الناس قِدما هل رأى مثل عريب عريبا ؟
هى شمس والنساء نجوم فإذا لاحت أفلن غيوبا

هذه حياة « عريب » وأخبارها مع ابن المدبر ، وأظن أن عرضها على تلك الصورة تبرز لنا ابن المدبر رجلاً أديباً شاعراً له مراوغات يفرضها عليه طبع الأديب . . . وأن « عريبَ » كانت معه امرأة وفية ومحبة كحبّ النساء . . . !

* * *

مكانة عريب :

ذكرنا فى أول الحديث عنها شيئا من مكانتها ، وقلنا إنها شيخة المغنين والمغنيات فى العصر العباسى جميعه ، ونزيد هنا أنها كانت شخصية مرهوبة

من الخلفاء والأمراء والقواد والحكام ، في شخصيتها ثقافة الكاتبة الشاعرة المغنية ، وفي شخصيتها لباقة المتحدثة البارعة ، وذكاء الذهن النابه المتيقظ ، ودهاء المرأة الممتازة ذات الخبرة بطباع الرجال ، القديرة على قودهم وإذلالهم ، كما أن فيها الأنوثة الكاملة التي هي أمضى سلاح لديها ، والتي قادتها إلى الانحلال الخلقي والتبذل إلى حد كبير كما وصفت هي نفسها[1] .

و « لعريب » قلب وجسم ! والرجال لديها رجلان ، أحدهما لقلبها ، والآخر لجسمها ... وإن جسمها ليقود قلبها ويتصرف فيه في غالب الأحيان !

وعريب كفنانة ، أصل ضخم من أصول الغناء كما قلت ، وقد ذكر الأصبهاني[2] بعضاً من هذه الأصوات وسماها .

لعظم مكانتها اختلف الناس وتشاحنوا في الحكم عليها ، ولكنها خرجت من معركتهم حولها بالزعامة التي لا تنافس فيها .

وإن كبار المغنين ليأتون إليها ويغنون بين يديها وهم فخورون إذا ندّت منها كلمة استحسان أو إشارة إعجاب .

أرسلت مرة « إلى بنان » المغني وقد بلغها أنه يغني صوتاً طيباً ، فأتى إليها وقد بلله المطر ! فقالت له : هات صوتك فغنى :

تجـافى ثم تنطبق جفون حشوها الأرق
وذي كلف بكى جزعاً وسفر القوم منطلق
به قلـق يمَلْمِلُه وكان وما به قلـق

فأعجبها الصوت وزادت عليه من شعرها وغنت به :

أجاب الوابل الغـدق وصاح النرجس الغرق
وقد غنى بنان لنـا جفون حشوها الأرق
فهاك الكأس مترعـة كأن ختامها حدَق

---

(١) نهاية جـ ٥ ص ١٠ .

(٢) جـ ١٨ ص ١٧٧ ، ١٩٠ .

قال بنان : يا سيدتى ! غنى من شعر ابن المدبر فيك ! فغنت :

ألا يا سلوتى أنتم نأت دار بنا عنكم
فإن كنتم تبدلتم[1] فما قلبى ارتوى منكم
وإن كنتم على العهد فأحسنتم وأجملتم
ويا ليت المنى حقت فنبديها ولا نكتم
فكنتم حيثما كنا وكنا حيثما كنتم

ولم تدع « عريب » شعرًا لشاعر عاصرته إلا غنت به ، هذا خلاف ما غنته من شعرها ، والباحث فى ألحانها الكثيرة يقف على ذلك ، ومن غنائها هذه الأبيات :

أحببت من شعر بشار لحبكم بيتا كَلِفْتُ به من شعر بشار
يا رحمة الله حُلِّى فى منازلنا وجاورينا ، فدتك النفس من جار
إذا ابتهلتُ سألت الله رحمته كَنَّيْتُ عنك وما يعدوك إضمارى

والأبيات لأبى نواس ، منها البيت الأول لبشار ، وقد ضمنه أبو نواس شعرَه ولفظ « رحمة » الذى ورد فيها اسم لامرأة هَوِيها بشار ، واسمٌ لغلام هَوِيه أبو نواس . . . !

* * *

وكانت « عريب » يومًا عند جعفر بن المأمون وعنده القوم يشربون !

فغنى أحد المغنين هذين البيتين :

يا بدر إنك قد كُسيتَ مَشابها من وجه ذاك المستنير اللائح
وأراك تُمْصَح بالمحاق وحسنُها باق على الأيام ليس ببارح

فضحكت عريب وصفقت بيديها وقالت : ما على وجه الأرض من يعرف هذا الصوت غيرى ! فسكت القوم وقال بعضهم : وما القصة ؟ قالت : سأقص عليكم ! ولولا أن صاحب القصة قد مات ما أخبرتكم !

(١) فى الأصل « فما من بدل منكم » أغانى جـ ١٨ ص ١٢٥ .

قالت : قَدِم بغدادَ أبو محلم ، فنزل بقرب دار « صالح المسكين » ، فرأته امرأته « أم محمد ابنة صالح » فأعجبت به[١] ورغبت فيه ، فتحايلت لمعرفته بأن اقترضت منه مبلغاً من المال ، فكان يدخل إليها ليلاً وأنا عندها ! وفى ليلة قمراء قال أبو محلم البيتين ، وسألنى أن أغنيهما فغنيت . . . وقد كان البيت الأول منهما هكذا :

يا بدر إنك قد كسيت مشابهاً    من وجه أم محمد ابنة صالح

ولما انتهى ليلنا قالت المرأة : يا أختى ! إن هذا الشعر سيكون فضيحتى آخر الدهر ! قال أبو محلم : وأنا أغيّره ! فوضع « من وجه ذاك المستنير اللائح » بدلاً من وجه أم محمد ابنة صالح » !

وقد أخذ الناس عنى غناء البيتين . . . ولو كانت أم محمد حية ما أخبرتكم الخبر .

ومن أخبار « عريب » ما يدلنا على أنها بعد هذه الحياة الحافلة بالشهرة والسيطرة والمجد والصراع بين الرجال على اختلاف مكانتهم ، قد سكنت إلى العزلة مع جواريها وقد تقدمت بها السن ، غير أنها مع هذا كانت طوّافة بارعة ، فهى تهجم على مجالس المترفين من الأمراء والشعراء حيث كانوا ! فى الحراقات بدجلة والفرات ، وفى الأديرة ، وفى المنازل ومجالس البساتين ، فتشاركهم سرورهم وشرابهم وغناءهم ، وقل أن تفاجئ مجلساً من هذه المجالس إلا وجدت فيه منهم واحداً تهواه . . . !

ولم تفقد « عريب » شيئاً من مكانتها حتى فى أخريات حياتها ، بل ظلت فى مجتمعها وبين أوساطها متماسكة الشخصية حتى ماتت !

وقد تناولها كثير من الأدباء والشعراء ، فمنهم من دون أخبارها ، ومنهم من دون ألحانها وشعرها ، ومن هؤلاء عبد الله بن المعتز .

---

(١) فى الأصل تعبير مكشوف أغانى ١٨ ص ١٩١

## متيم الهاشمية

جارية صغيرة لامرأة تسمى « اللبّانة » بنت عبد الله بن إسماعيل المراكبي مولى « عريب » ، وقد سبق الحديث عنه[1] ، وقد قيل إن «على بن هشام» اشتراها منها بعشرين ألف درهم ، ثم عُنى بها ورباها وأدّبها وثقفها فى البصرة ، وقد أخذت الغناء عن إسحاق وأبيه ، ولكن أستاذتها الحقيقية هى « بَذْل » وقد اعتمدت فى حياتها الغنائية على ما أخذته عنها .

وقد عُرفت « متيم » بالجمال والحسن وبصفرة اللون شأن الجوارى العراقيات كما عرفت بميولها الأدبية وبقرضها الشعر وإنشادها إياه ، وقد كانت لها الحظوة الأولى عند مولاها ، فلم يكن لجارية من جواريه فى نفسه ما كان لها ، وهى أم أولاد كثيرين له ، فمنه ولدت « صفية » و « محمداً » و « أبا عبد الله » و « هارون » . وكان أبوهم يعزهم جميعاً ويقدمهم على سائر أولاده لما لأمهم فى قلبه من المحبة والإعزاز .

وعلى بن هشام رجل مفتون باقتناء الجوارى والتمتع بهن وبغنائهن ، ولقد كانت له مجالس غنائية لا ينقصها إلا فخامة مجالس الخلفاء ، وكان المغنون يقصدونه فى داره لسماع الغناء من « بذل ومتيم » ، فمن « بذل » كانوا يتعلمون ويصححون ألحانهم ، و « بمتيم » كانوا يعجبون !

ولم يعرف عنها أنها أغرمت بغير مولاها فى حياته ، أو اتصلت بغير المغنين وأهل الفنون !

---

(١) فى الكلام عن عريب .

* *

وبعضهم يروى : أن أول من اشتراها رجل من وجوه البصرة، وأنها عاشت عنده على كره ، وأنها هـَويت وهى عنده « عبد الصمد بن المعذّل[1] » ! فهويها وقال فيها كثيراً من أشعاره ، وكانت متيم إذا خرجت تضع النقاب على وجهها ! فحدث لها يوماً ما استدعى ذهابها إلى « العنبرى » القاضى ليشهد عليها ، فأمرها أن تسفر ففعلت ! فقيل لعبد الصمد : لو نظرت إلى « متيم » وقد أسفرها القاضى لرأيت عجيباً ! فقال :

ولما سرت عنهـا القنـاع متيم  تروّح فيها العنـبرى متيما
رأى ابن عبيد الله وهو محكم  عليها لها طرفاً عليـه محكما
وكان قديماً كالح الوجه عابساً  فلما رأى منها السفور تبسما
فإن يصبُ قلب العنبرى فقبلَه  صبا باليتامى قلب يحيى بن أكثما

فبلغ هذا الشعر يحيى ، فكتب إليه : عليك لعنة الله . أى شىء أردت منى حتى أتانى شرُّك من البصرة ؟ فقال لرسوله : قل له : « مُتيم » أقعدتك على طريق القافية . . .

هذا ما عرف عن حياتها وصلاتها بالناس قبل شراء علىّ لها . وكان شعر عبد الصمد داعياً إلى شُهرة « متيم » وباعثاً على التطلع إليها .

وسواء أكان علىّ بن هشام أول من اشتراها أو آخرهم ، فإنها جاريته التى عـُرفت به وعـُرف بها ، وفى قصره عاشت ، وعلى صلتها به تكونت حياتـُها كما سنعرف .

وكثيراً ما كان إبراهيم بن المهدى وإسحاق الموصلى يغاران من مولاها

---

(١) شاعر غزل رقيق .

ويحقدان عليها صنعتها ، ولكل منهما نوادر لطيفة وحيل بارعة معها ، استطاعا بها أن يغتصبا بعض أغانيها وينسباها إليهما . . .

ولم يكن مولاها يبخل بها حين يستدعيها الخلفاء والأمراء . فقد استدعاها المأمون مراراً فغنت أمامه ، كذلك المعتصم وهو ولى عهد وخليفة ، ولقد كانت تخرج معه إلى « سُرَّ مَن رأى » فى بعض حروبه أو رحلاته .

غنت يوماً أمام المعتصم لحنها المعروف بها :

لزينبَ طيفٌ تعتريني طوارقه      هدُوًّا إذا ما النجم لاحت لواحقه

وكان إبراهيم بن المهدى حاضراً فأعجب بالصوت إعجاباً شديداً ، وسألها أن تعيده، فقالت للمعتصم : يا سيدى ! إبراهيم يستعيدنى الصوت وكأنه يريد استلابه لنفسه ! فضحك المعتصم وقال : لا تعيديه ، فأمسكت ، فما يصنع إبراهيم ؟

توجه يوماً راكباً دابته إلى منزل على بن هشام ، وكانت متيّم فى فى حجرة لها نوافذ على الطريق العام ، وهى تلقى هذا الصوت على جواريه ، فوقف بدابته تحت النافذة حتى سمع الصوت مراراً فحذقه . . . ثم ضرب النافذة بمقرعته ، فأطلت متيّم . . . فقال لها : قد أخذناه بلاَ حمدِك . . .

وكان إسحاق كثيراً ما يأخذ من صنعتها وينسبها إلى نفسه ، وكان ذلك يغيظ مولاها ويُحنْقه عليه ، حتى إنه ليضحى بأعزّ ما عنده ليتّقى به طمعَ إسحاق وجورَه على صناعة جاريته .

حدثوا أن « متيم »صنعت لحناً أعْجب به إسحاق حتى كاد يُجَن وهو :

فلازِلْنَ حَسْرى ظُلَّعًا لِمْ حملنها      إلى بلدٍ ناءٍ قليل الأصادق

ولا ذنْبَ لى إذ قلت إذ نحن جيرة      أثيبى بوُدٍّ قبل إحدى البوائق

(١) يدعو على النياق التى حملت الحبيب إلى مكان بعيد : البيت الأول لكثير ، والثانى لأبى جندب الهذلى .

وحاول إسحاق بكل حيلة أن يحفظ الصوت فيدعيه لنفسه ، ولكن خابت أمانيه ! ويفكر فى حيلة شيطانية لم ينجح فيها ، ولكنه يكسب بها شيئاً ثميناً طالما تمنَّاه!

ذلك أن « علىّ بن هشام » كان له « برذون[1] » أشهب اللون ، وكان معجباً به شديد الحرص عليه ، وكان إسحاق يشتهيه ويتمناه لنفسه ، وقد عرّض لعلىٍّ بطلبه مراراً فردَّه عنه ، وذات يوم حضر إسحاق إلى على ومتيم تغنى لحنها :

فلا زِلن حَسْرى ظلعاً لِمْ حَمَلنها . . . إلخ ، فاستعاد إسحاق الصوت مراراً حتى حفِظه ووَعاه ! ثم التفت إلى علىّ وقال له :

كيف البرذون الأشهب ؟ قال علىّ : على ما عهدت من حسنه وفَراهته ! قال إسحاق : فاختر لك واحداً من اثنين : فإما أن تعطينى إياه فأطيبَ نفْساً به ، وإما أن أدَّعى أن هذا الصوتَ لِى وأنك سرقتَه منى ! أفتراك تقول إنه لمتَيَّم وأقول إنه لِى ، فيؤخذ قولك ويترك قولى ؟

ويقع علىّ فى حيرة واضطراب . . . فالبرذون لديه عزيز كريم . . . والصوت لديه أعز وأكرم ! ! فماذا هو صانع ؟

لقد قال لإسحاق : لا والله ؟ لا يصدقنى الناسُ ويكذبونك ! يا غلام : قدّم البرذون إلى منزل أبى محمد بسرجه ولجامه ! لا بارك الله له فيه . . . !

* * *

وكان لمتيم دلال على « علىّ »، وكان بها مُدَلَّهاً وعليها حريصاً ، وكان يقسو عليها فى بعض الأحيان ، ولكنَّه سرعان ما يترضَّاها ويتشفع إليها ببعض جواريه ، لقد ردَّت عليه يوماً رداً لم يعجبه ، فدفع يده فى

---

( ١ ) نوع من الجياد القصيرة عرف بالنشاط والقوة .

صدرها فخرجت غاضبة ولم ترجع إليه ! فراح يستعطفها ويترضَّاها فى شعر راسلها به ، ومنه :

فليتَ يدى بانَتْ غداةَ مددتُها إليكِ ولم ترجع بكفٍّ وساعد
فإن يرجع الرحمن ما كان بيننا فلستُ إلى يوم التَّنادِى بعائد

ولكنها لم تأبه له وتمادت فى هجره ، فكتب إليها :

الإدْلال يدعو إلى الإملال ، ورُبَّ هجر دعا إلى صبر ، وإنما سُمى القلبُ قلبًا لتقلبه ، وما أحسن قولَ العباس بن الأحنف :

ما أرانى إلا سأهْجرُ من ليـ ـس يرانِى أقوى على الهجران
قد حَدَا بى إلى الجفاء وفائِى ما أضرَّ الوفاءَ بالإنسان[1]

وحضرت إلى على بن هشام جدَّة له تسكن خراسان ، وقالت له :

سمعت عن « متيم » وعن غرامك بها فاعْرِضها علىَّ اليوم ، فهيأ علىّ مجلس شراب وغناء وقد أحضر جميع جواريه وبينهم « متيم » تغنى صوتًا لإبراهيم الموصلى :

أهدى الحبيبُ مع الجنوبِ سلامَه فارْدُدْ إليه مع الشمال سلاما
واعْرِف بقلبك ما تضمَّن قلبه وتداولا بهوا كما الأياما
وإذا بكَيتَ له فأيقنْ أنَّه ستجود أدمعه عليك سجاما
فاحبسْ دموعك رحمة لدموعـه إن كنت تحفظ أو تحوط ذماما

فطربت جدة علىّ واستعادت الصوت مرارًا :

ولكن « عليًّا » يقول : كنتُ ألتزم الحشمة أمام جدتى ، وأتعمد الوقار فى مداعبة جوارىّ ، فضايقنى ذلك ونغص علىّ مجلسى ، ووددتُ لو تنصرف من مجلسنا ! فقلت بيتين من الشعر وكتبتهما فى رقعة دفعت بها إلى

« متيم » وغمزت لها بعيني ، ففهمت ما أريد ! ثم قامت متيم كأنها تريد الصلاة ، وما هي إلا دقائق حتى رجعت وقد صنعت فى البيتين لحناً جميلا واندفعت تغنيهما :

أأبقى على هذا وأنت قريبة وقد منع الزوار بعض التكلم ؟
سلام عليكم لا سلام مودع ولكن سلام من حبيب متيم

فما سمعت جدتى هذين البيتين حتى فطنت وقالت : ما أرانا إلا قد ثقلنا . . . ثم انصرفت من المجلس وقد أمرت للجوارى بجوائز سنية .

* * *

وعلى بن هشام كان مفتوناً بالغناء مشغوفاً بحيازة أكبر عدد من الألحان الممتازة ، أو التى يتوق إليها المغنون ، وإنه ليضحى فى ذلك بأثمن ما يملك ، ولقد ضربنا لذلك مثلاً فى تضحيته بالبرذون كى يحتفظ بلحن صنعته متيم ، وفى أخبار « بذل » رأينا إعزازه لها لحيازتها آلاف الأصوات التى يجهل أصحابها المغنون ، وهنا نراه عند المأمون يوماً وقد سمع لحناً من « علم » جارية « زبيدة » أم الخليفة فيعجب به ويصنع الحيل فى أخذه ، فإذا أخفق فإنه يدفع رشوة لمن يخرجه إليه . . . وهكذا فعل وسلم اللحن إلى « متيم » وراح يباهى المغنين به[1].

وقد عرفت متيم بالأناقة فى الملبس والتجديد فيه ، فقالوا : إنها أول من عقد من النساء فى طرف إزارها خيطاً من الإبريسم ، ثم وصلت الخيط بشعرها فثبت الإزار ولم يتحرك ، وعلمت الجوارى ورأينها فى هذا الابتكار فقلدنها فيه !

كذلك عرفت بحبها « البنفسج » وشغفها بجميع أنواع الريحان والطيب ، وما رؤيت قط إلا وفى كمها شيء منه . . .

* * *

---

(١) لم نعثر على نص هذا اللحن .

ولم يكن المأمون يسمع بجارية طيبة عند غيره حتى يعمل على امتلاكها ، وما وجدت فى عهده واحدة منهن تمتع بها مولاها وحده ، وهكذا فعل مع « عريب » و « بذل » وقد ذكرنا ذلك فى الحديث عنهما ، وها هو ذا يطلب من عليّ بن هشام إرسال متيم إليه كلما اشتاقها فيفعل ، ولكن المأمون لا تكفيه الزيارة فى الفينة بعد الفينة ، إنه يتشوق إلى « متيم » فى قصره ، يريد انتزاعها من ابن هشام ، إذ كيف يتمتع بها والخليفة يتوق إليها ويتعشقها ولا يراها إلا تفضلاً من مولاها عليه ؟

ويطلبها المأمون من ولاها ، فماذا هو صانع ؟ إنه لا يستطيع ردّ طلبه ، كما لا يستطيع التنازل عنها لمخلوق ما ، ويهتدى ابن هشام إلى حيلة يتخلص بها من هذا الطلب ويعفيه من تحمله وهو عليه شاق مرير .

لم يكن لابن هشام ولد من « متيم » وكان شديد الحرص على أن لا تعلق منه حتى يتمتع بها كاعباً حُرّة ، وحتى لا يرث أولادها شيئاً من ثروته بعد موته ، كان هذا أشد ما يحرص عليه ويخشاه ، إلى أن طلبها المأمون فكان هذا الأمر أهونَ ما يرجوه ويتمناه ، ولم تلبث « متيّم » حتى علقت منه وأصبحت أم ولد له . . . وأم الولد لا تباع ولا توهب ، إذن ضاع أمل المأمون فيها . . . ولقد فطن إلى هذه الحيلة البارعة المؤذية فحقد على ابن هشام أيّما حقد . حتى قال بعض المتحدثين : إنها كانت السبب الأول والأخير فى قتل المأمون عليّ بن هشام ! ولم يعرف بعد قتل مولاها أن المأمون ضمها إليه ، ولكنه كان يستدعيها فى مجالسه فيجعل لها الصدارة والإمارة على جواريه ، وقلّما جلس للشراب والغناء ولم تكن متيم بين يديه .

* * *

مات على بن هشام فحزنت عليه « متيم » ولعل حزنها عليه لم يجعلها صالحة لأن يتملكها غيره ، أو يعيش إلى جانبها ، ومن هنا نستطيع أن نفسر

رغبة المأمون عنها بعد أن كان راغباً فيها، مضافاً إلى هذا أنها أصبحت أم ولد !

ويقولون : إن المعتصم بعد أن مات المأمون ضم جوارى ابن هشام إليه ، وتزوج من « بذل » إحدى جواريه التى تكلمنا عنها ، وهذا جائز إلا فى « متيم » للأسباب التى ذكرناها فى عدم تملّك المأمون إياها !

غير أن الثابت أن المعتصم كثيراً ما استدعاها إليه وغنت فى مجالسه ، وقد أشرنا إلى هذا فى بدء الحديث عنها ، ولكن مجالسها مع المعتصم بعد وفاة سيدها كان لها لون آخر ، لونٌ فيه بعض الخلاعة والدعابة ، ويقول بعض من حضر هذه المجالس : إن المعتصم كان يداعب « متيّم » ويجذبها من إزارها ويخطف البنفسج من كمها ! وأنها هى الأخرى تفتحت ومجنت وأطلقت سجيتها وعواطفها يؤديان وظيفتهما كامرأة مغنية !

ويظهر أن الكبت العاطفى الذى عاشت به فى جوار ابن هشام قد انطلق دفعة واحدة ، فجرفها فى حياة فيها شىء من التعاطف والتودد تعويضاً لما فاتها من حياتها الأولى !

ويحدثنا الهشامى : أن « متيم » كانت تحبه حبًّا شديداً بعد موت سيدها ، وأن هذا الحب نما وترعرع فى مجالس المعتصم ، ويقول : إنها « أى متيم » . . . كانت تعلم أننى أحب « النبق » فكانت تبعث إلى منه الشىء الكثير ! وذات ليلة فى وقت السحر ، وإذا ببابى يدق ، وإذا بخادم متيم يدخل علىّ وبيده صينية فاخرة مملوءة « نبقاً » فوضعها أمامى وهو يقول : سيدتى تقرئك السلام وتقول لك : كنت عند أمير المؤمنين المعتصم، فجاءوا بنبق فاخر فذكَرتك ! ! ! وهاأنذا أرسل إليك منه شيئاً !

وعلى هذا النحو كانت صلاتها بالناس وتعاطفها وإياهم ، فلم يعرف عنها خناً ، ولم تكن لها صلات داعرة فيها طابع الشك والريب ، ولعل نشأتها الأولى كانت سبباً فى هذا التماسك والاعتدال !

* * *

وتقول « متيم » عن نفسها :

بعث إلىّ المعتصم بعد قدومه بغداد ، فذهبت إليه فأمرني بالغناء فغنيت :

هل مسعد لبكاء بعبرة أو دماء ؟
وذا لفقد خليـــل لســادة نجباء[1]

فقال : اعدلى عن هذا الشعر إلى غيره ! فغنيته غيره فى رثاء سيدى ، فدمعت عيناه وقال : غنى غير هذا ! فغنيت :

أولئك قومى بعـــد عز ومنعة تفانوا ، وإلا تذرف العين أكمد

فبكى وقال : ويحك ! لا تغنيني فى هذا المغنى ! فغنيت :

لا تأمن الموت فى حل وفى حرم إن المنايا تغشّى كل إنســان
واسلك طريقك هونًا غير مكترث فسوف يأتيك ما يـَمـْنِى لك المانى

فزاد بكاؤه وقال : كفى ! وغنى غيره ! فغنيت :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى . . .

فقال : أمسكى ! فأمسكت ، وقال : والله لو لا أنى أعلم أنك إنما غنيت بما فى قلبك لصاحبك[2] . . . وأنك لم تريدينى لقتلتك ! ولكن خذوا بيدها فأخرجوها ! فأخذوا بيدى فأخرجت ! !

وهذا الغناء كله من لحن « متيم » فى رثاء سيدها ، والعجيب فى هذا الموقف هو التعريض الصريح بالمأمون فى حضرة المعتصم دون خوف أو رهبة ! والأعجب منه سكون المعتصم عنه . . . !

* * *

والحق أن « متيم » حزنت على سيدها كما قلت ، وأنها رثته بكثير من

(١) الشعر لمراد شاعرة على بـ هشام ترثيه لما قتله المأمون .
(٢) على بن هشام .

شعرها ، وأقامت عليه النوائح ، وهى تنوح وسطهن ، وقد عرفت من ذلك الحين بأنها زعيمة النائحات ؛ وأشدهن إيجاعاً وإيلاماً ، وقد سمتها إحدى النساء وهى تنوح فقالت : حياك الله يا « متيم » !

أنت علم فى السرور ، وعلم فى المصائب ! !

ويقول بعض من عرف حزنها :

كنا نياماً فى مجلسنا ، فلما كان الفجر إذا متيم قد دخلت علينا وقالت : أطعمونى شيئاً ! فأخرجنا إليها شيئاً تأكله فأكلت ، ودعت بنبيذ فشربت ، ثم حركت عودها وراحت تغنى :

كيف الثواء بأرض لا أراك بهـــا ... يا أكثر الناس عندى متعة ويدا

ومرت « متيم » فى نسوة متخفية بقصر على بن هشام بعد أن قتل ، فلما رأت بابه مغلقاً وقد علاه التراب وطرحت فى أفنيته المزابل ، وقفت عليه وتمثلت :

يا منزلاً لم تبل أطـــلاله ... حاشا لأطلالك أن تبلى

لم أبك أطلالك لكننى ... بكيت عيشى فيك إذ ولى

قد كان لى فيك هوى مـــرة ... غيبه الترب ومـــا هلا

فصرت أبكى جاهداً فقـــده ... عند إدكارى حيثما حلا

فالعيش أولى ما بكاه الفتى ... لا بد للمحزون أن يَصْلَى[1]

ثم بكت حتى سقطت ، فحملها النسوة إلى دارها !

وهكذا ظلت « متيم » بعد سيدها ترثيه وتندبه حتى ماتت !

وتعد « متيم » أصلا من أصول الغناء العباسى ، فإن لها فيه ألحاناً خاصة بها ، تهافت عليها كبار المغنين ، حتى إن بعضهم سرقها منها ، وبعضهم اغتصبها كما فعل إسحاق !

(١) فى الأصل « يصطلى » .

ولقد سجل لها مؤرخو الغناء كثيراً من ألحانها ، وأطنبوا فى تقديرها ، وذكروا أن إسحاق الموصلى ألف فى الأصوات كتاباً ضخماً لم يذكر فيه واحداً من المغنين أمثال « علوية ومخارق وعمرو بن بانة » لأنه كان مترفعاً عليهم بفنه ، غير معترف لهم بصنعة خاصة بهم ، أما « متيم » فإنه قد اعترف لها فى هذا الكتاب وسجل لها ألحانها مثل :

فلا زلن حسرى ظلعا لم حملنها . . . . اللحن

أولئك قومى بعد عز ومنعة . . . . . . اللحن

هل مسعد لبكاء . . . . . . . . . . . . . اللحن

وحدثوا أن جارية للمعتصم قالت له لما ماتت متيم وبذل وإبراهيم بن المهدى : يا سيدى ، أظن أن فى الجنة عرساً فطلبوا هؤلاء إليه ! فأنكر عليها هذا القول ونهاها عنه ، وبعد أيام وقع حريق فى حجرة هذه الجارية أتى على كل أثاثها . . . ! فشكت إلى المعتصم ذلك وهى تبكى ، فقال لها : لا تجزعى فإن الأثاث لم يحترق ، وإنما استعاره أصحاب ذلك العرس . . . !

هذا ، وعلى اتفاق الرواة من أن « متيم » كان لها شعر حسن ، فإنى لم أعثر لها على شىء منه ، غير أنهم قالوا : إن المأمون سألها يوماً :

أجيزى لى هذين البيتين :

تعالى تكون الكتب بينى وبينكم ملاحظة نُومى بها ونشير

ورسلى بحاجاتى وهنّ كثيرة إليك إشارات بها وزفير

ولم يرد فى الحديث عنها ما أجازت به . . .

# عُبَيْدَةُ الطُّنْبُورِيَّةُ

وهذا صنف آخر من الجوارى ، له فَنّه الخاص ، وله مكانة اجتماعية تولدت من حياة تتميز بالفقر والتشرد . . . !

وسميت « عبيدة » بالطنبورية لأنها اختصّت بالضرب على الطُّنبور[1] والغناء عليه ، وقد عرف غيرها من المغنين « بالطنبوريين » ، منهم أبو حَشيشة ومُخارق والمسدود والزبيدى ، وقد ألّفَ بعضهم كتاب « الطنبوريون والطنبوريات » وفى مقدمتهم « عبيدة » التى تعتبر أستاذتهم المتقدمة عليهم ، وقد اعترف لها بذلك إسحاق الموصلى !

والطنبورية جارية طليقة لم يمتلكها أحد ، فقد عاشت طول حياتها مع الزمن تتقلب فيه على ألوان شتى من المعايش والأوضاع ، وقد قالوا فى نسبها : إنها بنت رجل يقال له « صباح » مولى « أبى السمراء الغسّانى » صديق عبد الله بن طاهر القائد الشريف المعروف ، والذى ولى مصر والجزيرة فكان من أعظم الولاة وأنبلهم !

وكان لوالدها صديق يقال له « الزبيدى » وهو ممن يغنون على الطنبور ، فكان كثيرَ الزيارة له ، ينام فى داره ويأكل ويشرب عنده فى كثير من الأحيان !

ولم تكن لياليهما تمر دون أن يُغنى الزبيدى على طنبوره ، وعبيدة بجانبه تناوله الشراب وتُصغى إليه فى نشوة وإعجاب ، حتى إنها ما كانت تطيق تخلفه ليلة واحدة عن الحضور والمبيت فى دارهما !

غنّى الزبيدى ليلة وهى بجانبه :

لو جزّ بالسيف رأسى فى مودتها ... لمال لا شك يهوِى نحوها راسى

(١) آلة للغناء غير العود .

فصاحت عبيدة : ويلاه ! كم هو عاشق ؟ وصاح أبوها !
أحسنت يا أخى فهات ! فاندفع الزبيدى يغنى :

سرت لعينك سلمى بعد مغناها فبتّ مستوهناً من بعد مسراها
فقلت : أهلاً وسهلاً ، من هداك لنا إن كنت تمثالها أو كنت إياها ؟

فصاحت عبيدة ! إنى أغنيك ما غنيت ! فتعجّب الزبيدى وتهلل أبوها ، وقال : هاتى يا بنيّ ! فغنت اللحنين فكان فى صوتها من الحسن ، وفى تقليدها المحكم ما أنبأ باستعداد قوى للغناء والرغبة فيه !

من ذلك الحين بدأت « عبيدة » تجهر بغنائها فى مجلسها المنزلى ، وراح الزبيدى يلقنها أصول الغناء على الطنبور والضرب عليه . . . وما زالت ترقى فى فنها وتُحسن فيه ، حتى أصبحت تنقد« الزبيدى » وتصحّحُ له بعض النقص ! ثم تدرجت من التقليد إلى الابتكار وخلق الألحان التى عرفت بها وسجلت لها ، وأخذها عنها كثير من المغنين ! وكان غناؤها مقصوراً على دارها ، يحضر إليها بعض الطنبوريين ليستمعوا إليها وهى صغيرة ، كما يحضر إليها بعض الشبان الأثرياء الخلعاء . ولم يُعرف أن أحداً من الأشراف أو الوجوه طرق باب دارها ليستمع إليها ! وسنعلل ذلك بعد، وظلت هكذا مطمورة فى دارها مع أبيها والزبيدى وبعض الشبان . . . حتى مات أبوها . . . وساءت حالها . . . فخرجت بطنبورها تستقبل الحياة فى الطرق والمجالس العامة . . . وقبل أن نعرض لحياتها يحسن أن نسجل هنا بعض الظواهر فى هذه الحياة . . . تلك الظواهر التى لم تقع لغيرها من الجوارى المغنيات !

* * *

وأول الظواهر فى حياة الطنبورية أنه لم يلتفت إليها واحد من المغرمين باقتناء الجوارى، أمثال الموصلى وإبراهيم بن المهدى وعلى بن هشام وعبد الله بن طاهر ، حتى إن التجار لم يلتفت واحد منهم إليها . . . ! وهم الذين يتلمسون

الكسب من طريقهن ، وينالون المكانات والشفاعات بسببهن !

وأوضح الأسباب فى ذلك أن الطنبورية كانت منحلة الشخصية ، إباحية الطباع ، وأن ملازمة الزبيدى دارها وهى صغيرة كانت حجاباً كثيفاً منع تسرب أخبارها إلى المجتمع ، اللهم إلاّ إلى شبان أثرياء خلعاء يطلبون المجالس الغنائية للعبث والمجون فحسب ، ولعل صنعة الطنبور وحدها كانت دون صنعة العود ، فلم يكن المحترف بها يجذب الأنظار إليه أو يشوق النفوس ويحيى التطلع والرغبات . . .

على أن « عبيدة » لم يكن ينقصها جمال الأنوثة وجاذبيتها ، أو ثقافة الأديبة وفهمها ، فقد كان إسحاق — وهو الضنين بالاعتراف — يعترف لها بالأدب والصنعة ، وكان أبو حشيشة ، وهو من كبار الطنبوريين يعظمها ويقدمها عليهم جميعاً . . . وقد قالوا عنها : إنها من أجمل النساء وجهاً وأحسنهن صوتاً وأخفهن روحاً ، كما عرفت بالتطيب ، حتى قالوا : « لم تعرف فى الدنيا امرأة أعطر منها » .

ولكن هذا وذاك لم يكن مذكوراً بجانب ما ذكرناه من تفاهة شخصيتها والإباحية غير المحدودة التى عرفت بها .

وثانية الظواهر — وهى عجيبة — أن بعض الشخصيات المعروفة كان يَستَحيى أن يُعرف عنه أنه سمع « الطنبورية » على ما كان به من شغف إليها ، ورغبة فى الاستماع إلى غنائها . . . ، فهذا إسحاق بن مصعب . وهو برمكى ، كان يشتهى سماعها ، ولكنّه يخشى أن يعرف « المعتصم » عنه ذلك فيعيبه ، وهذا إسحاق بن إبراهيم الموصلى يستمع إليها عند أحد أصدقائه بعد أن يأخذ عليه عهداً بإخفاء شخصيته عنها . . . ! ويعلل إسحاق هذا التصرف بأن الطنبورية إذا عرفت شخصَه اضطربَتْ فى غنائها وتهيَّبَتْه . . . ، وهذا بلا شك غير معقول ، وماذا على إسحاق

لو اضطرب المغنى أو المغنية أمامه تهيُّباً منه ، وهو الذى ينتشى ويطرب أن تكون له هذه الشخصية فى نفوس المغنين ؟

أليس هو إسحاق الذى حقد على « بذل » المغنية حين انتقدته وأعجزته أمام المأمون ؟ ؟

فمسألة الاتصال بالطنبورية والاستماع إليها ، أو ظهور الرغبة فى مجالسها أمرٌ كان يتوقَّاه بعض الشخصيات المعروفة الذين كانوا ينحنُون إعظاماً لغيرها من المغنيات . . .

وثالثة الظواهر — وهى أعجب — أن الطنبورية فيما عرفنا من أخبارها لم تدخل على خليفة من الخلفاء ! ولم يستدعها واحد منهم ، وإنما كان يُنقل غناؤها إليهم بوساطة المغنين الآخرين . . . ولم يعرف أن واحداً من المغنين أو المغنيات لم يَنَل شرف المثول بين أيدى الخلفاء والغناء أمامهم . . . كما لم يُعرف أن الخلفاء فاتتهم مغنية — دون أن يبعثوا إليها فتعرض بضاعتها ، ناهيك بمن كن يشترونهن بالإرغام والقهر ، وقد مَرَّ لنا ذلك .

تلك أبرز الظواهر العجيبة فى حياة هذه الجارية المتشردة ، وعلَّنا نخفِّف من العجب أو نقر هذه الظواهر ، حين نعرف نوع حياتها ومقدار مكانتها الاجتماعية.

* * *

قلنا إن أباها قد مات فساءت حالها . . . فخرجت بطنبورها تستقبل الحياة وتسعى وراء العيش ، فهى تمشى فى الطرق لتقف أمام الحوانيت بالبصرة ، وتنتقل بين البلاد وتجول فى الأحياء ، وترجع آخر يومها أو ليلتها وما معها سوى دينارين . . .

وبَدَهِىّ أن جارية تعيش فى الطرق ، وتقف على أبواب الحوانيت ، لا بد أن تتطلع إليها النظرات وتشتهيها الرغبات ، كما أنه من الطبيعى

أن تستجيب لكل متطلع وترضى كل راغب . . . ، لا سيما أن « عبيدة » عرفت بالشَّبق والجوع الجنسى الشديد ، فما كانت ترد سائلها ، أو تحجب من نفسها شيئًا !

تلك الإباحية المكشوفة حددت مكانتها بين الناس ، وأوجدت لها وسطًا خاصًّا ينقصه الوقار والتماسك . . . ! فليس السعى وراء العيش وحده هو الذى دفع بها إلى الإباحية والاستهانة بنفسها . . . ولكن الطبيعة الكامنة فيها كانت تغلبها ، ولو عاشت فى القصور تحت ظلال النعيم !

وقد عرف عنها عشقها كثيرًا من شبان البصرة الخلعاء !

فمنهم وهو أولهم « على بن الفرج » وكان جميل الخلق واسع الثراء ، لقد جعل لها دارًا أقامها فيها . . . ثم تطورت علاقتهما إلى زواج فحجبها وحرَّم عليها الخروج ، وبخاصة بعد أن ولدت منه بنتًا . . . ! ولكن الطبيعة المشوهة تعمل فى الخفاء ! ! أو أن سوء الطالع يلاحقها . . . فهى لم تسترح إلى هذا الكبت ، وهى من كانت تذرع الأرض جيئة وذهوبًا ليلا ونهارًا ، وتطلع فى كل لحظة على أشكال من الناس وطباع من البشر ! ! .

لم تطق الطنبورية هذا السجن الذى يسمونه « زواجًا » فكانت تتحايل على الخروج فتخرج لتقابل شخصًا آخر هو : « على بن أحمد » وقد لقيت فيه الشباب والثراء فعلقت به !

وتدور الأيام على « زوجها » فيفقد ثروته ، وعليها فتموت ابنتها ، ويُفْضى هذان الحادثان إلى طلاقها فتنفرد « بعلى بن أحمد » .

وتظل مع عشيقها الثانى حتى تجهز عليه والحمد لله . . . ! فيفقد الآخر ضياعه ، ويفر من وجهها . . . ! فتصيد غلامًا من آل حمزة يدعى « شرائح » وهذا لم يكن ثريًّا ... وإنما كان مليح الوجه ضاربًا على المعزف !

وتعيش الطنبورية مع العازف . . . هى بطنبورها ! وهو بمعزفه ، فيغنيان الناس ويقيمان المجالس فى أوساطهما الخاصة ، ويقطعان الحياة على هذا المنوال . . . ! حتّى إذا لم يستطع الغلام معها صبراً يفرّ من وجهها هو الثالث . . . فتقع على مَنْ ؟

على « أبى كرب بن الخطاب » وكان شديد القبح ، أفطس الأنف ، مشوه الخلقة ! فقيل لها : ما أعجبك فى أبى كرب ؟ قالت : تمتعت بكل جنس من الرجال إلا السودان ! فإن نفسى تبشّعتهم ! وهذا بين السود والبيض ! وبيتُه فارغ لى . . . ومُطيع!

وكان للطنبورية غلام يضرب على غنائها . . . فكانت تعتمد عليه فى خدمتها . . ! . . . ! وقد سمّاه بعض الفكاهيين تسمية لطيفة[1] .

وبعد . فهذه صورة سريعة لحياة الطنبورية ، فمن ينكر أن يتحاشاها الناس من ذوى المكانات ، وألا يرعب فيها تاجر بالبيع أو الشراء ؟

* * *

وقالوا : إن عبيدة كتبت على طنبورها هذا البيت :

كل شىء سوى الحيا      نة فى الحب يُحتمل

والروايات تحدثنا أن لها بعضاً من المجالس التى تدلنا على مكانتها فى غناء الطنبور وتقدير المغنين لها . . . فمن ذلك أنها حضرت مجلساً عند العباس ابن الرشيد ، وقد اجتمع الطنبوريون جميعهم عنده ، فقيل « للمسدود » : غنّ ، قال : لا والله لا تقدّمتُ عبيدة وهى الأستاذة !

فابتدأت تغنّى :

كن لى شفيعاً إليكا      إن خفت ذاك عليكا

---

(١) أغانى ج ١٩ ص ١٣٧

وأعفني من سؤالى سواك ما فى يديكا
يا من أعز وأهوى ما لى أهون عليكا ؟

فطرب بعض الحاضرين وقد همس واحد منهم ، لو هذا من غير عبيدة !!

ودعاها يوماً للغناء فى داره محمد بن مزيد ، ودعا بعض أصدقائه للحضور .

وبينما هو ينتظرهم بالباب ، مرّ إسحاق الموصلى فقال له محمد : بعد ساعة تأتينا عبيدة وبعض الأصدقاء ، قال إسحاق : فهلاّ دعوتنى ؟ قال محمد : أنا أعلم أنك لا تنشط إلى مجلسها وتتحاشاه ، ولو قبلت لكان ذلك أحبّ شىء لدىّ فى الدنيا ! !

قال : إسحاق : أقبل ، لأنى أشتهى أن أسمع عبيدة ، لكنّ لى عليك شريطة ، قال هات : قال : أن أظل مجهولاً لديها ، قبل محمد الشريطة . . . وحضرت عبيدة وأدير الشراب وابتدأت تغنى :

قريبٌ غيرُ مقترب ومؤتلــف كمجتنب
له ودّى ولى منــه دواعى الهم والكرب
أواصله على سبب ويهجرنى بلا سبب
وتظلمنى على ثقة بأن إليـــه منقلبى

فطرب إسحاق وصاح : اسقنى يا غلام ! فكلما شرب أعادت الصوت نفسه وقد بلغ عشر مرات ! ثم قام إسحاق للصلاة ، فقال بعض الحاضرين لعبيدة : أعرفت من يشرب على غنائك ويستعيده ؟ قالت : لا ، فقيل لها : هذا إسحاق .

قالوا : فأىّ فخر داخلها ؟ ورجع إسحاق فأحسّ أن عبيدة عرفته ، فانطلق من بينهم يجرى وهو يقول : نغّصتم على يومى لا بارك الله فيكم ! !

فإلى هذا الحد لا تعرف الطنبورية شخص إسحاق ، ولا يطمئن إسحاق إلى الظهور فى مجالسها ! !

وكان عمرو بن بانة — وهو من المغنين المعروفين باقتناء الجوارى — كثيراً ما يدعوها لتغنى ضيوفه لقاء دينارين يدفع بهما إليها .

دعاها يوماً وعنده بعض الوجوه فغنت صوتاً لإسحاق .

ياذا الذى بعذابى ظلّ مفتخرا  هل أنت إلاّ مليك جار أو قدرا
لولا الهوى لتَجَارَينا على قدر  وإن أفق منه يوماً ماً فسوف ترى

وعشقت جواريه عبيدة ، فكان يستدعيها لإلقاء الغناء عليهن دون أن تجود نفسه بشيء لها !

ومن غنائها هذا الشعر للعباس بن الأحنف ، ولإبراهيم الموصلى فيه لحن :

لم ألق ذا شجن يبوح بحبه  إلاّ حسبتك ذلك المحبوبا
حذراً عليك وإننى بك واثق  ألاّ ينالَ سواى منك نصيبا

تلك هى الطنبورية ، وهذه حياتها ومكانتها الاجتماعية بين الناس . أما مكانتها الفنية فهى كما قلت : أستاذة متقدمة معترف لها بالفضل والصنعة . وببعض الشعراء رثاء لها وقد مات ، ومنه :

أمست عبيدة فى الإحسان واحدة  فالله جار لها من كل محذور
من أحسن الناس وجهاً حين تبصرها  وأحذق الناس إن غنت بِطُنبور

وبعضهم ينسب هذا الشعر لإسحاق الموصلى ، وليس هذا ببعيد ، فإن إعجابه بها كان شديداً . . . وبعده عنها كان أشدّ . . . !

# فريدة
## جارية الواثق

جارية من جوارى « عمرو بن بانة » وهو مغن معروف ، ونديم من ندماء الخلفاء ، وكان مغرماً باقتناء الجوارى وتعليمهن وتخريجهن فى الغناء عليه . وكانت فريدة عنده أعز جواريه وأقربهن إلى قلبه . . . وعلى ما عرف عنه من البخل الشديد فإنه كان يخصها بكثير من الإنفاق ! !

ووجد فيها استعداداً خلقياً وفنياً ، فهى كما يقولون فاتنة الجمال عذبة الحديث خفيفة الروح ، كما أنها حادة الذكاء سريعة الخاطر ، وجد فيها مولاها هذه المواهب فنماها وراح يعلمها الضرب على العود وتوقيع الغناء على الألحان . . . وكان مما ساعده على تعليم جواريه عامة و « فريدة » خاصة « عبيدة الطنبورية » وما هى إلا أن نبغت فريدة وأخذت سمت الأنوثة ، فكانت فتنة له ولمن رآها أو سمعها ! .

ومن أغانيها التى حذقتها عنده ما غنته من شعر الأحوص :

مَنْ عاشقين تزايلا وتواعدا بِلُقًى إذا نجم الثريا حلّقا ؟
فتَرسَّا أمامهما مخافةَ رِقْبة رصدٌ ففرّق عنهما ما مزقا
باتا بأنعَم ليلة وألذّها حتى إذا برق الصباح تفرقا

ومن غنائها فى شعر نُصيب :

ألا إن ليلى العامرية أصبحت على النأى منى غير ذَنْبى تنعَّم
وما زلت أستصفى لك الود أبتغى محاسنه حتى كأنى مجرم
فلا تصرمينى حين لا لىَ مرجعٌ ورائى ولا لى عنكم متقدَّم

وكان لعمرو مجالس غنائية فى داره يدعو إليها أصدقاءه للسماع ، ولكنه لم يكن ممن يظهر جواريه على أضيافه ، حتى إنه أحيانًا كان يستأجر لهم المغنيات ليطيب لهم مجلسهم ، كما كان يصنع مع « الطنبورية » . ! وإذا غنت جواريه فإنما خلف ستارة حاجبة بينهن وبين المجلس !

ومع هذا التحرز فقد أعجب الناس بغناء « فريدة » وأشاعوا ذلك فى كل مكان فداخل « عمرا » زهو وتيه ، وزادت فى نفسه تقديرًا وإعزازًا ! وكان مولاها من ندماء « الواثق » وجلسائه ، ولكنه لم يعلمه بأمر « فريدة » وإن كان قد أعلمه بكل جواريه ، وبلغ « الواثق » أمرها فعتب عليه وزاد فى عتبه وأيقن مولاها أن « فريدة » طارت منه ! ولا مفر من التسليم ! فقال : يا أمير المؤمنين ، أغنيك من غنائها ، فإن أعجبتك حملتها إليك ، قال الواثق : هات ..! فاندفع يغنى لها :

هل قلبك اليوم عن شنباء[1] منصرف ... وأنت ما عشت مجنون بها كلف
ما تذكر الدهر إلا صدّعت كبدًا ... حرّى عليك وأجرت دمعة تكِفُ[2]

فما سمع الواثق حتى قال : أجل ، وأنت ما عشت مجنون بها كلف !
يا عمرو ، أحضرها إلى أمير المؤمنين :

وينصرف « عمرو » فيحضرها إلى الواثق ، فما تقع عليها عيناه حتى يهتز فيهتز معه سريره . . . وتجلس فريدة وتلاعب عودها وتغنى بشعر لأبى العتاهية :

بليت ، وكان المزح بدء بليتى ... فأحببت جهلاً والبلايا لها بَدْو
وعُلقت من يزهو على تجبرًا ... وإنىَ فى كل الخصال له كفو

---

(١) اسم امرأة .
(٢) الشعر لجريت الطائى .

فطرب الواثق وصاح : أعيدى! أعيدى ! قد والله إنك له لكفء .
وأحس مولاها بإعجاب الخليفة بها وتهالكه عليها فوهبها إياه وانصرف .

* * *

أصبحت « فريدة » من جوارى الواثق ، وما لبثت حتى أضحت أعز جواريه وأكرمهن عنده ، لقد افتتن بها وهام فى حبها وعرف ذلك عنه ، كما عرف يزيد بن عبد الملك « بحبابة » ، وكان شديد الغيرة عليها ، كثير الهواجس نحوها ، حتى إن غيرته لتشمل حياته ومماته ! وكأنه كان يحس إحساس « نُصيب» حين قال:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فوا كبدى من ذا يهيم بها بعدى ؟

وكان « لفريدة » وهى عند مولاها جارية تربت معها تدعى « خل » فكان يعاودها الحنين إليها وتود لو تراها ، ولكن ذلك بعيد ، فما كان الواثق ليطمئن إلى أن يراها أحد حتى مولاها الذى وهبه إياها !

حدث « عمرو » أنه دخل يوماً على الواثق فغنى :

قلت خلى فاقبلى معذرتى ما كذا يجزى محبًّا من أحب

فقال له : تقدم إلى الستارة فألقه على « فريدة » فألقيته : فقالت : هو خلى أو خل ؟ فعلمت أنها سألتنى عن صاحبتها فى خفاء من الواثق :

* * *

وكان من عادة الواثق فى مجالسه الغنائية أنه إذا شرب أفرط فى الشراب ، وأراد ندماءه على الإفراط ! وكان أحياناً ينام فى مجلسه من كثرة الخمر فينام من معه ، وبينما هو راقد إثر مجلس غناء ، إذ هو يصحو على نغم جميل من صوت ذكر وأنثى . . . فارتعدت فرائصه واضطرب قلبه ، إذ ما عسى

(١) سمع عبد الملك بن مروان البيت فقال : ما أعظمه لو قال : فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى .

يكون صاحب هذا الصوت الجميل إلا فريدة ؟ ؟ ويفقد توازنه فينهض ويجرى نحو الأصوات ، وإذا يد تجذبه من الخلف فيلتفت ، فإذا هى فريدة ! فيقف جامداً والأنغام لا زالت تحملها إليه النسمات .

ويقول لفريدة : أهذا غناؤك ؟ ومع من وأنا نائم ؟ فتضحك وتقول : ولكن الغناء لم ينقطع وهأنذا ماثلة أمامك ، فتنفرج أسارير وجهه ويقول : وما الخبر ؟ فتجيب : علىمغنياً ومغنية ممن أحيوا مجلسك قد لعب بهم الخمار فسهرا يتغنيان ، ورحت أنت فى لذائذ النوم والأحلام ! قال : ومن يكونان ؟ قالت : اسمع منى ما يقولان : وجذبته إلى ناحية بعيدة وأمسكت عودها وراحت تغنى ما غنى به المغنى المجهول :

إنى رأيتك فى المنـــام كأننى مترشف من ريق فيك البارد
وكأن كفك فى يدى وكأنمـــا بتنـــا جميعاً فى فراش واحد
ثم انتبهت ومنكباك كلاهمـــا فى راحتىَّ وتحت خدك ساعدى !

فطرب الواثق وصفق بيديه وقال : فَبِمَ أجابته ؟ فراحت « فريدة » تغنى بجوابها :

خيراً رأيت وكل مـــا . أبصرته ســـتناله منى برغم الحاسد
وتبيت بين خلاخلى ودمالجى وتجول بين مفاتنى ومجاسدى
فنكون أنعم عاشقين تعـــاطيا ملح الحديث بلا مخافة راصد

فكرر الواثق : ومن يكونان يا فريدة ؟ ومن هو الحاسد ؟ قالت : أما من يكونان فابحث عنهما ، وأما من الحاسد ؟ فهو أنت يا أمير المؤمنين ! فطار لب الواثق ، وبعث غلمانه وخدمه فى البحث عنهما فأتوا بهما ، فإذا هما خادم من خدمه ، وجارية من جواريه !

قال الواثق لفريدة : ما أصنع ؟ قالت : ما يُصنع للمحبين . . . ! فزوج كلا منهما من الآخر . . . !

قالوا : إن الواثق أسكنهما فى دار من دوره ، وكان يدخل عند الجارية كثيراً ويقول لزوجها : أردت أن تكشخنى[1] فيها وهى خادمتى ، فقد كشختك فيها وهى زوجتك . . . !

* * *

وللواثق مع فريدة مجالس غرامية أكثر منها غنائية ، ومنها ما حدثنا عنها محمد بن الحارث قال :

كانت نوبتى فى خدمة الواثق يوم الجمعة من كل أسبوع . . وكذلك كان لكل من ندمائه يوم لا يتعداه ، ولا يجسر واحد منا على الدخول عنده فى غير يومه !

وبينا أنا فى منزلى يوم الأربعاء إذ رسل الخليفة قد هجموا على وقالوا : أسرع إلى الخليفة ! فداخلنى خوف وقلت : ليس هذا يومى ! ولعلكم أخطأتم! قالوا : لا تطل الحديث فهياً ! وقد أمرنا ألا ندعك تستقر على الأرض لحظة ! فازداد خوفى وفزعى وقلت فى نفسى : هذا آخر أيامى ! ! وركبت حتى وصلت قصره . . . فأدخلت من باب غير ما عهدته ، ولم أكن رأيته قط ... وسلمت إلى خدم لم ترهم عيناى ... وهؤلاء يسلموننى إلى آخرين حتى انتهيت إلى صحن كبير مفروش ، وقد غطيت حيطانه بالوشى المنسوج بالذهب . . . ثم وصلت إلى رواق أرضه وحوائطه مكسوة بمثل ذلك ، وإذا الواثق فى صدره على سرير مرصع بالجوهر ، وعليه ثياب موشاة بالذهب ، وبجانبه « فريدة » عليها مثل ثيابه ! وفى حجرها عود ! فلما رآنى قال : أحسنت والله يا محمد ! فقبلت الأرض وقلت : خيراً يا أمير المؤمنين ! قال :

طلبت والله ثالثاً يؤنسنا فلم أر أحق بذلك منك ! فبحياتى ! بادر

---

(١) الكشخان : الغافل الذى لا يغار .

فكُلْ شيئاً . . . فقلت : قد والله يا سيدى أكلتُ وشربت : قال : فاجلس ، فجلست ! قال : هاتوا لمحمد رِطلا فى قدح ، فشربت واندفعت فريدة تغنى :

أهابك إجلالاً وما بك قدرة     علىّ ، ولكنْ مِلءُ عين حبيبُها
وما هجرَتك النفسُ يا ليلُ أنّها     قلَتْكِ ، ولاأن قلّ منك نصيبها

فجاءت والله بالسحر الحلال ، وراح الواثق يداعبها ويلاطفها أثناء الغناء ! قال محمد : وبينما نحن فى نشوة وطرب ، وإذا بالواثق قد رفع رجله وضرَب بها فريدة فى صدرها ضربة تدحرجتْ منها من أعلى السرير فتَفتّت عودها . ! فنهضَت وهى تجرى صارخة واختفت عنا ! !

وما رأيت هكذا حتى فقدتُ وَعْيى وكادت روحى تزهق ، وظننتُ أنه رآنى وأنا أخالسها وتخالسنى النظرات . . ففعل بها ما فعل ! وسيفعل بى ما يريد !

ونظرت إليه فإذا هو مطرق إلى الأرض وذقنُه فى يده ! فأطرقتُ وقد توقّعت ضرب عنقى ! وظللنا على ذلك ساعة من الإطراق والصمت حتى فقدت رشدى ! ثم رفع نظره إلىّ وقال : يا محمد ! قلت : لبيك ! ونهضت واقفاً ! قال : أرأيتَ أغرب مما صنعت ؟ قلت : يا سيدى ، قد أصابتنا عَيْنٌ ! فلعنةُ الله على صاحبها ! قال لا : ولكنى تخيّلت أننى سأموت ! وأن « المتوكل » سيقعد فوق هذا السرير وتقعد فريدة بجانبه وتغنيه هذا الصوت ! فَسُرِّى عنى : وقلت : يا سيدى بل يُقْتل المتوكل . . . ويحيا أمير المؤمنين !

قال محمد : وانفرجت أسارير الواثق وأرسل الخدم فى طلب فريدة ، فحضرت وبيدها عود جديد ، وثياب طَلية . . . فما رآها حتى جذبها إليه وعانقها وراح يبكى كالطفل . . . وأنا أبكى لبكائه . . . وفريدة تنتحب وتشهق من حرارة البكاء ! ثم قالت له فريدة : يا سيدى ومولاى ، بأى شىء

استوجبت هذا ؟ فحكى لها ، فزاد بكاؤها وبكاؤه . . . ثم قالت : سألتك بالله يا أمير المؤمنين إلاّ ضربت عنقى الساعة ، وأرحتنى من الفكر ، وأرحت نفسك من الهمّ بى . . . ! فعانقها الواثق مرة أخرى ورَفعها إلى جانبه كما كانت . . . !

ثم أمر فأحضرت أكياس الفضة والذهب فنثرها بين يديها ، وأخرج من درج بجانبه عِقداً ما رأيت أنفَس منه فى حياتى ، فوضعه فى عنقها ، ومَنَحنى من العطايا ما لا يقدر ، فعاد مجلسنا كما كان يشع فيه البشر والهناءة . !

قال محمد : وعشتُ حتى ماتَ الواثق وَولِىَ المتوكل الخلافة ، فوالله لقد دخلت عليه فى نفس المكان ، وهو على نفس السرير ، وفريدة بجانبه والعود فى يدها . . !

* * *

مات الواثق فأصبحت « فريدة للمتوكل » ولكنها كانت شديدة الحزن عليه صادقة الوفاء له ، وإنها لا تنسى عاطفةَ سيدٍ لها كان يَغَار عليها حتى بعد موته ، ولا تنسى إعزازه لها ومحبته إياها ، وقد تولّه المتوكل بها حتى إنه تزوجها . . . ومع هذا فقد تعددت الروايات أنها امتنعت عن الغناء للمتوكل ، وأنه كان يجعل على رأسها غلاماً يضربها كلما امتنعت ، وظلت هكذا ممتنعة حتى اندفعت يوماً على كره وغنت :

فلا تبعد فكل فتًى سيأتى عليه الموت يَطْرق أو يغادى

ويقول محمد بن الحرث أيضاً : إنه دخل يوماً على المتوكل فوجد فريدة بجانبه وقد امتنعت عن الغناء ! فلما رآه قال له : يا محمد !

أما ترى ما أنا فيه من هذه ؟ أنا منذ الصباح أطالبها بالغناء وهى تَأبى ، قال لها محمد : يا سبحان الله ! أتخالفينْ سيدك وسيدنا وسيد البشر ؟

بحياته غنى ، فاندفعت تغنى من شعر أبى العتاهية :

أخلاّى بى شجو وليس بكم شجو ... وكل امرئٍ مما بصاحبه خلو

أذاب الهوى لحمى وجسمى ومفصلى ... فلم يبقَ إلا الروحُ والجسَد النضوُ

وما من محب نال ممن يحبــه ... هوى صادقًا إلاَّ سيدخله زَهْوُ

وما فرغت من غنائها حتى ضربت الأرض بعودها ، ثم رمت بنفسها عن السرير ، وراحت تعدو وهى تصيح : واسيداه ! ! فنظر إلىَّ المتوكل وقال: ويحك ، ما هذا ؟ قلت : لا أدرى يا سيدى ، قال : وما أفعل ؟ قلت : انصرف أنا فسوفُ تعود إليك، وانصرفتُ وما علمت من أمرهما شيئًا . . . !

والحق أن فريدة كانت تعاشر المتوكل على كره رغم أنه تزوج منها ، ولعل المتوكل لم يكن فيه من الرقة أو الملاحة ما يحبب فيه الجوارى ، ولقد كانت عواطف متيم الهاشمية نحوه كذلك ، ولكننا سنجد واحدة منهن تحفظ له شيئًا من الوفاء، هى « محبوبة » جاريته وسيأتى الحديث عنها .

ومهما يكن من كل هذا فلا يعقل أن تمتنع جارية من غناء خليفة ، وإنما المعقول أن تغنيه ولو على مضض ، وقد كان منها ذلك .

وقنع المتوكل بهذا ورضى به .

* * *

وكان لفريدة مكانة ملحوظة بين المغنين والمغنيات ، وكانت موضع مقارنة بينها وبين العظيمات منهن:

وتحدث « رَيّق » جارية إبراهيم بن المهدى أنها اجتمعت هى « وخشف» المغنية يومًا ، فتذاكرتا أحسن ما سمعتاه من المغنيات فقالت ريق : شارية ومتيم أحسنهن غناء ، وقالت خشف : بل « عَريب وفريدة » ثم اتفقتا على تقديم متيم الهاشمية فى الصنعة ، وعريب فى الغزارة والكثرة ، وفريدة وشارية فى الطيب وإحكام الغناء .

* * *

تلك هى فريدة جارية الواثق وحبيبته . . . وعاصية المتوكل وزوجته !

وهناك فريدة أخرى مغنية فمن تكون ؟

قال أبو الفرج : هى « فريدة » الكبرى ، نشأت بالحجاز ، لآل ربيع ، فنشأت فى دورهم وتعلمت الغناء عندهم . ثم اشتراها البرامكة ، ولما قتل جعفر ابن يحيى ونكب البرامكة فرّت ، فطلبها الرشيد فلم يعثر عليها !

ولكن الأمين استطاع أن يعثر عليها فضمها إلى جواريه واحتفى بها ! وقتل الأمين ، فخرجت وتزوجها الهيثم بن مسلم ، ومن بعده تزوجها « السندى ابن الجرشى » ولها صنعة معروفة ، فمن غنائها :

ويح سلمى لو ترانى        لعنـــاها مـــا عنانى
واقفـاً فى الدار يبكى        عاشقـاً حور الغوانى

ومن غنائها وصنعتها وهو من شعر جميل :

ألا أيها الركب النيام ألا هبّوا        نسائلكم ، هل يقتل الرجل الحبُّ
ألا رُب ركب قد وقفت مطيهم        عليك ، ولولا أنت لم يقف الركبُ

# محبوبة
# جارية المتوكل

جارية من جوارى البصرة ، عرفت بجودة الغناء والضرب على العود كما عرفت بثقافتها الأدبية وأنها كانت تقرض الأشعار .

ولم تشر الكتب التى تحدثت عنها إلى نشأتها وهى صغيرة حتى حذقت الغناء واشتهرت به ، وكل ما قالوه : إنها كانت جارية لعبد الله بن طاهر ، ثم أهداها إلى الخليفة المتوكل بين أربعمائة جارية !

فعبد الله بن طاهر هو أول من عرف من مواليها ، وعله أولهم وآخرهم ! لأن الرجل عرف بحبه اقتناء الجوارى الكثيرات ، كما عرف بفضله وأدبه وعلو قدره ومكانته بين الخلفاء ، فقد كان من أعظم الولاة وأكبر القواد وأفاضل الشعراء والكتاب ، وله فى أخباره[1] شعر كثير فى الفخر بنفسه وبحسبه ، وفى مدح بعض الخلفاء ومنهم المأمون .

وقد عرف ابن طاهر بالكرم والسخاء ، حتى إنه ليضارع البرامكة فى بذلهم والخلفاء فى عطاياهم !

ومن أعجب ما عرف عنه أنه أستاذ فى فن الغناء ، وأن له ألحانًا كثيرة لم ينسبها إلى نفسه اشمئزازًا من هذه الصنعة وترفعًا عنها ! . .

ومن أصواته التى عرفت عنه غناؤه فى شعر لأخت عمرو بن عاصية[2] :

هلاّ سقيتم بنى حزم أسيركم ... نفسى فداؤك من ذى غلة صادى ؟

الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها ... مضرج بعد ما جاءت بإزباد

وقد حكى عبيد الله ابنه قال :

---

(١) أغانى جـ ١١ ص ١٤ .     (٢) أسر فى حرب وقتل عطشان .

لما صنع أبى هذا الصوت لم يحب أن يُسمع عنه ، ونَسَبه إلى « مالك ابن أبى السمح[1] » !

ولابن طاهر ألحان كثيرة ألقاها على جواريه فأخذنها عنه !

وكان لآل الفضل بن الربيع جارية تدعى « راحة » تتعشق ابن طاهر وتأخذ الغناء عنه سراً ، وعن جواريه جهراً ، ولقد غنت هذا اللحن مرة أمام المأمون وعبد الله جالس ، ونسب السامعون اللحن إلى « مالك » فضحك ابن طاهر وكشف للمأمون عن السر . . . فتعجب إسحاق من حذقه ومهارته وإخفائه ألحانه طول هذه المدة ! ومن غناء ابن طاهر :

راح صحبى وعاود القلبَ داء من حبيب طلابُه لى عناء
حسن الرأى والمواعيد لا يُلْـ فى لشىء مما يقول جفاء
من تعزَّى عمن يحب فإنى ليس لى ما حييت عنه عزاء

* * *

هذا وقد أفصحنا قليلاً عن شخصية عبد الله بن طاهر لنرى إلى أى حد تتأثر جاريته محبوبة بهذه الشخصية ، فإذا كانت قد حذقت الغناء وتعشقته فسيدها أصل من أصوله وعاشق له ، وإذا كان لها ذوق أدبى وصنعة شعرية فسيدها أديب ممتاز وشاعر رقيق !

والذى نقف عنده بعض الشىء هو أن « محبوبة » لم تعرف عنها أخبار ، ولم تشتهر بشىء من غنائها وهى عند سيدها عبد الله .

ولعل هذا الحجاب الذى حجبها عن الناس وأخفى صنعتها الغنائية عنهم هو ما جعل صاحب الأغانى يهمل ذكرها نهائيًّا بين من أورد من القيان ، أجل ! هذا أمر قمين بالوقوف عنده ريثما نعرف السر فيه .

لِمَ ظلت « محبوبة » مجهولة السمعة عند مولاها ، ولم تشتهر إلا حين

(١) مغن قديم تقدم ذكره فى أخبار جميلة .

ضمها المتوكل ؟ أكانت خاملة ؟ أم كانت لا تزال ناقصة ؟

أكبر الظن أنه لا هذا ولا ذاك . بل لأنها كانت جارية لهذا السيد النبيل ! . . . فابن طاهر قائد خراسان المعروف ، وقد عرف بالوقار والعفة وكرم الحسب وعراقة الأصل ، فهو لم يفتح داره لكل عاشق للغناء أو معجب بالجوارى ، كما لم يسمح للشعراء أن يجعلوها منتدى لمنادراتهم ومجونهم ؟ وهو وإن عشق الغناء واقتنى الجوارى وأسرف فى اقتنائهن ، إلا أنه لم ينس قدره ومكانته الاجتماعية والإدارية على السواء ، كما أن امتلاكه للجوارى واهتمامه بهن لم يكن عبثاً أو مجوناً ، وإنما كان تقليداً لكل شريف مثله . . . فليس ثمت فى ذلك الوقت أمير أو شريف أو قائد لم يكن لديه من الجوارى قدر ما كان للخلفاء بل يزيد ، على أن امتلاك الجوارى والإكثار منهن كان مقياساً من مقاييس المجد والعراقة والجاه ! وابن طاهر فى هذا كله فوق القمة من كل أمير أو شريف !

إذن فجوارى ابن طاهر له وحده . . . ! ولداره وحدها ، داره التى لها تقاليد الأشراف . . . !

على أن لابن طاهر بعض العبث العفيف والمجون الأدبى المعقول ! فهو فى عبثه وقور ، وفى مجونه محترس ، وفى تنفيسه ببعض اللهو كثير من قيود الحسب والمكانة .

جوٌّ كهذا ، ووسط هذا شأنه ، لا تتخرج فيه جارية ماجنة خليعة ، كما لا تشتهر فيه جارية بما هى عليه من جودة الغناء أو سحر الجمال ، لذلك قالوا : إن محبوبة كانت عفيفة وقورة رغم ما وهبها الله من جمال فاتن وغناء عجيب !

ولعلنا بهذا نستطيع أن نعلل سكوت التاريخ عن نشأة محبوبة وعن إذاعة أخبارها وغنائها وهى عند مولاها ، كما نستطيع الظن بأنه أول مولى لها ، وأنها قطعت مرحلة حياتها الأولى عنده ، فتخرجت عليه فى الغناء والشعر فى هذا الجو المحوط بالكتمان والوقار والتقاليد ! !

ولقد بلغ من تحرز ابن طاهر أنه ما كان يصرح باسم جارية من جواريه مع مُحدثيه حتى فى المناسبات العابثة التى لا تتحمل الوقار ، بل إن الوقار فيها يعد ضرباً من السخف والإسراف !

* * *

حدثوا أن على بن الجهم الشاعر الماجن المعروف ، دخل يوماً على ابن طاهر وهو مصطبح فى يوم من أيام الربيع ، وقد تغيمت السماء ورق الجو وتساقط المطر رذاذاً جميلا ما بين برق ورعد ، فوجده كئيب الوجه ! فسأله السبب ، فأخبره أن إحدى جواريه أغضبته فى شىء ما . . . فما زال به ابن الجهم حتى سُرِّى عنه ، فقال له ابن طاهر : قل شعراً فى هذا الموقف فقال :

أما ترى اليوم ما أحـلى شمائله ... صحو وغيم وإبراق وإرعاد
كأنه أنت يا من لا شبيه له ... وصل وهجر وتغريب وإبعـاد
فباكر الراح واشربها معتقـة ... لم يدخر مثلها كسرى ولا عاد
واشرب على الروض إذ لاحت زخارفه ... زهر ونور وأوراق وأوراد
كأنما يومنا فعل الحبيب بنـا ... بذل وبخل وإبعاد وميعاد
وليس يذهب عنى كل فعلكم ... غىٌّ ورشـد وإصلاح وإفساد

قالوا : فطرب ابن طاهر ووصل ابن الجهم !

وبعد : فمن تكون هذه التى أغضبته ؟

أنا لا أظنها إلا « محبوبة » لأنها كانت أعز جواريه وأتمهن جمالاً وغناء ! ولأنها هى وحدها التى ذكرها الرواة وصرحوا باسمها ضمن من أهدى إلى المتوكل من جوارى ابن طاهر !

ومهما يكن من شىء ، فإن محبوبة نشأت فى منزل ابن طاهر فى الجو الذى وصفته . . . فلم تفز بشىء من الشهرة إلا حين استقرت فى قصر المتوكل !

* * *

أهديت « محبوبة » إلى المتوكل فتنفست الصعداء ، وانطلق فى نفسها

الكبت الذى عانته من قبل ، فراحت تستغل مواهبها الجسدية والأدبية والغنائية حتّى ملكت عليه أمره ، وأصبحت فى قصره درة ثمينة تحاط بالرعاية والحفظ والإيثار كما كانت « فريدة » فى بلاط الواثق !

قالوا : إن المتوكل أغرم بها حتّى إنه لم يستطع فراقها لحظة ، ولا تلذ له الحياة إلا أن يراها فى الدقائق مرات . . . ولقد بلغ شغفه بها أن صنع لها ستارة بجانب مجلسه « الرسمى » فكان يدخل رأسه إليها فى كل لحظة ليراها وزوّاره أمامه !

وكان للمتوكل جارية تدعى « قبيحة[1] » ! وقد تحدث عنها إلى على بن الجهم يوماً فقال : دخلت على « قبيحة ! » فوجدتها قد كتبت اسمى على خدها بغالية[2] فلا والله ما رأيت شيئاً أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخد . . . فقل فى هذا شيئاً ! !

قالوا : وكانت « محبوبة » تسمع الحديث من وراء الستار ! فما إنْ طلب ابن الجهم ورقة وقلماً ليكتب ما أمر به المتوكل حتّى نطقت مرتجلة بهذا الشعر :

| | |
|---|---|
| وكاتبه فى الخد بالمسك جعفراً | بنفسى مَحط المسك من حيث أثرا |
| لئن كتبت فى الخد سطراً بكفها | لقد أودعت قلبى من الحب أسطرا |
| فيا مَن لمملوك لملك يمينــه | مُطيع له فيما أسرَّ وأظهرا |
| ويا من هواها فى السريرة جعفر | سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا |

فما سمع على بن الجهم هذا الشعر المرتجل حتّى أسقط فى يده وتحيَّر !! أما المتوكل فقد طرب وصاح ! وبعث بالأبيات إلى « عريب » وأمرها أن تغنى فيها !

وتلك ناحية أخرى تفيدنا أن « محبوبة » لم تكن صاحبة صنعة غنائية ،

---

(١) تسمية بالضد .　　(٢) المسك .

وإنما كانت تغنى ألحان غيرها ! اللهم إلا إذا كان المتوكل قد أعجب بهذا الشعر إعجابا أراد معه نشره وتمجيده بغناء « عريب » مع ما قد يكون « لمحبوبة » من صنعة فيه !

* * *

وليس أدل على حب مالكٍ لجاريته ، من أن يقع بينهما صلح وغضب ، وشكوى وعتاب ، فالجارية غير الممتازة فى قلب سيدها قلما تكون معه فى هذا الوضع !

حدثوا أن المتوكل غضب من « محبوبة » لأمر خالفته فيه ، فهجرها ومنع جواريه من التحدث إليها أو الاتصال بها !

ولكن الشوق إليها نازعه فحنّ . . . وتيقظت العزة فى نفسه فأحجم ! وما زال هكذا يصارع فى نفسه الحنين ، وفى عقله الكبرياء ، حتى كادت روحه تتلف !

ولم تكن « محبوبة » أقل منه تمنعاً وإباء لوثوقها من منزلتها فى نفسه !

وبينما هو كذلك ، إذ دخل عليه على بن الجهم — وكان موضعاً لسره وقتئذ — فقال على : بنفسى أمير المؤمنين ! ما باله ؟ قال المتوكل : يا على ! رأيت البارحة فى نومى أننى صالحت محبوبة : قال على : أقرّ الله عينك يا أمير المؤمنين ! وأنامك على خير وأيقظك على سرور !

وبينما هما يتحدثان ، إذ أقبلت وصيفة وأسرّت فى أذن المتوكل كلاماً ! فقال لعلىّ : أتدرى ما أسرت إلىّ هذه ؟ قال : لا : قال : حدثتنى أنها اجتازت بمحبوبة الآن فوجدتها تغنى ! أفلا تعجب من هذا ؟ أنا مغاضبها وهى متهاونة بغضبى ! ! ثم هى تتأبّى فلا تبدؤنى بصلح ، ثم لا ترضى حتى تغنى ! فقم بنا نتسمع ! قال على : فتبعت أمير المؤمنين ، فما وصلنا حجرتها حتى سمعناها تغنى :

أدور فى القصر لا أرى أحداً أشكو إليـه ولا يكلمنى
حتى كأنى أتيت معصيةً ليسـت لها توبة تخلصنى
فهـل لنـا شافع إلى ملك قد زارنى فى الكرى فصالحنى
حتى إذا ما الصباح لاح لنا عاد إلى هجره فصارمنى

فعجب المتوكل ودهش! وأحست محبوبة به فخرجت إليه، وقالت له: هكذا جئت إلىَّ فى المنام فصالحتنى... وهذا ما سمعته من شعرى وغنائى... فضمها بين ذراعيه! قال علىّ: فخرجت مسرعاً لا أدرى ما كان!!

* * *

ودارت الدوائر على المتوكل وراحت محبوبة بعده تستقبل حياة كئيبة مريرة لا لون لها ولا طعم!

ويظهر أنها كانت وفية له أشد الوفاء، مخلصة له كل الإخلاص!

حدثوا أنه بعد قتل المتوكل أمر «وصيف»[1] بجميع جواريه، فأحضرن وعليهن ثياب ملونة مذهبة، وقد تزيَّنَّ وتعطرن، وحضرت محبوبة بينهن بثياب بيض غير فاخرة حزناً على المتوكل... فغنى الجوارى جميعاً وشربن، وطرب «وصيف» وشرب! ثم قال: يا محبوبة! غنى! فراحت تغنى وهى تبكى:

أى عيش يطيب لى لا أرى فيه جعفرا؟
ملكاً قد رأته عيـ ـنى قتيـلاً معفرًا
كل من كان ذا هيُا م وحزن فقد برا
غـير محبـوبة التى لو ترى الموت يُشترى؟
لاشـتَرته بملكهـا كل هـذا لتقبرا
إن موت الكئيب أصلـ ـح من أن يعمَّرا

(١) قائد تركى له يد فى قتل المتوكل.

فاغتاظ لذلك «وصيف[١]» وأمر بقتلها !

ولكن « بُغا[٢] » استهداها منه ، فوهبها إياه فنجت من القتل ! وقيل إنه أعتقها وأمر بإخراجها فنفيت إلى بغداد ! ولم يسمع لها بعد المتوكل خبر ..! فما تذوقت للحياة بعده طعماً ، ولم ينظر إليها أحد حتى ماتت !

---

(١ ، ٢) قائدان تركيان لهما يد فى قتل المتوكل .

# قلم الصالحية

وهذه أيضًا جارية للخليفة « الواثق » .

وكل ما أعجب الواثق من ألحان أغرم بصاحبتها ، فلا ينفك يطلبها حتى يتملكها . ! وهو فى ذلك معذور كل العذر ، فهو صاحب صنعة غنائية كما قلنا ، وهو من الخلفاء الذين أغرموا بالغناء ولهم فيه ألحان عرفوا بها !

ولم تكن حياة « قلم » كلها للواثق ، فإنها نشأت أول ما نشأت بالعراق فى « بغداد » فتلقت الغناء على مشايخه أمثال إبراهيم الموصلى وإسحاق ابنه ويحيى المكى ، وقد عرفت بالجمال والعذوبة وصفرة اللون ، كما عرفت لها ألحان كثيرة أخذها عنها المغنون ومنهم المغنى « زرزور الكبير » .

وكانت قلم فى أول أمرها جارية لصالح بن عبد الوهاب أخى أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد ، وكان صالح هذا معتزًا بها مهتمًا بأمرها ، فوقف على تثقيفها وتهذيبها وتخريجها فى الغناء على أساتذته فى ذلك الحين .

ومن غنائها وهى عند مولاها شعر لعلى بن الجهم يهنىء به « الواثق » حين ولى الخلافة :

| | |
|---|---|
| قد فاز ذو الدنيا وذو الدين | بدولة الــواثق هرون |
| وعم بالإحســان من فعله | فالناس فى خفض وفى لين |
| ما أكثر الداعى له بالبقــا | وأكثر التــالى بآمين ! |

ولست أدرى ما أعجب « قَلَم » من هذا الشعر حتى تغنيه ؟ وإن فيه من الفتور والغثاثة والروح الفقهية ما ينبو به عن الذوق السليم ! ولكنه شعر للخليفة ! وكل ما للخلفاء فهو عظيم !

ومما غنته من شعر على بن الجهم فى الواثق أيضًا :

وَثِقَت بالملك الوا ثق بالله النفوسُ
ملك يشقى به الما ل ولا يشقى الجليس
أنس السيف به واس توحش العِلق النفيس
يا بنى العباس يأبى اللَّ ه إلا أن تسوسوا

واشتهرت « قلم » بهذا الغناء فى الواثق ، فأخذه عنها كثير من المغنين وتغنوا به فى مجالسه ! !

أعجب الواثق بهذا الغناء فسأل عن صاحبه فقيل له : « قلم الصالحية » والغريب أن الخليفة لم يكن (يعرف شيئًا عن مولاها كما يفهم من رواية الأغانى[٢] ، وقد ظل مشغوفًا بهذا الغناء توّاقًا إلى رؤية صاحبه ، حتى دخل عليه يومًا بعض ندمائه وفيهم المغنون وقد اندفع واحد منهم يغنى من شعر محمد بن كُناسة مولى « دنانير » :

فى انقبــاض وحشمة فإذا صادفتُ أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم

فطرب الواثق وسأل : لمن الغناء ؟ قالوا : « لقلم الصالحية » جارية صالح ابن عبد الوهاب !

فبعث إلى ابن الزيات وزيره وكاتبه فقال له :

ويلك ! من صالح بن عبد الوهاب ؟ فأخبره به ! قال الواثق : فأين هو ؟ قال : فى بغداد ! قال الواثق : ابعث فى إحضاره ومعه جاريته ، فقدما على الواثق فأمر الجارية بالجلوس والغناء فغنت لبعض الشعراء :

---

(١) جـ ١٢ ص ١١٦ .

أيها العـــاذلان لا تعذلانى ودعانى من الملام دعانى
وابكيا لى فإننى مســـتحق منكما بالبكاء أن تسعدانى
إننى منكما بذلك أولى من مطيع بنخلتى حلوان[1]
فهما يجهلان ما كان يشكو من هواه وأنتما تعلمان !

فما سمع هذا الغناء حتى طرب وشرب ثم قال : يا صالح : بكم تبيعنى هذه الجارية ؟ قال : أبيعها بمائة ألف دينار وولاية مصر . . . ! !

فغضب الواثق وتأذى وأذن لهما بالخروج ، فانصرفا إلى بغداد .

* * *

خرجت « قلم » ورحلت ، ولكن لم يرحل عن الواثق إعجابه بها . . . وكلما حدثته نفسه بها تذكر جرأة مولاها فى طلبه ، ثم طمعه فى ولاية مصر ، فينصرف عنها وعن تذكرها .

وتشاء الأقدار إلا أن يلاحق الواثق ذكرها ، وأن تتكشف أمامه دائمًا محاسنها ، فما هو إلا مجلس من مجالسه الغنائية حتى اندفع « زرزور » الكبير فغنى من شعر أحمد بن عبد الوهاب أخى صالح مولاها :

أبت دار الأحبـــة أن تبينا أجدك ما رأيت لها معينـــا
تقطع نفســـه من حب ليلى نفوسًا ما أُثِبْنَ ولا جزينا

قال : يا سبحان الله ! علىّ بابن الزيات !

فحضر ابن الزيات فأمره بإحضارها هى ومولاها فأحضرا !

قال الواثق : غنى يا قلم : أبت دار الأحبة . . . إلخ فغنت ! ثم التفت إلى صالح وقال : أما زلت تطلب ولاية مصر ؟ فأحس مولاها

---

(١) لنخلتى حلوان قصة فى أخبار مطيع بن إياس أغانى جـ ١٢ ص ١٠٧ .

رغبة الخليفة فيها ! كما أحس فظاعة المطلب والجرأة التى يفصح عنها ! ! فقال :

أما وقد وقعت الرغبة فيها منك يا أمير المؤمنين فما يجوز أن أملك شيئاً لك فيه رغبة ! وقد أهديتها إليك فبارك الله لك فيها ! فما سمع الواثق هذا الكلام حتى ابتهج وقال : قد قبلت ! وأمر ابن الزيات أن يدفع لمولاها خمسة آلاف دينار !

ولكنّ ابن الزيات عرف القصة فلم يعط مولاها شيئاً ! !

وكظم الرجل غيظه ولم يجد له حيلة لقبض الدنانير إلا أن يرسل إلى « قلم » من يخبرها بذلك وقد فعل !

ونعم الواثق « بقلم » وشقى مولاها بالحرمان دون أن يجرؤ على مطالبة ابن الزيات بشىء ! وكيف يطلب وابن الزيات مدبر الأمور ومصرف شئون الدولة إذ ذاك ؟ فهو يعطى ويمنع ! وهو يسعد ويشقى ! ولم يعلم الواثق بهذه المماطلة إلى أن اصطبح يوماً مع « قلم » فغنت له من شعر أبى الأسود الدؤلى وغناء إبراهيم الموصلى :

بُليت بصاحب إن أدن شبراً ... يزدنى فى مباعدة ذراعا
وإن أمدد له فى الوصل ذرعى ... يزدنى من جفاء البعد باعا
أبت نفسى له إلا اتباعاً ... وتأبى نفسه إلا امتناعا
كلانا جاهد أدنو وينأى ... فذلك ما استطعت وما استطاعا

فطرب الواثق وقال : بارك الله فيك وفيمن رباك ! فتضايقت الجارية وصاحت : يا أمير المؤمنين ! وما نفع من ربانى منى إلا التعب والغرم على الخروج منى صفراً ؟ قال الواثق وقد تعجب : أو لم آمر له بخمسة آلاف دينار ؟ قالت : بلى ! ولكن ابن الزيات لم يدفع له شيئاً ! ! فدعا بخادم

من خواص خدمه وكتب إلى ابن الزيات بدفع خمسة آلاف دينار إلى مولاها وبخمسة أخرى مثلها ! !

وهنا يقول صالح : فذهبت مع الخادم إلى ابن الزيات ، فلما رآنى تغير وجهه ، ولكنه دفع الخمسة الآلاف . . . ووعدنى بدفع الخمسة الأخرى بعد جمعة ! ولكن فاتت جمعة وجمعة ، وقد تناسانى وتنكر لى وتجاهلنى ! فكتبت إليه بالدفع ، فأمرنى أن أكتب له قبضًا بها على أن يدفعها إلى بعد جمعة ، ولكنى خفت إن كتبت له قبضًا أن يضيع على حقى دون أن آخذه منه ! فامتنعت من ذلك ، وامتنع هو من الدفع !

وكنت أعلم أن ابن الزيات يتردد على منزل من منازل أحد أصدقائى للعبث والمجون ، وكان يتستر فى ذلك خوفًا من الواثق . . . فجعلت هذه الناحية فيه هى المصيدة التى أصيده بها ! والتى أقبض منها حقى .

وبينما هو عند صديقى ليلة ، وقد مدت موائد الشراب وحولها الولدان والجوارى ، إذ طرقت باب صديقى ففتح لى . . . فدخلت ولكنى تسترت عنه . . . وعلم ابن الزيات بوجودى فأسقط فى يده ، وفطن إلى حرج موقفه وأن الخليفة لا بد عالم به إن لم يدفع !

وفى الصباح كنت قد قبضت الخمسة الآلاف فاشتريت بها ضيعة وجعلتها معاشى واستغنيت بها عن عمل السلطان .

* * *

وبعد : فهذه قصة « قلم » . . . وقصة بيعها للخليفة . ومماطلة ابن الزيات فى دفع ثمنها :

هذا ، ولم يكن للجارية فى نفس الواثق ما كان « لفريدة » فى نفسه ، فالأولى كان مفتونًا بفنها وغنائها . والثانية كانت له حبيبة ، وكان بها مدلهًا . . . وما أشبه « قلم وفريدة » عند الواثق بـــ « سلامة وحبابة » عند يزيد بن

عبد الملك . . . وقد ذكرنا ذلك فى موضعه ، وكان « لقلم » كثير من المعجبين بغنائها ، والذين يغنون ألحانها وينسبونها إليها ، فهى إذن صاحبة فن غنائى معترف به ، وصاحبة مذهب فيه أحبه الناس واستحسنوه .

ولم يعرف عنها صلات وجدانية كما عرف عن معظم الجوارى ، فلم يبد فى أخبارها ما يحدد علاقتها بمولاها الأول ، أو يفصح عن شعورها نحو الواثق ، ويظهر أنها كانت مغلقة الحس إلى حد ما . . . ! أو أنها كانت متيقظة الفهم لوضعها ، من أنها سلعة تباع وتشترى ، وأن علاقاتها بالناس هى علاقة بذل وانتفاع . . . فلم يكن ثمت فى نفسها استعداد لحياة عاطفية أو ما يشبهها !

هذا ، وليس فى أخبارها — وهى قليلة جداً — ما ينبئنا بنهاية حياتها ، فهل عاشت بعد الواثق ؟ أو ماتت قبله ؟

والظن أنها عاشت بعده ، ولكنها عيشة خاملة رغب عنها الرواة فلم ينقلوا إلينا منها شيئاً .

# خُليدة المكية

هذه إحدى جوار ثلاث « خُليدة ودُقاق وسَاجى » كان نصيبهن من الأخبار قليلاً جداً لا يكفى لتكوين صورة صحيحة عن كل منهن ، أو لرسم حياة كاملة مميزة .

كذلك لم يكن لواحدة منهن عيشة فى قصور الخلفاء كبقية الجوارى المغنيات ، فهن بذلك يتشابهن فى حياتهن عامة مع « عبيدة الطنبورية » مع الفوارق — طبعاً — فى أساليب الحياة !

كذلك — وهو الغريب — لم نعثر لواحدة منهن على غناء منصوص عليه ، إلا خليدة المكية فإن لها لحناً معروفاً غنته فى مجالس جميلة ، وقد ذكرناه فى موضعه !

لهذا ولغيره من الدواعى غير المباشرة كانت حياتهن متشابهة ، وأقدارهن متقاربة ، ونصيبهن من الروايات والأخبار ضئيلا!

فأما « خليدة المكية » فهى جارية سوداء مدينية ، لها صنعة معروفة فى الغناء استحسنتها « جميلة » ، ولم يُعن أبو الفرج فى أغانيه أن يفرد لها فصلاً من فصوله كما صنع لغيرها من الجوارى ، ولعله لم يوفق إلى أخبار ثقات عنها فأهملها ، أو لعله استصغر ما رأى أو سمع عنها فاكتفى بكلمة موجزة فيها تحت عنوان[١] « ذكر خبر من لم يمض له خبر ولا يأتى » .

وجاء صاحب نهاية الأرب فأفرد لها كلاماً[٢] لا يخرج فى مجموعه عما ورد فى الأغانى !

وليس فى هذا ولا ذاك ما يعطينا صورة كاملة أو واضحة لحياتها !

ومن هذه الأخبار الصغيرة نستطيع أن نقول :

كانت خليده جارية « لابن شماس[٣]» وكان له غيرها « عقيلة

---

(١) أغانى جـ ١٥ ص ١٠ (٢) الجزء الخامس . (٣) من تجار القيان .

وربيحة» فسمين « الشماسيات» وهو فى هذا شبيه بابن رامين الذى عرف بجواريه « الزرقاء وسعدة وربيحة » وقد مضى الحديث عنهن !

إلا أننا ــ وقد أتعبنا البحث ــ لم نجد شيئاً عن ابن شماس هذا كما وجدنا كثيراً عن ابن رامين .

وخليدة جارية نشأت فى المدينة ، وتلقت الغناء عن جميلة وابن سريج ومالك ومعبد ، فهى بهذا مغنية قديمة تلقت الغناء عن أساطينه الذين ظلوا حتى نهاية الدولة العباسية أصلاً لكل غناء ، ومرجعاً لكل مغن أو مغنية .

وكانت تختلف إلى دار جميلة وتنخرط فى جواريها ، وتقوم بخدمتها وتحيى معها أيامها الغنائية ، كما رحلت معها إلى مكة فى مواكب حجها ، ولها غناء بمجالسها فى « يومها الثالث » وهو :

ألا يا من يلوم على التصابى ... أفق شيئاً لتسمع من جوابى
بكرتَ تلومنى فى الحب جهلاً ... وما فى حب مثلى من معاب
أليس من السعادة غير شك ... هوى متواصلين على اقتراب ؟
كريم نال وُداً فى عفاف ... وستر من منعمة كعاب

وكانت خليدة سوداء اللون ، ولكن سوادها لم يحل بينها وبين الإعجاب بها . فمن أخبارها الصغيرة عرفنا أن لها حياة غرامية لم تسعدنا الأخبار بتفصيلها غير أنهم قالوا : إن أكثر من واحد من أهل المدينة افتتن بها ، ومنهم من يشير إليه الشاعر بقوله :

فتنتْ كاتب الأمير رَباح ... يا لقومى خُليدة المكية

أما كاتب الأمير هذا فمجهول اسمه ، وأما الأمير فهو « رباح بن عثمان » وكان والى المدينة وله مع ابن ميادة الشاعر حديث(١) .

---

(١) أغانى جـ ٢ ص ١٨٠

ونستطيع أن نقول : إن « خليدة » كانت صاحبة صنعة غنائية أعجب بها المغنون والمستمعون ، وأن لها مكانة ملحوظة بينهم يتحدثون عنها ويتناقلون الأخبار فيها ، فقد روى إسحاق الموصلي أن الفضل بن الربيع قال : ما رأيت « ابن جامع [1]» يطرب لغناء كما يطرب لغناء « خليدة المكية » ، وغنت مرة أمام هشام بن عروة فأعجبه غناؤها وطرب له فقال لها : اكتبي في صدرك « قل هو الله أحد » وبين كتفيك « المعوذتين » لا تصيبك العين !

* * *

ويظهر أن « خليدة » قد أعتقها مولاها ، وعاشت بعد عتقها وحيدة في دار خاصة بها ، كما يظهر أنها كانت على شيء يلفت الأنظار إليها ويوقظ الرغبات فيها!

وإلا فما بال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان يبعث من يتقدم إليها ليخطبها له ؟

حدثوا أن الشريف أرسل « أبا عون » مولاه إلى خليدة ليخطبها له ، قالوا : فذهب إليها أبو عون فاستأذن . فأذنت له وعليها ثياب رقيقة لا تسترها ، فوثبت مرتاعة وصاحت : إنما ظننتك بعض سفهائنا ! ولكني ألبس لك لباس مثلك ، ففعلت .

قال « أبو عون » : أرسلني إليك مولاى ، وهو من تعلمين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن عثمان بن عفان ومن على ، وهو ابن عم أمير المؤمنين أقول أرسلني إليك يخطبك !

قالت خليدة — وفيما قالت توضيح لنسبها — : قد نسبت فأبلغت ، فاسمع نسبي أنا !! إن أبي بيع على غير عقد الإسلام ولا عهده ، فعاش عبداً ومات في رجله قيد ، وفي عنقه سلسلة على الإباق والسرقة ، وولدتني أمي على غير رِشدة ، وماتت وهي آبقة ، فأنا من تعلم !

---

(١) من كبار المغنين .

ثم قالت : قل لصاحبك : إن أردت نكاحاً مباحاً ، أو زناً صُراحاً فهلمَّ إلينا فنحن له . . . ! قال أبو عون : هو لا يدخل فى الحرام !

قالت خليدة : ولا ينبغى أن يستحى من الحلال !

فأما نكاح السر فلا ، فلا والله لا فعلته ولا كنت عاراً على القيان !

قال أبو عون : فرجعت إلى ابن عثمان فأخبرته فقال :

ويحك ! أتزوجها مغنية وعندى بنت طلحة بن عبيد الله — يعنى عائشة بنت طلحة — لا !

ولكن ارجع إليها وقل لها : تختلف إلىّ أردد بصرى فيها لعلى أسلو .

قال أبو عون : فرجعت إليها فأبلغتها الرسالة فضحكت وقالت : أما هذا فنعم ، لسنا نمنعه !

* * *

من هذه القصة نعرف أن ابن عثمان كان به رغبة فيها وميل لها ، وقد نسرف فى هذه الرغبة فنسميها إعجاباً شديداً وميلاً عنيفاً ! وإلا فما معنى أن تتردد عليه لينظرها لعله يسلو ؟ ومن القصة أيضاً نعلم أن روح الإباحية أصيل فى نفس خليدة ، فهى لا تأنف من الزنا الصُّراح ، وتأنف من نكاح السر ! وهى تستقبل فى منزلها بعض السفهاء ، فلا مانع لديها( أن تكون شبه عارية إذا طرق بابها واحد منهم !

كما نعلم بعد هذا وذاك أنها كانت تحترف الغناء وتتكسب منه فى حياة طليقة حرة ، يكتنفها ما يكتنف حياة الجوارى وقتئذ من الإباحية والعبث والمجون !

ولكنَّ ناحيةً عقلية ونفسية طيبة تُطلّ علينا من هذه القصة أيضاً ، فهى تشرح نسبها على ما فيه من مرارة وذل ، دون أن يركبها الزهو لدى خطبة كريمة كتلك التى طرقتها ! ثم هى التى تحس الفوارق بينها وبين الأشراف فتعترف بها وتقرها راضية مطمئنة !

## دُقاق !

وهذه جارية أخرى لها صنعة غنائية مشهورة ، ولكن لم يرد فى أخبارها القليلة نص لِلَّحْن واحد من ألحانها .

وهى جارية يحيى بن الربيع ، ولقد أدَّبها وهذَّبها وخرجها فى الغناء على أكابر المغنين . ولكنها كانت تغنى له لا للناس ، وظلت هذه الجارية عند مولاها حتّى مات ، فورثته وفازت من وراثه بمال كثير ، ولقد كان مولاها ضنينًا بها ، شديد الحرص عليها ، حتّى إنه لم يعرف عنه أنه عرضها للبيع مرة ، أو قبلَ إهداءَها لبعض مَنْ طلبوها منه !

ويقولون : إن « يحيى » أولدها ابنَه « أحمد » المعروف بابن دقاق ! ! وهذا أول ولد من دم البرامكة يُنسب إلى أمه !

ذلك أن « دقاقَ » كانت ذات سمعة خاصة ، وكان فى طبيعتها وأساليب حياتها ما يوجب الأحاديث عنها ويطلق الألسنة فيها !

ويقول أبو الفرج : إن ابنها « أحمد » قد عمر طويلاً ، وكان له علمٌ بصناعة الغناء كأمه ، كما كان راوية لأخبار المغنين ، وكان له صوت غير مستطاب ولكنه صحيح النغم تام الأداء !

ويظهر أن مولاها قد أعتقها قبل وفاته ، لذلك تزوجت بعده بثلاثة من القواد العظام ، فماتوا جميعهم واحدًا بعد واحد وهى لا تزال شابة قوية !

وكانت طمع هؤلاء القواد فيها لما كانت عليه من الجمال الرائع والفتنة الساحرة ، كما عرفت بالظرف والمجون والخلاعة !

وقد كانت « دقاق » داعرة حقًّا . . . فليس فى قاموسها شيء اسمه حياء ! ولقد كانت تعيش بطبيعة امرأة ساخرة ماجنة ، تتصرف فى غير حدود ، وتتخالع فى غير رقابة أو تحرز أو حياء !

ويظهر أن عاطفة الجنس فيها كانت كل شيء ! فهي التي كانت تغلبها على أمرها ، وتسيرها فى طريق التهتك رغم أنفها !

روى ابن حمدون أن « دقاق » كتبت رسالة عجيبة إلى أبيه تصف فيها جزءاً من جسمها . . . ! فما قرأ أبوه الرسالة حتى تحير وتعجب وعجز عن الجواب ! فقال صديق له : أتقهرك امرأة ! ؟ ابعثْ إلى أحد المخنثين ودعْه يكتب إليها فى وصف جزء من جسمك ! فكتب المخنث إليها بهذا فأفحمها ! وكان الرد عليها أعجب من رسالتها وأغرب [١] . . . ! .

* * *

وقالوا : إن يحيى بن الربيع اضطر إلى الخروج لبعض النواحى فترك « دقاق » وتغيب عنها بضعة أيام صنعت فيها الأوابد . . . ! فقد كان لها صلات بأقوام آخرين تراسلهم وتبثهم غرامها فى غفلة من مولاها ! وما إن خلا الجو لها فى دارها حتى صار كل إليها على حدة !

وطارت هذه السمعة السيئة حولها ، وتناقلتها الألسن وتحدث بها الشعراء وهجَوْها ! ومن هجاها وعرَّض بمولاها بعد موته أبو موسى الأعمى ، قال :

قل ليحيى ، نعمْ صبرت على المو ت ولم تخش سهمَ ريب المنون

كيف قل لى أطقْتَ ويحك يا يحـ ـيى على الضعف منك حمل القرون ؟!

ولما مات القواد الثلاثة الذين تزوجوا منها ، طوقتْ شهرتها الآفاق! وصار حديثها مضْغة فى الأفواه . . . ! وأصبحت فى نظر الناس مصدر رعب وفزع إذ كانت رمزاً للشؤم كما كان « طويس [٢] » .

وقد هجاها عيسى بن زينب فقال :

قلت لما رأيت دار « دقاق » حسنها قد أضرَّ بالعشـاق

---

(١) الرد فى الأغانى جـ ١١ ص ٩٩ .

حذّروا الرابع الشقى « دقاقًا » لا يكوننّ نجمــه فى محاق
لم تضاجع بعلاً فهبّ سـليمًا بل جريحًا ، وجُرحه غيرُ راق

وحكى كثير من الرواة أنها اعتمدت على غلامين لها يُرَوّحان عليها . . . ولقد ورد فى الحديث عن الغلامين معها ما أثبت سأمهما وتحفزّهما للفرار منها ! لولا أنهما مملوكان لها . . . !

وفى ذلك يقول عيسى بن زينب أيضًا :

أحسنُ مَن غنى لنا أوشـدا دقاق فى خفض من العيش
لها غلامـان يُعينانها[1] بخدمة الترويح فى الخيش

وحدث هبة الله بن إبراهيم بن المهدى أن « دقاق » كانت تواصل جماعة كانوا يميلون أليها وهى عند مولاها ، وكانت تظهر لكل منهم أنها تهواه . . . كما كانت أحسن أهل عصرها وجهًا وأشأمهم على من رابطها وتزوجها . . . !

وفى ذلك يقول أبى :

عدمتُك يا صـديقة كل خلق أكلَّ الناس ويحك تعشقينا ؟
فكيف إذا خلطت الغث منهم بلحم سمينهم لا تَبْشمينا[2]

وقد غنى فى هذا الشعر إبراهيم بن المهدى وريّق وشارية جاريتاه ، وانتهى الأمر بدقاق وقد تكلم فيها المجتمع واستمدّ من طبيعتها المكشوفة الجائعة مادة لأحاديثه وسمره وفكاهاته ، إلى أن انقطعت إلى « حمدونة » بنت الرشيد .

ولست أدرى كيف تستطيب حمدونة معاشرة « دقاق » وهى تعلم من هى ؟ اللهم إلا إذا كانت « حمدونة » قد وجدت فيها متنفسًا للعبث البرىء الذى لا يتخطى الحديث والسمر .

---

(١) اللفظ الصريح فى الأغانى جـ ١١ ص ٩٩ . (٢) لا تشبعينا .

وأزهد الناس وأعفهم ، قد ينساق أحياناً إلى مُلحة طريفة ، أو نكتة بارعة ، مهما حوت من الابتذال . . . وهذه مغنية ، فوق كونها صاحبة حياة مزدحمة بالألوان والطعوم والأحداث ، فمثلها أنسب وأليق من يتسلى به الإنسان . ويتخذ منه مادة للفكاهة والعبث والتبسط .

وأبرز خصائص هذه الجارية هى أنها امرأة . . . امرأة جائعة ظامئة لا تشبع ولا تروى . . . وأن أنوثتها هى المسيطرة عليها فى كل ما تأتى به من حديث أو عمل . . . وكأنما كل جارحة فيها لها عينان تنظران إلى الرجل وتدعوانه إليها . . . !

* * *

حدثوا أنها كانت لها مروحة كبيرة تمسك بها فى يديها . . . وقد كتبت على وجهيها كلاماً فى هذا المعنى . . . ! وما كانت تخشى أن تسير بها فى الطريق وتلوّح بها للناس ! !

وقد كانت سمعتها هذه ، وشؤمها الذى عرف عنها ، نكبة أصابت ولدها « أحمد » بعد وفاتها ! فما كان يستطيع أن يدفع عن نفسه أذى ألسنة الناس ، أو يقيم فى وجوههم إن عرضوا بأمه !

حدثوا عن أحمد بن على بن جعفر أنه قال : حضرت مجلساً مرة وفيه ابن دقاق ، والنصرانى المعروف بأبى الجاموس اليعقوبى ، فسخر ابن دقاق بأبى الجاموس ! فلما أكثر عليه ، قال أبو الجاموس : اسمعوا منى ! وحلف بالحنيفية أنه لا يكذب ! قال : مضيت وأنا غلام مع أستاذ لى كان يعلمنى إلى باب « حمدونة بنت الرشيد » ومعنا بَزٌّ نعرضه للبيع ، فخرجت إلينا دقاق أمُّ هذا — وأشار إلى ابنها — فتقاولنا فى ثمن البز ، وفى يدها مروحة كبيرة وقد نقش على وجهيها « كَيْتَ وكَيْتَ وذكر الكلام بنَصّه »[1] وهو كلامٌ — كما قلنا — فيه دعوة صريحة إلى الرجل فى تبذل مكشوف ! !

---

(١) أغانى جـ ١١ .

قالوا : فما سمع ابنها هذه الحكاية عن أمه حتى سكت ولم يرفع طرفه ! وإنه لسكوته علِمْنا منه أنه لو خرس لكان الخرس أهون لعرضه مما جرى . . . !

* * *

وبعد ، فهذه « دقاق » المغنية ، وما أشَم فى هذا الكلام عنها رائحة مغنية ! فليس فيه غناء أو منادرة أدبية أو مجلس شراب أو طرفة من الطرائف وإنما أشم فيه رائحة امرأة . . . امرأة لا ككل النساء ! وإنما هى امرأة خاصة بينهن . . . وشاذة فيهن !

وما أشبهها بعبيدة الطنبورية فى هذه الناحية ! ! غير أنه من الإنصاف للطنبورية أن نتلمس لها بعض العذر ، فلقد كانت تتكسب بغنائها فى الطرق والأندية ، ولم تكن على شىء من الثراء أو الجاه ، فلون حياتها كان يعرضها لما عرف عنها من تبذل !

أما « دقاق » فما عذرها ؟ لقد كانت لكبير من البرامكة ... ! وورثت عنه مالاً كثيراً . . . ثم كانت زوجة لكبار القواد الوجهاء الأثرياء . . . ثم نديمة لأخت الرشيد ! فأى عذر لها ؟ إن عذرها الوحيد أنها امرأة فحسب !

# ساجى

وهذه أيضاً جارية ذكرها أبو الفرج فى أخبار مولاها ، ولم يسق إلينا من أخبارها إلا الإشارة الموجزة إليها ، كذلك فعل النويرى فى كتابه نهاية الأرب فما زاد على ما أتى به الأغانى شيئاً .

وهى جارية من جوارى « عبيد الله بن عبد الله بن طاهر » وقد تحدثنا عن أبيه بما يكفى فى الكلام عن « محبوبة » . أما عبيد الله فقد كان أديباً متصرفاً فى فنون القول الشعر ، كما كان راوية ثقة للشعر وأخبار العلماء الأوائل من الفلاسفة والموسيقيين ، وله صنعة غنائية جيدة ، ولكنه كان يترفع عنها ويأبى نسبتها إليه ، وكذلك كان يفعل أبوه .

و « ساجى » هذه جاريته ، وجاريته التى أعزها وأكرمها واعتنى بتثقيفها وتخريجها عليه فى الغناء . . .

ولقد كان مولاها كأبيه فى التحرز والوقار ، فلم يفتح بابه للمغنين ، ولم يتخذ مجالسه للعبث والمجون المكشوف ! وإنما كان يعيش مع جاريته عيشة الفنان الذى يعشق الفن لذاته لا للتجارة والشهرة .

ونشأت « ساجى » فى هذا الوسط الوقور المتحفظ ، فمولاها يقرض الشعر ويصنع له النغم ويلقيه عليها . . . وهى تحفظه وتحذق أنغامه وتغنيه . ولقد كان لهذا الجو المحدود أثر فى تربيتها وطباعها ، فلم يعرف عنها تبذل أو مجون كما عرف عن غيرها . . . وهى فى هذا شبيهة بـ « محبوبة » فى نشأتها وأثر هذه النشأة فى أخلاقها ! .

وإنا لنشم من أخبارها على قلتها أن مولاها كان معجباً بها أو كان يهواها . فكثيراً ما طلب منه الخليفة « المعتضد » أن يسمع من « ساجى » بعض أغانيها فكان يتظاهر بالقبول ثم لا يفى !

وكثيراً ما رغب « المعتضد » فى تلحين بعض الأشعار التى تعجبه ، فيرسل بها إلى عبيد الله ، وعنده من كبار المغنين القاسم بن زرزور وأحمد بن المكى فيجىء نغمه جيداً عالياً عن أنغامهم .. . ولكنه سرعان ما يتنصل منه وينسبه إلى جاريته « ساجى » .

وقد عرف بأنه كان يصنع فى بعض الأشعار « أنغاماً عشرة » وينسبها إلى جاريته كما قلنا ، ومن الشعر الذى جمع الأنغام العشرة بيتان لابن «هَرْمة » .

وإنكَ إذا أطمعتنى منك بالرضا وأيأستنى من بعد ذلك بالغضب
كمُمْكِنة من ضرعها كفَّ حالب ودافقة من بعد ذلك ما حلب

وقد غُنى هذا البيتان أمام المعتضد فطرب وسأل : لمن الغناء ؟ قالوا : لعبيد الله..! فقال عبيد الله : لا ، وإنما هو لجاريتى « ساجى » .

ورغب المعتضد فى « ساجى » وزادت رغبته فى سماعها ورؤيتها ، وأيقن هذه المرة أنه لا بد واصل إلى رغبته ، لأن مولاها قد دارت به الدوائر فاختلت حاله ، وأعسر قليلاً بعد الإيسار .

روى جحظة قال :

لما اختلت حال عبيد الله ، كان « المعتضد » يتفقده أحياناً ببعض الصلات ، واتفق أن كان المعتضد مصطبحاً فَغُنى أمامه بغناء من صنعة « ساجى » فطرب ، وكتب إلى مولاها يقسم عليه أن يرسلها إليه للزيارة ففعل .

وتحدثت إحدى المغنيات ممن حضرن هذا المجلس قالت :

دخلت إلينا « ساجى » وما منا إلا يرفل فى الحلى والحلل ، وهى فى أثواب ليست كثيابنا ، فاحتقرناها ! فلما غنت احتقرنا أنفسنا !

ولم تزل تلك حالنا حتى صارت فى أعيننا كالجبل ، وصرنا كلا شىء !

ولما انصرفت أمر لها المعتضد بجوائز سنية ، ودخلت على مولاها بالصلات ، فسألها عما أدهشها أو أعجبها فى قصر الخليفة ، قالت : ما استحسنت هناك شيئًا أو استغربته من غناء أو غيره إلا عودًا من عُود محفورًا . . . فهذا ما استحسنته !

قال جحظة : فما ظنك بمن يدخل دار الخلافة فلا يمد عينيه لشيء يستحسنه فيها إلا إلى عود ؟ »

ومن ذلك الحين استطاع المعتضد أن يظفر « بساجى » وبغنائها وبزيارتها ، فسيدها رقيق الحال ، وقيودها قد فكت عنها ، فظهرت فى أول مجلس للخليفة ، وسمعها المغنون والمغنيات وأعجبوا بها !

هذا فضلاً عن أنها الآن أصبحت موردًا للرزق لمولاها وقد مرض ! والمرض نكبة أخرى تضاف إلى رقة حاله !

وبدأ « المعتضد » يرسل الأشعار إلى ساجى فتصنع لها الألحان ، ثم تحضر بها إليه فتغنيه ، وقد قالوا : إن صنعتها تسمى فى ذلك الحين « غناء الدار » ولعلهم يقصدون بهذا أن غناءها كان منزليًّا بحتًا . . . أى أنه لا يصلح للمجالس العامة التى تتطلب نغمًا خاصًّا وأسلوبًا مميزًا فى التوقيع . . . وهذا طبيعى بالنسبة إلى « ساجى » . فهى كما قلت جارية محجبة خاصة بمنزل مولاها . . . كما كانت « محبوبة » كذلك خاصة بمنزل أبيه !

ولا شك أن من أسباب عدم وجود غناء لها منصوص عليه هو هذا التحجب الذى لقيته فى نشأتها الأولى ، وانقطاعها عن مجالس الخلفاء ، ومخالطة الشعراء والمغنين والرواة . . . وهذا وإن كان قد حجب أصواتها وأضاعها التاريخ ، إلا أنه حفظ لها عفافها ومنحها الوقار والتحفظ والحياء !

ونستطيع أن ننسب إليها الأصوات التى غنى فيها مولاها ، لأنه كان يصنع الشعر ويضع له الألحان فتحذقه هى وتغنيه ، فكل ما ورد من غناء له فهو لها !

ولذلك يكون شعر ابن هَرمة :

فإنك إذ أطمعتنى منك بالرضا . . . إلخ البيتين من غناء ساجى ، وكذلك هذا الصوت وهو من شعر وصنعة مولاها :

فأنْفق إذا أيسرت غــير مقتّر | وأنفق على ما خيّلت حين تُعسر
فلا الجود يفنى المال والمال مقبل | ولا البخل يبقى المال والجَد مدبر

ويظهر أن ساجى لم ترق لها الحياة وقد أعسر سيدها ومرض ، وأصبحت أداة للرزق وإن لم تتبذل ! كما لم يرقها أن تختلف إلى مجالس الخليفة وهى على غير ما تحب من الزىّ والهيئة ، وعنده جواريه فى أفخم لباس وأثمن حلى . . . هالها هذا ، وساءها تغير أحوالها من العز إلى الذل ، ومن الغنى إلى الحاجة ، ومن مرض مولاها وعجزه وقد كان لها راعياً ولنعيمها موئلاً !

وهكذا اغتمت وساءت حالتها فرضت مرضاً لم يمهلها فماتت ومولاها مريض طريح الفراش ! فراح يرثيها بكثير من الأشعار الحزينة . . .

ثم أذل الحزن كبرياءه فجاهر بالغناء فى هذه المراثى !

ومما رثاها به قوله :

يميناً ، يقيناً ، لو بُليت بفقدها ؟ | وبى نَبْضُ عرق للحياة أوالنُّكس
لأوشكت قتل النفس قبل فراقها | ولكنها ماتت وقد ذهبت نفسى

# جيداء
## جارية سيف الدولة

لم يكن ثمت فرق بين خليفة وخليفة ، وبين ملك وآخر فى عشقه الغناء وغرامه باقتناء الجوارى ، ولكن الفرق بين هذا وذاك فى الإسراف أو القصد ، وفى التفانى أو التماسك ، وفى النظر إلى الغناء على أنه نعيم يجب اقتناصه ، أو على أنه تنفيس للكروب وتفريج للهموم !

وهذا هو سيف الدولة الملك القائد الفاتح ، الذى وقف حياته على خوض الحروب وامتشاق الحسام ، يقتنى الجوارى ويستمع إلى غنائهن ، رغم ما كان فيه من صراع هائل بينه وبين الروم ، ورغم ما كانت عليه حالة بلاده الاقتصادية من عسر إذا قيست إلى الدولة العباسية قبل انحلالها وانقسامها إلى دويلات !

وقد عُرفت من جواريه الكثيرات « جيداء» . وقد كانت جارية أديبة شاعرة ، كما كانت مثلاً رائعاً للجمال وحسن الصوت فى الغناء ، وفيها يقولون :

« كانت شبيهة بالغزال فى نظر فاتن ، إلى سرّ فيها كامن ، تغنى فتحرك كل ساكن ، وكأن هاروت وماروت فى حسنها ، لو اعترضت سَرِيَّة عيس لأوقفتها عن السرح ، أو سمعتها أذن بلقيس لألهتها عن الصرح[١] » .

ولم يعرف عن جيداء شىء من نشأتها غير أنها قينة من قيان بغداد ، وأنها نشأت كما نشأ غيرها بين النخاسين والملاك ، وأنها تعلمت الغناء على بعض المغنين أمثال إسحاق وبذل !

وكان « المهلبى » وزير سيف الدولة من المغرمين بالغناء واقتناء الجوارى ،

(١) مسالك الأبصار « نسخة فتوغرافية » ج ٦ ص ٢٧١ .

ويظهر أن جيداء قد وقعت له فى بعض من اشتراهن ، فنالت لديه إعزازًا وإكرامًا ، وفاقت كل من كن عنده حتى عرف بها ، ولم يمنعه إعزازه إياها أن كان يرسلها إلى سيف الدولة فتنخرط بين جواريه ، ويسمعها فى الحين بعد الحين وهو يزداد بها إعجابًا !

وعلم « أبو فراس الحمدانى » الشاعر المعروف وابن عم سيف الدولة بأمرها ، فاشتاق إلى رؤيتها وسماع غنائها ، ولكن ، أنى له ذلك ؟ وسيف الدولة منهمك فى إعداد الجيوش وتجهيزها للحروب ، وأنه قليلاً ما يجلس للغناء ، فلم ير وسيلة إلا أن يكتب إليه بهذه الأبيات :

محلك الجوزاء بل أرفع وصدرك الدهناء بل أوسع
وقلبك الرحب الذى لم يزل للجد والهزل به موضع
رَفِّه بقرع العود سمعًا غدا قرع العوالى جُلّ[1] ما يسمع

وقرأ سيف الدولة الأبيات فعلم ما بنفس ابن عمه ، فأرسل بها إلى وزيره المهلبى ، فأمر الجوارى بتلحينها وغنائها !

وهيأ سيف الدولة مجلسًا لأبى فراس ، فسمع جيداء وهى تغنى أبياته فطرب وشرب ، كما طرب سيف الدولة ، وظهر إعجابه بها رغم إخفائه إياه ، وما انتهى المجلس حتى طلب من وزيره أن يبيعه « جيداء » فباعها إياه ! ومنذ ذلك الحين عرفت جيداء بجارية سيف الدولة !

* * *

وكان سيف الدولة شاعرًا رقيقًا ، كما كان نقادة بارعًا للشعر ، ولقد استفزت جيداء فى نفسه خواطره وحركت أشجانه ، فراح يقرض الشعر بكثرة ، بعد أن كان فيه مقلا ، وراح يجلس فى مجالس الغناء ويستمع إليها .

حدثوا أن سيف الدولة رغم انشغاله بأمور الملك كان كثيرا ما يجلس

(١) فى الأصل : أجل .

لسماع الغناء مع بعض خواصه ، وبجانبه ستار تجلس جيداء خلفه ليراها كلما أراد . . . كما حدثوا أنه صنع فيها أشعاراً كثيرة ، ومن أشعاره فيها وقد تغنت بها :

يا طول شوقى الى الرحيل غداً    ويا بلائى منه إذ وفدا
أضنانى الحب إذ تعرّض بى    ما قتل الحب هكذا أبدا

ومن غنائها لسيف الدولة شعر لعلى بن محمد العلوى :

لك أن تمنع الجفون الهجوعا    ولنا أن نسُحّ فيها الدموعا
يا بديع الجمال أبدعت فى الصد    كما فى هواك صرتُ بديعاً

* * *

هذا ، وقد عرفت « جيداء » بمناقشتها العلماء والشعراء ، وكثيراً ما كانت تطارح سيدها الأشعار ، وتنتقد قصائد المتنبى فى مدحه ، غير أن سيدها كان يخفى ذلك النقد إجلالاً لمكانة المتنبى لديه !

جلست جيداء يوماً وراء الستار ، وقد وقف المتنبى ينشد سيف الدولة قصيدته التى مطلعها :

لكل امرىء من دهره ما تعودا    وعادات سيف الدولة الطعنُ فى العدا

فكانت تهتز طرباً من وراء سترها !

فلما وصل إلى قوله :

تركت السرى خلفى لمن قل ماله    وأنعلت أفراسى بنعماك عسجدا
وقيدت نفسى فى هواك محبةً    ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته    وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

حتى صنعت في هذه الأبيات لحناً رائعاً ، وما فرغ المتنبى من إنشاء قصيدته ، حتى أرسلت بالغناء إلى سيف الدولة ، فصرف من فى مجلسه إلا المتنبى وبعض خاصته ، ثم نظر إليها وقال : هاتى غناءك يا جيداء! فغنت الأبيات .

قال المتنبى : فوالله ما ظننت إلا أن المجلس يرقص بنا ، وظل سيف الدولة يستعيد الغناء وهى تردده حتى مضت سحابة نهارنا ! وما انصرفت من المجلس حتى أمر لى سيف الدولة بجائزة طيبة ، فقلت : هى والله يا أمير المؤمنين أحق بها منى ! بالله إلا ما جعلتها لها ! قال سيف الدولة : هى لك ، ولها مثلها !

ومن غناء جيداء شعر لابن المعتز :

وليـــل قد سهرتُ ونـــام فيه ندامى صُرّعوا حولى رُقودا
أنادم فيـــه قهقهـــة القنانى ومزمـــاراً يعللنى وَعودا !
فكاد الليـــل يُرجُمنى بنجم وكدت أراه شيطانـاً مـــريدا

* * *

وكانت جيداء معجبة بشعر أبى فراس ، حتى إنها كانت تحفظه وتغنى منه الكثير ، ولما سجن أسيراً عند الروم ، وجادت خواطره بشعره العاطفى الحزين المسمى بـ « الروميات » وقف غناؤها عليه ، فكانت تغنيه لسيف الدولة فتهتاج خواطره ويستعيده مراراً ، ومن غنائها فيه وهو استعطاف من أبى فراس لسيف الدولة :

فليتك تحلو والحيـــاة مريرة وليتـــك ترضى والأنام غِضاب
وليت الذى بينى وبينـــك عامر وبينى وبين العـــالمين خراب
إذا صحّ منك الود فالكل هينٌ وكل الذى فوق التراب تراب

ولم يعرف عن جيداء وسيف الدولة ما عرف عن الخلفاء وجواريهم من الخلاعة والتبذل ، والإسراف فى اللهو والتفنن فى انتهاب اللذائذ ، ذلك

لأن سيف الدولة بطبيعته رجل علم وأدب وحزم وحروب ، وكان ذا شخصية وقورة قانعة ، ترضى من اللذائذ والمتع بما يفرج عن النفس ويمسح الهموم ، ومثل سيف الدولة الذى كان قصره منتدى الأدباء والشعراء والفلاسفة ، وفيهم المتنبى والفارابى ، أقول مثل هذا الملك العالم لا يكون فى لهوه – إذا حصل – إلا بقدر ما يحتاج الزاهد إلى مُلحه لطيفة ، أو نادرة ظريفة ، فيها تنفس عن الهم والغناء ! على أن انحلال الدولة العباسية وقتئذ إلى ويلات كان نذيراً بفنائها وضياع شبابها الزاخر بالثراء والنعم والجاه !

* * *

عاشت جيداء فى ظل هذا الملك وهو مشغول بعظائم الأمور ، فلم تجد لديه جواً تعيش فيه الخلاعة أو المجون ، وهى النازحة من بغداد عاصمة الخلاعة والمجون ! فانطبعت بطابع جديد ، هو الوقار والحشمة فى غنائها ومجالسها ، وفى حديثها وحركاتها . . . لذلك اتخذها مولاها صديقة أدبية يطارحها الأشعار كما قلت ، ويتندر وإياها بالأحاديث الأدبية والفكاهات العذبة المستملحة ، فهى له بمثابة مجلس خاص فى منزله ، كما كان الشعراء والأدباء يهيئون له مجلساً عاماً فى قصره .

إلا أن الواقع أنها احتلت من نفسه مكاناً ممتازاً ، فلقد أكثر من إنشاده الشعر كما قلت ، ومن السماع للغناء . . . وإلا فما باله يجلسها خلف ستار يراها منه إذا نظر ، كما فعل الخليفة المتوكل مع جاريته محبوبة ؟

ومن أغانيها التى غنتها بمجالس سيف الدولة :

لا أستطيع سلواً عن مودتها ... أو يصنع الحب بى فوق الذى صنعا
أدعو إلى هجرها قلبى فيسعدنى ... حتى إذا قلت هذا صادق فزعا

ومن غنائها :

منا الوصال ومنكم الهجر ... حتى يفرق بيننا الدهر
والله ما أسلوكم أبداً ... ما لاح نجم أو بدا فجر

وتحدث إليها سيف الدولة يومًا حديثًا عن الهوى والغزل فأجابته ، وقد تغنّت بهذه الأبيات :

هيجت بالقول الذى قد قلته   داء بقلبى مـــا يزال كمينا
قد أينعت ثمراته فى طينهـــا   وسُقين من ماء الهوى فروينا
كذب الذين تقوّلوا يا سيدى   إن القلوب إذا هَوين هَوينا

وهى أبيات لـــ « عِنَان » جارية الناطفى ، كتبتها إجازةً لبيتين لجرير أرسل بهما إليها «الرشيد» وهما :

إن الذين غـــدوا بلبك غادروا   وشْـــلاً بعينك لا يزال معينا
غَيَّضْنَ من عبراتهن وقلن لى   ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

وتلك هى « عنان » التى ذهبت بعقل الرشيد ، فأراد شراءها لولا حِيَلُ أبى نواس الشيطانية التى قبّحتها فى عينه !

ولو أن جيداء تقدم بها الزمن فعاشت فى القصور الذهبية للعباسيين لكان لها شأن آخر . . . ولكن نصيبها كان سيف الدولة رجل الكفاح والحروب . . . لا الغناء والشراب والمجون !

* * *

# جوار عاشقات

## نُعمى ، نَنُوسة ، تحفة الزاهد

### ١ ـ نُعْمَى

هؤلاء الثلاث ، جوار مغنيات عاشقات ، وما أكثر عشق الجوارى فى الحياة العربية ! وإنما اخترنا هؤلاء الثلاث من بينهن لما امتزن به من شخصيات قوية ، ولو أتيح لكل منهن أن تتصل بقصور الخلفاء لكان لها شأن أكبر مما كان ، ولكُنّ جميعاً من كبيرات المغنيات اللواتى تحدثت عنهن فى هذا الكتاب .

* * *

فأما أولاهن « فنُعمى » جارية ظريف بن نعيم . وظريف هذا فتى عربى وسيم الطلعة واسع الثروة ، ورث عن أبيه مالاً كثيراً وجوارى مختلفات الأنواع ، فصار ينفق عن سعة وإسراف فى الشراب والغناء والتمتع بلذائذ الحياة حتى أوشكت ثروته على الضياع ، فباع جميع جواريه واحدة بعد واحدة إلا « نعمى » هذه التى ملكت عليه شعوره ، فأبقاها مع بقية من ثروته وصُبابة من جاهه الموروث! وأصبح الفتى مولَهاً بجاريته ، كما هى مولَهة به ، يعيش وإياها مما بقى له من ماله ، وهو بذلك راض شكور ، وهى بذلك هادئة سعيدة ، ولكنه ما عاد يفتح أبوابه للناس كما كان ، وما عاد يقيم مجالس الغناء يحضرها وجهاء العرب والمغنون ، بل قنع بالعيش بجانب جاريته ، لا تقع عينه إلا عليها ، ولا ترى فى الحياة مخلوقاً سواه !

ولقد عرفت نُعمى بالفتنة ! ! لا بالجمال وحده ، كما عرفت بالأدب والحياء وحسن المنطق وعذوبة الحديث ، حتى أصبحت حديث الناس فى غدواتهم وروحاتهم ، وأصبح الاسم الذى تلوكه الألسن هو « نُعمى جارية ظريف » .

وتحدثنا الروايات أن واحداً من سراة العرب صديقاً للحجاج الثقفى ، رغب فى شراء « نعمى » من الفتى ، مستغلا سوء حاله ورقة معاشه ، فأرسل إليه من يساومه ، ولكنه أبى وأبى ! وإن قدَّم إليه كل ما فى الوجود من أموال ! واستعان ذلك السرىّ بنفوذ الحجاج فما أفاده ذلك النفوذ شيئاً ، غير أن سوء الطالع كان من نصيب الفتى ، فقد ذهب مَنْ وَشَى به عند الحجاج ، والحجاج فى ذلك الوقت يأخذ بالظِنة ، ويبطش لمجرد التهمة ولو لم يقم عليها دليل !

وأرسل الحجاج جنوده فقبضوا على الفتى ، وصادروا ما تَبَقَّى من ماله ، وحملوا جاريته وأدخلوها عليه ، فما إن رآها الحجاج حتى انبهر بجمالها . . . وتراخت عزيمته وتضاءل جبروته . . . ثم أطرق متفكراً ليقول بعد إطراقته لجنوده : اذهبوا بها إلى دارى لتعيش بين جوارىّ !

هذا ما تشير إليه الروايات ، ونحن نقف هنا قليلاً فى منتصف الطريق .

فالحجاج رجل عمل وحزم وحكم وإدارة ، وما عرف عنه ميله إلى الغناء أو رغبته فى اقتناء الجوارى ، وهو فوق هذا وذاك ذو طبيعة قاسية جافة ، ووراءه ما وراءه من تَبِعات جسام تتعلق بكيان الدولة الأموية وحياتها . . . !

فما أظن أن رجلاً كالحجاج هذا شأنه ، يلتفت هذه الالتفاتة الصغيرة البعيدة كل البعد عن طبيعته التى عُرِف بها .

هذا جانب من المنطق معقول ، ولكنه لا يتعارض مع افتراضات أخرى جائزة الوقوع ، وهو أن الحجاج عربى أصيل ، وأن له طبيعة الإنسان كغيره من الناس ، وأن ما وراءه من مسئوليات لا ينفى أن لنفسه ميولاً ورغبات

تظهر وتتّضح فى مثل ما صنع مع هذا الفتى وجاريته ، ولكن ، كيف يحتفظ بها الحجاج لنفسه ووراءه مرجع أعلى هو الخليفة ؟ وإن الرجل كان حصيفاً ، فإنه خشِي ما يؤثر فى سمعته ، أو يخدش مكانته ، فأرسل بالجارية إلى الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولسنا ندرى أأرسلها إليه من باب المجاملات على أن ترد إليه ثانياً ؟ أم أن الحجاج كان فى الحقيقة أداةً فقط فى حمل الجارية إلى الخليفة ؟ وعلى فرض هذا أو ذاك فإن الجارية الآن بين يدى عبد الملك بن مروان .

وأما الفتى فهو فى سجنه ، وقد ذهب عقله وفقد تماسكه ، ويظهر أن ضمير الحجاج قد تيقّظ فأطلقه من سجنه ، وردّ إليه ماله . . . ولكن..! أين نعمى ؟ إن الفتى لا تتفتح عينه إلاّ على خيالها ، ولا ينظر الدنيا إلا على إشراق جبينها ، فأين هى ؟

وأخبره قوم بخبرها فهام على وجهه كالمخبول حتى وصل الشام ، وهناك وقف بباب الخليفة ، ثم استطاع أن يدخل عليه ويبثه شكايته ، ونظر إليه عبد الملك وقد لمست الرحمةُ قلبه ، وتحرك وجدانه بالعطف عليه وودّ لو ترجع إليه « نعمى » ! وأنى له ذلك وهو يحس لها فى قلبه مكانة وإعزازاً ؟ ولكن عاطفة الشفقة غلبته فقال : يا فتى ، جئت متأخراً ! وفطن الفتى إلى ما يقصده الخليفة فقال : يا أمير المؤمنين : أريدها لحظة من الزمن تغنى فيها ثلاثة أصوات ثم افعل بى ما تشاء !

ووجد الخليفة أن الطلب متواضع ، فأمر بالجارية فأحضرت وعودها فى يدها، فما انرأت « ظريفاً » ذابلاً مخبولاً حتى بكت وانتحبت وانكفأت على وجهها ، وأذن الخليفة للفتى فجلس ، وللجارية أن تجيبه إلى ما يريد ، ونظر إليها الفتى وقال : غنّنى يا نعمى قول قيس بن ذريح [1] :

---

(١) صاحب لبنى .

لقدكنت حسبَ النفس لو دام وصلنا ولكنَّما الدنيـــا متـــاع غرور
سأبكي على نفسي بعـــين غزيرة بكاء حزين فى الوثاق أسير
وكنا جميعاً قبل أن يظهر النـــوى بأنعم حالىْ غبطة وسرور
فما برح الواشون حتّى بدت لنـــا بطونُ الهوى مقـــلوبة بظهور

فغنت الجارية الأبيات بين البكاء والنحيب ، والخليفة مطرق حزين ، فما إن فرغت حتّى قال لها الفتى : غنى قول جميل[١] :

فيا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلة كليلتنا حتّى نرى ساطع الفجر ؟
تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرّضاب من الثغر
فليت إلهى قد قضى ذاك مرة ويعلم ربى عند ذلك ما شكرى ؟
ولو سألت منى حياتى بذلتُهـــا وجُدت بها إن كان ذلك من أمرى

وما غنت الجارية الأبيات حتّى أغمى على الفتى ، فلما أفاق قال لها : غنى قول مجنون ليلى :

عرضت على نفسى العـــزاء فقيل لى من الآن فايأسْ لا أعزك من صبر
إذا بان من تهوى وأصبح نائيـــاً فلا شىءَ أجدى من حلولك فى القبر

وما انتهت من الغناء حتّى نهض الفتى فألقى بنفسه من النافذة فمات . . !

قال عبد الملك : رحم الله الفتى ، لقد أخرجت إليه نعمى على ألاَّ أردها ثانياً ، وقال لأحد غلمانه : خذها فأعطها لورثته ، أو فتصدق بها عليه ، فأخذها الغلام وخرج ، وبينما هما سائران ، نظرت « نعمى » إلى حفرة عميقة بها ماء ، فجذبت يدها من الغلام وصاحت :

من مات عشـــقاً فليمت هكذا لا خير فى عشـــق بلا موت

وألقت بنفسها فى الحفرة فغرقت.

---

(١) صاحب بثينة .

## ٢ ـ نَنُوسة

هذه جارية فارسية الأصل ، واسمها كذلك فارسيّ ، وقد حُرّف إلى العربية عن « نَه نُوش » وكلمة نَه فى الفارسية معناها « غير » و « نوش » معناها « حلو » فيكون اسمها معناه « غير حلو » وذلك من باب الأضداد ، كما سميت أم عبد الله بن المعتز « قبيحة » مع أنها كانت من أجمل خلق الله ، وكما يقول للأسود الزنجى « يا أبيض » .

فصار هذا الاسم يحرف وينقل إلى العربية شيئاً فشيئاً حتى أصبح « نَنُوسَة » بزيادة تاء التأنيث لأنه اسم أنثى (٢).

« ونَنُوسَة » جارية « لعُلَيَّة بنت المهدى » ، وقد كانت علية كما قلنا من كبار المغنيات من غير الجوارى ، وكانت صاحبة فنّ ملك عليها مشاعرها ، فإذا شبّت « نَنُوسَة » فى كنف هذه الفنّانة ، فلا عجب أن يوقظها فن سيدتها ويجرفها فى تياره فتتربىّ فيها ملكات الغناء والموسيقى حتى تصير مغنية بارعة ، وقد كانت كذلك .

وقد امتازت « ننوسة » بالحسن والجمال والعذوبة ، كما كانت أديبة شاعرة تقرض الشعر وتفهمه ، ويظهر أنها كانت ذات دالّة على سيدتها ، كما كانت موضعاً أميناً لأسرارها ــ ولعلية أسرار كثيرة ــ لذلك كانت تملك من حرية التصرف ما لا يصح لجارية مثلها ، ولقد كانت تعقد المجالس الأدبية والغنائية كما تشاء ، وتجيب دعوات المعجبين بها بعيداً عن سيدتها كما تهتف رغباتها وميولها الفنية ، ولقد نشأت من ذلك صلات قوية بينها وبين عُشاق فنها وجمالها ، ولقد كان أكثرهم ميلاً إليها وتعلقا بها

---

(١) من كلام المرحوم الأستاذ عبد الوهاب النجار فى حديث بينى وبينه فى ضبط هذا الإسم .

« الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر » كما كانت هى الأخرى مدلّهة به ، تهوى لقاءه ، وتميل إلى محادثته ، ولقد قسمت « نَنُوسَة » وقتها كجارية بين سيدتها وبين ذلك الأمير ، فهى إمّا مع عُلَيَّة تسامرها وتنادمها وتغنى معها وتحفظ ألحانها . . . وإما مع الأمير تنادمه وتناشده الأشعار وتغنيه فى مجالسه !

* * *

حدثوا أن « محمد بن طاهر » جلس يوماً فى مجلس أنسه ومعه صديقه « الحسن بن محمد بن طالوت » فقال له : يا بن طالوت ! لا بد لنا فى يومنا هذا من ثالث نطيب بمعاشرته ونتمتع بصحبته ! قال ابن طالوت : عجيباً أيها الأمير ! ألنا ثالث غير « ننوسة » ؟ قال ابن طاهر : لا ، ليس غيرها ! وكيف يطيب مجلس بدونها ؟

فأرسل من أحضر ننوسه فحضرت ، فما أشرقت ابتسامتها على ابن طاهر حتى تهلل وقام فاستقبلها وأقعدها بجانبه !

وكان ابن طاهر يعجب بـ « مَان الموسوس » وهو شاعر رقيق ، أديب سريع الخاطر ذكى الفؤاد ، محدث بارع ونديم ممتاز ، ولكنه كان قذر الثياب رث الهيئة طويل الشعر مشعثه ، فأرسل إليه ابن طاهر فحضر ، ثم أمر به فأدخل الحمام وأزيل شعره وغيرت ملابسه ، ثم استأذن على ابن طاهر وقال : السلام عليك أيها الأمير ! قال : عليك السلام يا مان ! ألم يأن لك أن تزورنا على شغف منا إليك، ومنازعة قلوبنا نحوك ؟ قال مان : الشوق شديد ، والمزار بعيد، والحجاب عتيد ، والبواب فظ عنيد ، ولو سهل الإذن لسهلت علينا الزيارة كل حين !

قال الأمير : لقد أطلقت الاستئذان ، فلا تمنع زيارتك فى كل وقت جئت بالليل أو بالنهار ، ثم أذن له فجلس .

ثم نظر الأمير إلى « ننوسة » وقال لها : هذا « مان » ! وقد عرف أنني

اخترتك من بين الناس ، فغنيني من الأشعار التي توقظ النفس وتمسح الهموم !
فأمسكت بعودها وراحت تغني :

ولست بناس إذ غـدوا فتحملوا دموعي على الأحباب من شدة الوجد
وقَوْلي وقد زالت بليل حُمُولهم بواكر تُحْدى ، لا يكن آخرالعهد

فطرب الأمير وشرب ! واهتز « مان » وقال : يا ننوسة ! وبقى من هذا الشعر :

أقمت أناجي الفكر والدمع حائر بمقلة موقوف على الجهد والصد
ولم يُعْـدني هـذا الأمير بعزه على ظالم قد لج في الهجر والبعد

فاندفعت وغنت الأبيات وقد أخذت النشوة ابن طاهر ، ومال يداعبها ، ثم توجه إلى « مان » وقال له : أأنت عاشق ؟ فاستحيا وصمت ! ثم قال : أعز الله الأمير ! كيف أعشق ؟ وهل بعد المشيب من صبوة ؟ ولكنه شوق قديم هاجه الغناء ! ثم اقترح على ننوسة أن تغني قول أبي العتاهية في « عتبة » :

حجبوهـا عن الرياح لأني قلت يا ريح بلّغيها السلاما
لو رضوا بالحجاب هان ولكن منعوها يوم الرحيل الكلاما !

فغنتها فطرب الأمير ، ثم دعا بالشراب ثانية فشربوا ، ولكن « مان » تفكر لحظة ثم رفع رأسه وقال : ما على قائل هذا الشعر أن يزيد فيه :

فتنفّسْتُ ثم قلت لطيفي آه لو زرتَ طيفهـا إلماما
خُصَّهـا بالسلام سرًا وإلا منعـوها لِشِقوتي أن تناما

فصاح الأمير « بننوسة » ! بنفسي أنت ! غنيني هذين البيتين ، فغنتهما وقد أخذت النشوة الأمير حتى بدا منه لننوسه ما لا يليق بمثله !

وهاجت خواطر ننوسه ، وأغرقتها النشوة فغنت بيتين لأبى نواس :

يا خليلى ساعة؛ لا تريما وعلى ذى صبابة فأقيما
ما مررنا بدار زينب إلا فضح الدمع سرنا المكتوما

وهنا فطن « مان » إلى ما بين ننوسة والأمير من مبادلات فقال — وفى قوله إغراء — : وأنا أزيد بيتين عليهما لو استطاعهما أبو نواس لفعل ، وهما :

ظبية كالغزال لو تلحظ الصّخـ ـرَ بطرف لغادرته هشيما
وإذا ما تبسَّمت خلتَ ما تُبـ ـدى من الثغر لؤلؤاً منظوما

قال الأمير : أحسنت يا« مان » ! ووالله لقد سحرتنا ننوسة بجمال صوتها وسحر ألحانها ! والآن ، اسكتوا أنتم وخذوا منى بيتين :

لم تطب اللذات إلا لمن طابت له لذات ننوسه
غنت بصوت أطلقت عبرة كانت برغم الصبر محبوسه

فتعجب « مان » من أن يكون لدى الأمير صبر على مثل ننوسة فقال : أيها الأمير !

وكيف صبر النفس عن غادة تظلمها إن قلت طاووسه ؟
إذا جرت شبهتها بانةً فى جنة الفردوس مغروسه

وهنا التفاتة جديدة أظهرتها النشوة ! وهنا شعور الأمير نحو ننوسة ! فما هو معجب بها لأنها مغنية فحسب ، ولكن لأنها امرأة أيضًا ! ! فها هو ذا ينسى الجانب الفنى فيها فيصفها ، ويتطلع إليها على أنها مخلوق من لحم ودم وشعور ! وها هو ذا يصمت قليلاً ثم يقول : زد فى وصفها يا مان ! فيقول :

وغير عدل إن قرنّا بها جوهرةً فى التاج مغروسه
جلّت عن الوصف فما فكرة تلحقها بالنعت محسوسه

وسمعت « نوسة » هذا الوصف المبدع فاستحيت ثم قالت : يا مان ! وجب علينا شكرك ، فساعدك دهرُك ، وعطف عليك إلفُك ، وقارنك سرورك ، وفارقَكَ محذورك .

وفطن « مان » إلى أنها تستفزه بقولها « وعطف عليك إلفك » فرد عليها :

ليس لى إلف فيقطعنى  فارقت نفسى الأباطيلُ

قال ابن طاهر : يا مان ، غريب أن تكون قذر الثياب ، قبيح الشكل مع أنك شاعر أديب ، سريع الخاطر ، عفيف النفس لم تتبذل تبذل الشعراء فى ساحة الملوك فما أجدرك بقول صالح بن عبد القدوس :

لا يعجبنَّك من يصـــون ثيابه  حذر الغبار وعرضه مبذول
فلربمـــا افتقر الفتى فرأيتـــه  دنس الثياب وعرضـــة مغسول

« ولنوسة » حظوة رفيعة عند مولاتها كما قلنا ، ولقد كانت لها السفير البارع المحبوب الذى يقضى حوائجها لدى الخلفاء ، ويفك مشاكلها الوجدانية ولقد كان جمالها وغناؤها وشخصيتها العذبة أسلحة ماضية فى القيام بأعباء مولاتها ، وفى كثرة عشاقها والمعجبين بها .

## ٣ ــ تُحفْة الزّاهدة

جارية لبعض تجار بغداد، وقد عرفت بالجمال والغناء والحسن وقرض الشعر ، كما عرفت بميلها إلى الوحدة وعدم اطمئنانها إلى الناس ، وكثيرًا ما كانت تتبرم من بعض مجالس الغناء التى كان يقيمها سيدها فى داره ، ولكنها كانت تغنى على كره منها !

وعلى الرغم من العروض المالية الكبيرة التى عرضت على سيدها فى بيعها ، فإنه رفض التسليم فيها ، ولعلها احتلّت من قلبه مكانًا يقصر عنه كل عَرَض ، ويتضاءل أمامه بريق الأموال !

وهنا ظاهرة غريبة فى هذه الجارية لم تألفها فى طباع القيان المغنيات ، فهى لا تألف المجالس ولا تستريح إلى الناس ، ولكنها تميل إلى الوحدة وسهر الليل وقرض الشعر والتغنى به بين أطواء الظلام ! !

فلعلها أغرمت بمن تعرفه هى وحدها ثم حالت بينهما الأقدار ! أو لعلها صوفية الحب تعشق خالقها ، وتحب جواره والتقرب إليه على نحو غرام ابن الفارض الشاعر الصوفى المعروف ، وإنى لأحسبها كذلك ، ولذا سميت بالزاهدة :

جلست مرة والعود فى حجرها تغنى :

وحقك لا نقضتُ الدهر عهـــدًا ولا كدرت بعد الصفو وُدًّا
ملأت جوانحى والقلبَ وجدًا فكيف ألذ أو أسلو وأهدى ؟
فيا من ليس لى مولى ســـواه تراك تركتنى فى الناس عبدا

ثم كسَّرت العود وقامت فبكت وانتحبت !

ورأى سيدها ذلك فدهش وتعجَّب! لقد اتهمها أنها تحب ! وتحب إنسانًا بعيدًا عنها ، فمن يكون ؟

وراح سيدها يسومها الخسف والعذاب دون أن تبوح بشيء من سرها ، ودون أن تدافع عن نفسها ! وما لها وهذا ؟ إنها تنطوى على معان تستفزها ، وإحساس واسع الآفاق تعيش فيه صامتة ذاهلة ، لا تملك سوى الدموع والغناء فى الخلوات الرهيبة ، وما ينغصُ عليها هذه السعادة إلا إلحاح ذلك السيد وإمعانُه فى تقريعها وتنغيص راحتها . . . ! لقد راح الرجل يسأل عنها ويتحرى عن وجود علاقة بينها وبين أحد من أهل بغداد أو غيرها فلم يجد لذلك أثراً . . . ثم يترقب أحوالها فإذا هى فى صمتها وذهولها ووحدتها بين الدموع والغناء ! ويكرر عليها أسئلته عما أصابها فتنشد وتغنى وتبكى :

خاطبنى الحق من جنانى     فكان وعظى على لسانى
قرّبنى منه بعد بُعد     وخصّنى الله واصطفانى
أجبت لما دُعيت طوعا     ملبيًّا للذى دعانى
وجدْتُ مما جنيت قِدما     فأوقع الحب بالأمانِ

من هذا الشعر وما قبله تلمح أن لهذه الجارية ماضياً فيه آثام . . . ! وأن موجة عنيفة من التوبة قد اجتاحتها فخلصت لربها وعاشت بنفسها فى جواره ، وأن لها عتاباً رقيقاً عليه . . . إذ كيف يتركها عبداً للناس وهو وحده سيدها ولا سيد سواه ؟

فيا من ليس لى مولى سـواه     تراك تركتنى فى النـاس عبدا

ولما عجز سيدها عن فهم أسرارها ، ويئس من صلاحها ، أرسلها إلى « المارستان » فهى فى نظره مجنونة أو مخبولة ؟ فما هذا فى شريعته بحب ! وهى تعيش بين ضجيج الحياة الفاتنة فى بغداد ؟

ودخلت « المارستان » فحبسها الحارس وقيّد يديها ورجليها ، وما إن رأت نفسها كذلك حتى بكت وأنشدت وغنّت من غير عود :

أعيذك أن تُغلِ يدى … بغير جريمة سبقَتْ
تغل يدى إلى عنقى … وما خانت وما سرقت
وبين جوانحى كبد … أحسُّ بها قد احترقت
وحقك يا مُنى قلبى … يمينًا برَّةً صدقت
فلو قطعتَها قِطعًا … وحقك عنك ما رجعت

* * *

وروى السَّرى السَّقَطى رضى الله عنه قال :

دخلت على تحفة فى « المارستان » فوجدتها أنضر الناس وجهًا وعليها أطمار حسنة شممت منها رائحة العطر ، فسألت الحارس عنها فقال :

هى جارية مجنونة حبسها سيدها هنا ، فلما سمِعَتْ « تحفة » ما قال الحارس بكت ثم غنَّت :

معشر الناس ما جُنِنتُ ولكن … أنا سكرانةٌ وقلبى صاحى
أغلَلْتم يدى ولم آت ذنبًا … غير جهدى فى حبه وافتضاحى
أنا مفتونةٌ بحب حبيب … لست أبغى عن بابه من براح
فصلاحى الذى زَعَمتم فسادى … وفسادى الذى زعمتم صلاحى
ما على من أحَبَّ مَوْلى الموالى … وارتضاه لنفسه من جُناح

قال السَّرى : فسمعت منها ما أقلقنى وأشجانى ، وأحرقنى وأبكانى ، فلما رأت دموعى قالت : يا سيدى ، هذا بكاؤك من وصفه ، فكيف لو عرفته ؟ وأنشأت تقول :

ألْبستنى ثوب وصل طاب ملبسه … فأنت مولى الورى حقًّا ومولائى
كانت بقلبى أهواء مفرقة … فاستُجْمِعتْ مذرأتك العين أهوائى
من غُصَّ داوى بشرب الماء غصته … فكيف يَصْنَعْ من قد غص بالماء ؟
قلبى حزين على ما فات من زللى … والنفس فى جسدى من أعظم الداء

والشوق في خاطري مني وفي كبدي ۔۔۔ والحب مني مصونٌ في سويدائي
إليك منك قصدتُ الباب معتـذراً ۔۔۔ وأنت تعلم ما ضمَّته أحشائي

قال السري: يا جارية ، سمعتك تذكرين الحب فمن تحبين ؟ فأطرقت ولم تجب، ثم غنَّت :

قلبي أراه إلى الأحبـاب مرتاحا ۔۔۔ سكران من راح حب بالهوى باحا
يا عين جودي بدمع خوف هجرهم ۔۔۔ فرب دمع أتى للخـير مفتاحا
ورب عين رآها الله باكيـة ۔۔۔ بالخوف منه تنال الرَّوْح والراحا
لله عبـد جنى ذنبًا فأحـزنه ۔۔۔ فبات يبكي ويذري الدمع سفّاحا
مستوحشًا خائفًا ، مستيقنًا فطنًا ۔۔۔ كأن في قلبه للنور مصباحا

قال السري : فزادتني حزنًا على حزن ، وأغلقتْ أمام عيني مفاتيح سرها . . . ! طال سجن تحفة . . . وطال عذابها فيه . . . كما طال بكاؤها وشعرها وغناؤها ، ولما لم يجد سيدها نتيجة لما صنع بها ، أخرجها من سجنها ، وأعتقها وخلى سبيلها ، وفي ذلك تقول :

هرَبت منه إليـه ۔۔۔ بكيت منـه عليه
وحقـه هو مولى ۔۔۔ بمـا رجوت لـديه
حتى أنال وأحظى ۔۔۔ بما رجوت لديه

ثم انطلقت في حياتها الزاهدة ، فتوجهت إلى مكة ، ودخلت الكعبة وأنشدت :

فهمتُ بحبه وسهرت فيـه ۔۔۔ فلست أريد محبوبًا سواه
كذاك من ادَّعى شـوقًا إليه ۔۔۔ يهيم بحبه حتى يراه . . !

ثم لفظتْ النفس الأخير فماتت في الكعبة . . . !

وبعد : أو عرَفنا من كاتب تحب؟ ؟

# فهرست




تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١


Bibliotheca Alexandrina
06231189